

كتاب الساعة

التقصير

قصة الحرب العربية الإسرائيلية يرويها
سبعة من الصحفيين الإسرائيليين

بن پورات
جوناثان جوفين
يوري دان
هزي كارمل
ايلي لانداو
ايتان هابر
ايلي تافور





mohamed khatab



كتاب الساعة

٤

التقصير



الطبـــعة الأولى

٥ يونية ١٩٧٤

التقصير

بن پورات
جوناثان جوفين
يورى دان
هزى كارمل
ايلى لانداو
ايتان هابر
ايلى تافور

قصة الحرب العربية الاسرائيلية
يرويها سبعة من الصحفيين الاسرائيليين

ترجمة :
محمد موسى بدوى
ابو بكر محمد بكر
منى نصر

«وشهد شاهد من أهلها»

قرآن كريم

المؤلفون

انهم سبعة :

* بن بورات ، فى الخامســـة والاربعين ، ولد فى فيينـــا ، واتم دراسته فى جامعة القدس والسوربون ، وهو يعمـــل صحفيا منذ ثمانيـــة عشر عاما فى صحيفة يديعوت احرنوت ـ فعمـــل مراسلا فى اسرائيل لمحطة اوروبا رقم ١ ، ثم فى ميونيخ لحساب مجلة ((كويك))، وقد اصدر فى باريس بالاشتراك مع أورى دان كتابا بعنوان : ((الجاســـوس الذى جاء من اسرائيـــل)) وكتابا آخر بعنوان ((ميراج ضد ميج)) . وكتابا ثالثا بعنوان ((لعبـــة بوكر الجواسيس)) .

وفى الساعة الثانية من بعد ظهر السادس من اكتوبر كان فى ميونيخ ، فاستدعى منها الى اسرائيل ، لكى يلحق بقيـــادة جبهة الجنوب .

* جوناثان جويفين ، فى السادسة والعشرين ، وهو ابن شـــقيقة موشيه ديان ، ويعمل كاتبا للمقال فى صحيفة معاريف . وهـــو كاتب وشاعر ، درس فى كمبريدج ، وحارب مع جنود المظلات خـــلال حـــرب عيد الغفران ، وكان واحـــدا من الذين عبروا القناة .

وفى الساعة الثانية من بعد ظهر يوم عيـــد الغفران ، كان يتنزه فى تل أبيب مع طفلتـــه الصـــغيرة ، ويروى لهـــا ان الله موجود . وقد صدقته طفلته .

* اورى دان ، فى الثامنة والثلاثين . وقد ولد فى تل أبيب ، وعمل منذ ثمانية عشر عاما مراسلا لصحيفة معاريف . كان احد جنود المظلات فى الجيش الاسرائيلى خلال حرب سيناء عام ١٩٥٦ ، ثم عمل مراسلا لمجلة ((بارى ماتش)) فى اسرائيل وانضم فى حرب عيد الغفران الى الفرقة التى تولى قيادتها شارون .

وفى الساعة الثانية من بعد ظهر السادس من أكتوبر ، كان يحضر مؤتمرا صحفيا لمدير المخابرات العسكرية .

* هنرى كارمل ، فى السادسة والثلاثين . كاتب المقال الرئيسى فى صحيفة معاريف ، ومراسل مجلة ((اكسبريس)) فى اسرائيل . وقد تولى لعدة أعوام مهام دبلوماسية لاسرائيل فى فرنسا وافريقيا وآسيا ، فشغل منصب القنصل الاسرائيلى العام فى لوس انجيلوس ، وعبر خلال حرب الغفران القناة مع جنود المظلات .

وفى الساعة الثانية من بعد ظهر السادس من أكتوبر ، كان فى معبد بتل ابيب .

* ايلى لاندو ، فى الرابعة والثلاثين . ولد فى تل ابيب ، وهو جندى قديم من جنود المظلات . عمل مراسلا حربيا لصحيفة معاريف ، وفى عام ١٩٦٧ ، كان بين جنود المظلات الذين احتلوا القدس . وقد صدر له كتابان عن حرب

الأيام الستة ، وكان خلال حرب الغفران مع القوات فى الجبهتين .

وفى الساعة الثانية من بعد ظهر السادس من اكتوبر ، كان يلعب الشطرنج فى بيته بتل ابيب .

* ايتان هابر ، فى الثالثة والثلاثين من عمره . ولد فى تل أبيب ، وعمل منذ ثلاثة عشر عاما مراسلا فيها لصحيفة يديعوت أحرونوت . صدرت له عدة كتب عن الجيش الاسرائيلى ، وكان يعمل خلال حرب عيد الغفران مراسلا حربيا فىالجبهتين.

وفى الساعة الثانية من بعد ظهر السادس من اكتوبر ، كان فى مؤتمر عقده رئيس المخابرات العسكرية .

* ايلى نالفور ، فى التاسعة والثلاثين ، له أربعة أبناء ، وعاصر خمس حروب ، ولد فى تل أبيب ، وعمل رئيسا لتحرير مجلة هاعولام هازى ، وكتب عدة قصص للسينما .

وفى الساعة الثانية من بعد ظهر يوم الغفران ، كان فى مؤتمر رئيس المخابرات ، وقد عقد معه رهانا على أنه لن تكون هناك حرب ..

الأحد ٧ أكتوبر ١٩٧٣ ، ظل النكبة

« ليس هناك أمل ! ليس هناك أمل ! .. »

كان ذلك هو ما يصيح به أحد الضباط ، فى جهاز التليفون الذى يصله راسا برؤسائه ، وهو يقول : انهم يهاجمون فى القطاع الجنوبى :

وفى مقر القيادة العليا فى سيناء ، كانت جميع مكبرات الصوت فى شبكة اذاعة القوات الاسرائيلية ، على جبهة قناة السويس ، مفتوحة على آخرها ، فقد كانت الأنباء مروعة .

وأعلن الجنرال ابراهام ماندلر (ويسمونه البرت) وهو قائد القوات الاسرائيلية المدرعة فى سيناء : « لقد حدثت لنا فجوات كبيرة فى خطوط القطاع الأوسط ، وفى الجنوب ، وتهاجمنا عشرات المدرعات ! اننى اطلب معاونة الطيران » .

ومن الناحية الأخرى من الخط التليفونى ، جاء رد رئيس الأركان مقتضبا :

ـ حسن .. شكرا .. سوف نرى .

لكن الجنرال ماندلر عاد يقول :

ـ اذا لم ترسلوا الطيران ، فان القطاعين الأوسط والجنوبى سوف ينهاران . ان فى مواجهتى مائتى مدرعة على الأقل ، واذا لم يجىء الطيران سريعا ، فستكون الكارثة .

وفى القطاع الشمالى لم يكن الموقف أفضل من ذلك ، فقد أعلن الجنرال ابراهام ادان (الذى يسمونه برين) فى جهاز اللاسلكى .. « ان فرقة مصرية كاملة تقوم بالهجوم ! » .

وسأله الجنرال جونين : هل تستطيع تحمل الضربة ؟

ـ والطيران ؟

ـ انه مشتبك فى الجولان ، لكى يصحح الفجوة .

وكانت أصوات الجنود التى ضخمتها أجهزة الاذاعة تزداد الحاحا، وهم محاصرون .

وتساءل أحد قادة موقع فى قطاع القناة : « ما الذى تنتظرونه لكى تجيئوا لتخليصنا ؟ »

ولكن صوته غطاه نداء آخر يقول : « ان المصريين دخلوا فناء الموقع . سأقطع الاتصال .. وسأحارب » .

وعاد الاتصال مرة أخرى بعد ربع ساعة ، وقال صوت :

ـ لقد قمنا بصدهم .. ولكنهم يعودون .. انهم ثمانمائة رجل على الأقل .. وهم يطلقون النار فى داخل الدشمة .. اننى أصبحت سجينا .. هذه هى آخر رسالة منى .. ان المصريين يجتاحون الموقع . قولوا لأمى اننى حاربت ببسالة ..

وانقطع الاتصال ، وكان انقطاعه نهائيا ..

ودلف رئيس احدى الوحدات فى قطاع القناة الى مقر القيادة . كان قد حصل منذ يومين على أجازة ، وكان ذلك عشية الحرب . ومنذ أن سمع الأنباء الأولى ، حاول بكل ما فى وسعه العودة الى الخطوط ،

ولكن قطاعه عزل تماما عن بقية الجيش . كان آلاف من الجنود المصريين ، وعشرات من الدبابات تفصل بينه وبين رجاله ، فلما انهار ، ظل جالسا على الرمال ، ورأسه بين يديه . لقد أصبح عاجزا عن عمل اى شيء ، وراح يستمع الى أصوات جنوده فى جهاز الاذاعة .

واستمر الجنرال جونين الذى كان على اتصال دائم بالقيادة العامة ، فى وصف الصورة للموقف على الجبهة الجنوبية . ان قواته تبذل جهدها لابادة طليعة لواءين مدرعين مصريين ، اجتازا قناة السويس ، ويتابعان تقدمهما الى قلب سيناء .

ولم يكن الجنرال صمويل جونين ، وهو ذلك الجندى الصلب المتزمت ، والذى كانوا يطلقون عليه اسم (جوروديتش) ، لم يكن يترك نفسه الا نادرا ، ان لم يكن على الاطلاق ، لكى يسيطر عليه الفزع . ويدل تاريخه العسكرى الطويل على انه كان دائما يعرف كيف يواجه فى هدوء أكثر المواقف مدعاة لليأس . غير انه فى ذلك الصباح ، شعر حقيقة بالقلق .

ومنذ أن وصل بالأمس ، وهو اليوم الأول لحرب عيد الغفران ، ومعه ضباط أركان حربه الى موقع القيادة المتقدم ، وهو محفور فى باطن الأرض ويتمتع بتحصين قوى ، فقد طلب أن يقدم اليه تقرير كامل عن الموقف ، ثم اتصل تليفونيا بالجنرال ماندلر . وفى نهاية حديثهما ، راح ماندلر يسأله كرجل لرجل :

ــ قل لى .. ما الذى لديك لتدافع به عن نفسك ؟

ــ ان لدى مدفعى الرشاش .

ولم تكن هذه نكتة .

ان ذلك كان يمكن أن يكون رد أى ضابط فى القيادة العامة المتقدمة ، فى الجبهة المصرية . فقد كان كل منهم على استعداد لكى يدافع عن حياته بسلاحه الخاص .

ان موقف اسرائيل على الجبهة الجنوبية ، كان بالغ الخطورة ، من اية زاوية نظر اليه ، فلم تكن القيادة العامة قادرة على أن تفعل فيه اى

شيء . أما فى الجبهة الشمالية ، فان الموقف على طول خطوط وقف اطلاق النار فى مرتفعات الجولان كان أكثر خطورة ، بل كان داعيا الى اليأس . ففى نفس ذلك اليوم ، السابع من أكتوبر ، وفى السادسة صباحا ، كانت فرقة سورية مدرعة تهاجم معسكر الخشينة فى قلب مرتفعات الجولان ، وتكتسح سفوحه فى اتجاه سهل الحطيبة ، عند مصب نهر الأردن . واجتازت المدرعات الأولى لهذه الفرقة قرية اليهودية ، وهى قرية عربية مهجورة ، ووصلت الى التل المشرف على الطريق الجديد الذى يتجه من شمال بحيرة طبرية الى الماجور فى المرتفعات .

كانت هذه القوة السورية المدرعة تضم ستمائة قذيفة ، ومن تقاطع الرافد على خط وقف اطلاق النار ، اندفعت نحو قلب هضبة الجولان ، لكى تهبط منها فى ثلاثة رءوس حربة ، أولها الى الغرب ، فوصل سريعا الى التلال التى تطل على منخفض طبرية ، وانطلق بكل سرعته نحو مضيق (مافو ـ هاما) للاستيلاء على المحور الجنوبى المؤدى من هضبة الجولان الى سهل الأردن . أما الاثنان الآخران فلم يصطدما بأية قوة عسكرية قادرة على أن تشكل عائقا يمنع تقدمهما أو تحول دون ضرب كماشة حول بحيرة طبرية فى اتجاه طبرية نفسها ، قبل أن يتابعا السير الى سهل الأردن، حيث بواخه ووادى بيسان. ووصلت الدبابات السورية بالفعل الى مسافة طلقة مدفع من محطة الضخ الرئيسية فى القناة الوطنية ، وهى القناة التى تعتبر بحق الشريان الحيوى الذى يوصل الدماء ـ أى الماء ـ الى اسرائيل .

ومن عند الضفة الغربية لبحيرة طبرية ، شوهدت فى الجانب الآخر قطعان الماشية وهى تفر مذعورة ، اثر الدوى المفاجىء لآلاف القذائف التى انطلقت على سلسلة الجبال ، فوقها مباشرة . وغطى اللهب الحقول ، واقتلع الأشجار ، وضرب نطاقا حول البحيرة الكبرى بأعمدة هائلة من النار والدخان .

وفى أسفل الجولان ، فى وادى الحولة ، وحول البحيرة وفى سهل الأردن ، راح السكان يحاولون تجنب الخطر . فقد أخليت فى الليلة السابقة المستعمرات الزراعية والمزارع الجماعية (نحال) من العاملين

فيها ، وسقط بعضها فى أيدى السوريين . وراحت الاجراءات تتخذ لاخلاء النساء والأطفال من سكان المنطقة الواقعة الى الشرق من البحيرة ووادى الأردن ــ وحاول الرجال الذين ظلوا فى أماكنهم ، ومعهم بعض الأسلحة الخفيفة وقنابل مولوتوف ، تنظيم دفاع محلى قادر على الحيلولة دون السوريين والدخول الى قراهم ، كما سبق لهم ان فعلوا منذ خمسة وعشرين عاما . الا أن الموقف هذه المرة كان مختلفا غاية الاختلاف ، كما كان أكثر خطورة من الماضى .

ففى عام ١٩٤٨ كانت قرى المنطقة هى القرى الواقعة على الحدود، التى اندمجت فى النظام الدفاعى عن البلاد ، وزودت بما يكفل القضاء على أى غزو محتمل . ولقد تم ايقاف المدرعات السورية عند شبكة الأسلاك الشائكة حول مستعمرة (ديجانيا بيت) بعد أن تعطلت عند الخنادق المضادة للدبابات ، واشعلت فيها النيران بقذفها بقنابل مولوتوف المحلية الصنع . الا أنه منذ حرب الأيام الستة أصبحت الحدود بعيدة ، كما أن سكان القرى قد تخلوا عن دورهم القديم الذى كانوا يقومون به عندما كانوا حراسا . وحتى أصحاب أكثر التوقعات تشاؤما ، لم يكونوا يتصورون أن هذه القرى يمكن أن تتعرض للهجوم مرة أخرى فى أى يوم من الأيام ، ولذلك لم يكونوا يمتلكون أية أسلحة مضادة للدبابات ، بل لم تكن لديهم أسلحة فردية للدفاع عن السكان .

ولو أن الجيش المصرى كان قد تمكن من الدخول الى الخطوط الاسرائيلية على الجبهة الجنوبية ، لكان على دباباته مع ذلك أن تمضى عدة أيام لكى تقطع مئات الكيلو مترات ، قبل أن تصل الى أول القرى الاسرائيلية . لكن الأمر فى الشمال كان مختلفا عن ذلك تماما ، اذ كانت الدبابات السورية فى حاجة فقط الى ساعات وربما الى دقائق . ولو ان نظام الدفاع الاسرائيلى تحطم عند الحدود مع سوريا ، لأصبحت عشرات القرى فى وادى الأردن بغير دفاع . فحتى هنا ، كانت هذه القرى تصلح كأهداف للصواريخ أرض ــ أرض من طراز (فروج) .

وعند مجىء الليل فى ذلك اليوم (الأحد) ، كان الموقف خطيرا شمال هضبة الجولان ، ذلك أن طابورا اسرائيليا مدرعا قد تمكن من تعطيل تقدم السوريين على طريق دمشق ــ القنيطرة ، ولكن رأس الحربة

السورية فى الشمال (وكانت تتكون من الفرقة السورية المدرعة القادمة من تقاطع الرافد) شنت حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر هجوما فى اتجاه (نفاح) الواقعة فى المنطقة الغربية من الهضبة . ومن هناك اندفعت نحو جسر (بنات يعقوب) وفى نيتها قطع الجولان الى جزءين ، فى اتجاه عرض الهضبة . وبحركة التفاف بدأت من الشمال مارة من عند التلال السوداء ، هاجمت المدرعات السورية (نفاح) ، وهو معسكر سورى قديم .

كان هذا المعسكر على بعد عشرين كيلو مترا من خطوط وقف اطلاق النار لعام ١٩٦٧ يضم مقرا للقيادة ، بضباطه ووحداته المساعدة ، ولكنه لم تكن لديه دبابات تقوم بمهمة الدفاع . ولم يكن الهجوم من الجناح امرا متوقعا على الاطلاق ، ولذلك راحت قوات المعسكر والمدرعات الاحتياطية المساعدة تقاتل فجأة وهى تتراجع الى الوراء . لقد كانت تعتقد أنها خلف الخطوط ، ولكن كم كانت دهشتها عندما رأت نفسها فى مواجهة الدبابات السورية القادمة بكل سرعتها ، وهى تطلق النار بكل مدافعها .

وفى هذه الأثناء ، تمكنت وحدة أخرى من ضرب حصار حول (نفاح) ، ثم اندفعت الى الغرب نحو جسر (بنات يعقوب) . ولما كانت مدرعات هذه الوحدة مزودة بالأشعة تحت الحمراء ، من أجل القتال الليلى ، فانها تابعت تقدمها ، فسيطرت على وادى الحولة الممتد أمامها، وأصبحت تسيطر على الطريق المؤدى الى قلب الهضبة .

أما الوحدة الاسرائيلية المدرعة الصغيرة التى حاولت الوقوف فى وجه الدبابات السورية ، فقد محيت محوا . وفى حوالى الساعة الحادية عشرة مساء ، وبعد سبع ساعات من القتال الدامى ، أصبحت (نفاح) خلالها محاصرة بالدبابات المشتعلة وبالجثث والجرحى انتظارا لاخلائها ، استطاع قائدها الاتصال بالجنرال رفائيل ايتان ــ الملقب برافول ــ وهو واحد من قادة القوات الاسرائيلية فى الجبهة الشمالية وقال له : « لقد انتهى كل شىء أعتقد أن كل شىء قد انتهى » . وأدرك رافول الموقف على الفور ، وأن مصير المعركة الدائرة معلق بخيط رفيع، وأن السوريين اذا استطاعوا أن يحققوا نصرا، فان الطريق ينفتح أمامهم

الى (بنات يعقوب) ، ثم الى (روش بينا) ، وصفد ، و (كريات شمونة) ، ثم الى الجليل الأعلى . وفى هذه اللحظة بالذات ، وعلى وجه التحديد ، قدمت الى الجنرال تقارير المواقع المحاصرة ، التى ظلت على خط وقف اطلاق النار ، خلف المدرعات المعادية . وكانت التقارير تقول انه يبدو أن السوريين قد دفعوا من عند (الحسنية) بفرقة مدرعة ثانية ، أخذت تنضم الى قوات الخطوط الأمامية .

وصاح رافول فى مكبر الصوت :

ـ لا تتحركوا ! لا تتحركوا شبرا واحدا ! اصمدوا .. أصمدوا خمس دقائق فقط !

فلماذا كان هذا الأمر ؟ ان رافول نفسه لا يعرف السبب ، ولم يكن هناك اى احتمال فى ان تاتى الدقائق الخمس بأى عنصر جديد . غير انه فى لحظة من لحظات اليأس ، أراد أن يثبت فى اماكنهم أولئك الجنود ، الذين أصبحوا الآن هم العقبة الوحيدة التى تقف فى وجه الهجوم العاصف نحو قلب اسرائيل .

لقد أخذت ظلال النكبة تخيم فى ذلك اليوم ، الأحد السابع من اكتوبر ، على دولة اسرائيل . **ولقد قال بنحاس سابير وزير المالية فيما بعد : «لم تكن هناك سوى خطوة واحدة باقية ، ثم تباد اسرائيل تماما»**

ان الوعى الجماعى لأمة من الأمم ، يرفض الخضوع لاحتمال ابادته ، تماما كما يرفض العقل الانسانى السليم بانه مقضى عليه ، فيحاول تحدى الموت . ان الفرنسيين أو الألمان أو السوفييت يمكن ان يفكروا فى احتمال اصابتهم بهزيمة عسكرية ، أو فى اضطرارهم الى الاستسلام ، أو الخضوع أيام الغزو ، ولقد حدث فعلا أن وقفوا مثل هذا الموقف ، ولكنهم لم يكونوا يخشون الابادة الكاملة . أما الاسرائيليون ، فانهم مازالوا واقعين تحت سيطرة الخوف من هذه الابادة ، بغير النظر الى أن الجيل اليهودى السابق قد عرف نفس هذا الخوف ، اذ أنهم كانوا يعرفون تماما أن الرهان الذى تدور حوله الحرب ، انما هو وجودهم كشعب أو كأفراد .

وخلال هذه الساعات الحاسمة ، كانت الهزيمة العسكرية تتهدد اسرائيل ، ان المفهوم الأساسى لدولة اسرائيل : ان اية هزيمة عسكرية لا تعنى احتلالا او ضياع استقلال ، ولكنها تعنى ببساطة محوا كاملا من فوق الخريطة الجغرافية . ولذلك فان اسرائيل لا يمكنها بأى حال من الأحوال أن تسمح لنفسها بأن تتعرض لهزيمة عسكرية ، وهى الهزيمة التى بدت أمرا لا مفر منه ، بعد ثمانى عشرة ساعة فقط من اندلاع حرب عيد الغفران .

اجل ، لقد كان يمكن القول انها أمر لا مفر منه . فمن الذى ادرك ذلك ؟

ان مئات الآلاف من جنود الاحتياط أخذوا يستعدون للتوجه الى الجبهة ، وقد وجدت المجموعات الأولى منهم نفسها فى الخطوط الأمامية بعد استدعائهم ببضع ساعات . لقد كانوا فى قلب المعمعة ، مما يجعلهم قادرين على تقدير حقيقة الموقف .

أما فى المؤخرة ، فان هذا الموقف لم يكن يمكن أن يبدو الا طيبا . حقا لقد كانت الزوجات والأمهات يشعرن بالقلق ، فقد انتزع منهن الأزواج والأبناء فجأة ، لكى يرسلوا الى الجبهة . وراحت صفارات الانذار تنعق كل بضع ساعات ، فيهرول المدنيون الى المخابىء . ثم كان هناك الاظلام ، وانقطاع الكهرباء ، ثم هدير الطائرات النفاثة ، وهذه جميعا عناصر جديدة ، جعلت اسرائيل كلها تغرق فى جو الحرب . الا أن الفجوة التى تفصل بين الحرب وبين الادراك الحقيقى للخطر الذى تتعرض له البلاد فى هذه الظروف ، كانت فجوة هائلة .

لقد ظهرت الصحف الاسرائيلية فى ذلك الصباح ، وعلى صدرها العناوين الضخمة التى تدخل الطمأنينة الى النفوس ، وتنعش فيها الأمل . فعلى عرض الصفحة الأولى من صحيفة (ها آرتس) ، كان عنوان يقول « الجيش الاسرائيلى يحتوى العدو .. ويستعد لشن هجوم مضاد » أما صحيفة (دافار) فقالت : « ان الجيش الاسرائيلى يوقف تقدم العدو فى سيناء » . ونشرت جميع الصحف نص الخطاب الذى القته جولدا مائير رئيسة الوزراء فى التليفزيون فى اليوم السابق ، وجاء فيه :

« ان الجيش الاسرائيلى على استعداد لدحر الهجوم . ان أعداءنا كانوا يتصورون اننا يوم عيد الغفران لسنا قادرين على الرد .. ولكننا لم تؤخذ على غرة » .

ولم يتردد موشيه ديان من جانبه من أن يضيف الى ذلك قوله : « لسوف نهزمهم هزيمة منكرة .. » .

وفى الساعة التى كانت فيها الصحف الاسرائيلية تنشر هذه الأقوال ، كان يمكن بسهولة تصور أن تفاؤل الذين أدلوا بها لم يكن على ما هو عليه . ذلك أن أنباء جديدة مروعة تدعو الى اليأس ، كانت ترد من كلتا الجبهتين . وحوالى الظهر ذهب موشيه ديان بنفسه الى القيادة العامة المتقدمة فى الجنوب على بعد ثلاثين كيلو مترا من قناة السويس. وقد رافقه الجنرال رحافام زيفى الذى يطلقون عليه اسم (جاندى) ، والذى كان قد خلع منذ بضعة أسابيع مضت الزى العسكرى وترك مسئولياته كقائد عام للقوات الاسرائيلية فى المنطقة الوسطى ، والذى حرص وزير الدفاع على أن يكون معه وهو يستطلع على الطبيعة أنباء المنطقة .

وقدم الجنرال جونين وضباطه تقريرهم ، واستمع اليه ديان فى اكتئاب ، وعلى جانب من شفتيه ابتسامة عصبية ، بينما نشرت أمامه خرائط المنطقة ، وراحت تصل أذنيه العبارات غير المتكاملة ، التى ضخمتها أجهزة الاذاعة . وأمام الصحراء المنبسطة راح يفكر ويمعن التفكير ، ثم أعطى الضباط ما أسماه (اقتراحا وزاريا) ، الا وهو أن يخلوا باقصى سرعة جميع القطاعات الحصينة فى خط قناة السويس ، وأن يوقفوا معارك المدرعات ، وأن يقيموا خطا جديدا بالقرب من الجبال، على بعد يتراوح بين عشرين وثلاثين كيلو مترا الى الشرق من القناة ، وذلك بهدف ايقاف تقدم العدو . ثم قال مؤكدا : « ان هذه القطاعات الحصينة ليست ذات بال » .

وكان الجنرال أورى آى ضابط المصفحات ، وهو طبيب بيطرى عبىء لكى يكون مساعدا للقائد العام لقوات الجنوب ، حاضرا هذه النصيحة التى وجهت الى الضباط . وقد قال فيما بعد : « كان الشعور

المسيطر علينا ساعتئذ هو اننا نعيش أحداثا حاسمة ومروعة يتوقف عليها مصيرنا . فكل هزيمة تفتح فجوة جديدة فى الطريق الى تل أبيب. وقد أحسسنا أن رجال الاحتياط لدينا سوف يلتقون بالمصريين فى مكان ما من سيناء » .

وعندما عاد موشيه ديان من هذه الجولة فى الجبهة الجنوبية ، كان بادى القلق . وقد اجتمع على الفور مع جولدا مائير ، التى كانت قد ابلغت بالخسائر التى أصابت الاسرائيليين فى اليوم السابق ، وهو اول يوم فى الحرب : وكانت هذه الخسائر خمسمائة قتيل ، والفا من الجرحى ، ووقوع عشرات من الأسرى . ولادراك أبعاد الكارثة ، يكفى مقارنة هذه الأرقام بأرقام الحروب السابقة : ففى عام ١٩٥٦ أثناء حملة سيناء ، وقع فى صفوف الجيش الاسرائيلى خلال أيام القتال الخمسة مائة وثمانون قتيلا ، وأسيرا واحدا ، ووقوع طيار واحد فى أيدى المصريين .

وخلال حرب الأيام الستة ، كانت خسائر اسرائيل ثمانمائة وخمسين قتيلا ، وأربعة عشر أسيرا .

وفى هذا اليوم ، السابع من أكتوبر ١٩٧٣ ، وبعد انقضاء أقل من اربع وعشرين ساعة من القتال ، اذ باسرائيل التى كانت تعتبر حتى ذلك الوقت قوة عسكرية ، اسرائيل التى غدت بسالتها مضرب الأمثال لكل جيوش العالم ، اسرائيل التى حققت منذ ستة أعوام أعظم انتصاراتها وأكثرها مدعاة للذهول فى تاريخ الحروب الحديثة ، اذ باسرائيل هذه تتخبط كالحيوان المطارد من أجل بقائها نفسه ، بعد أن أصبحت مهددة بالدمار الكامل .

فكيف أمكن حدوث هذا الانقلاب الكامل الشامل ، فى مثل هذه الفترة القصيرة من الزمن ؟

إن لهم عيونا .. ولكنهم لا يعرفون كيف يرون بها

يقولون ان التاريخ لا يكرر نفسه قط ..

فلنر كيف كان ذلك :

ان دورات التاريخ السيئة التى يدخرها ـ مفجعة كانت أم دامية ـ تتكرر بلا انقطاع ، ولكن بغير أن تأخذ شكل المثال الذى يحتذى .

وهنا علينا أن نذكر ما حدث فى شهر يونيه سنة ١٩٤١ .

كانت ساعة الصفر قريبة ، وقد انتشرت خمس فرق مدرعة من الجيش الألمانى على طول نهر (بوج) فى الجبهة السوفيتية البولندية ، وكانت فى حالة تأهب قصوى ، على استعداد للاندفاع صوب الشرق .

وكانت عمليات حشد القوات وتعزيز الخطوط مما يدل على نوايا الألمان ازاء الاتحاد السوفييتى ، من الأمور المعروفة فى كل من واشنطن ولندن وباريس . وحتى موسكو لم تكن تستطيع أن تتجاهلها ، وكانت الدول المحايدة ، مثل سويسرا ، تعلن كل يوم فى الصفحات الأولى من صحفها ، أن الهجوم الألمانى على الاتحاد السوفييتى قد أصبح وشيكا .

ولقد بعث الكسندر رادو ، وهو الرجل الأول فى ادارة التجسس السوفيتية ، فى أوروبا ، والذى كان يقيم بصفة دائمة فى جنيف ، بست رسائل متتالية الى رؤسائه فى الاتحاد السوفييتى . ولم تلق هذه الرسائل أى صدى ، وقد اختفت الواحدة بعد الأخرى فى ملفات (الحفظ) فى الادارات السرية السوفيتية ، وقد وضعت عليها تأشيرة تقول بالحبر الأحمر : « معلومات غير معقولة » .

وكان كبير الجواسيس السوفييت فى اليابان ، وهو ريتشارد سورج ، يعرف بدوره ما يحدث جيدا ، بل انه بعث ببرقية الى موسكو ضمنها التاريخ الصحيح المنتظر لبدء الغزو ، وهو ٢٢ يونيه ١٩٤١ . وسرعان ما جاءه الرد : « اننا نشك فى صحة مصادرك » . وعندما فك له ضابط الاتصال كلاوزن رموز هذه الرسالة ، انفجر سورج قائلا :

« لقد تحملت بما فيه الكفاية .. فلماذا لا يريدون أن يفهموا ؟ كيف يمكن لهؤلاء الأغبياء تجاهل شىء بمثل هذا الوضوح ؟ » .

وكذلك علم ليوبولد ترابر ، رئيس (الأوركسترا الحمراء) وهو فى باريس ، بأنباء المشروعات التى وضعتها أركان الحرب الألمانية . وكان معروفا للجميع أن هذه الأوركسترا الحمراء ، هى شبكة الجاسوسية السوفيتية نصبت شباكها فوق جميع أرجاء أوروبا ، وكانت تقوم بنشاطها حتى تحت الاحتلال النازى . كانت معلومات ترابر مدعمة بالحقائق وقد وصلته أول هذه المعلومات عن طريق ضابط من سلاح المهندسين فى الجيش الألمانى ، جاء من بولندا الى باريس ، وكانت تشير الى أن حالة التأهب القصوى قد صدرت للفرق المرابطة على نهر (بوج) . وفى ربيع عام ١٩٤١ ، جاء الى ترابر « حامل رسائل » آخر ، هو ضابط نمسوى برتبة كولونيل يعمل فى ادارة الشئون الادارية بالجيش الألمانى فى باريس ، وابلغه أن الألمان قد بدءوا فى عملية نقل عاجلة بالسكك الحديدية الذاهبة نحو الجبهة السوفيتية ، لجانب كبير من القوات العسكرية المرابطة فى فرنسا . وفى تلك الليلة ، وفى أحد كباريهات باريس ، كان قائد الأوركسترا الحمراء واقفا يحيط به عدد من الضباط الألمان ، وهم يقرعون كئوسهم تحية لقرب هزيمة الجيش الأحمر فى الاتحاد السوفييتى .

وكان قد سبق لترابر أن أبلغ الكريملين فى أواخر شهر ابريل بحشد القوات على طول نهر (بوج) وكذلك بمشروع الهجوم الذى سيقوم به هتلر ، ثم عاد وبعث الى موسكو برسالتين أخريين . لكنه لم يتلق ردا على رسائله ، وكما فعل رادو من قبل فى جنيف وسورج فى طوكيو ، فان الجاسوس السوفييتى تصور أنه أصيب بالجنون . ولذلك ، فانه أباح لنفسه يوم ٢١ يونية ، وقد فقد كل سيطرة على تصرفاته ، أن يقدم على خطوة هى أخطر ما يمكن أن يخطوها أى عميل سرى ، اذ قصد على وجه السرعة الى فيشى عاصمة فرنسا المحتلة ، حيث كان مقر سفارة الاتحاد السوفييتى . وفى المساء كان يدق على باب الجنرال سوسلو باروف الملحق العسكرى بالسفارة وهو يناشده قائلا :

ـ « ان لدى معلومات تقول ان الألمان سوف يهاجموننا هذه الليلة نفسها ويجب أن تتصل الآن بالكريملين » .

وصاح فيه سوسلو باروف :

ـ « هل جننت ؟ ان ذلك مستحيل . اننى أرفض نقل هذا التبليغ .. من أجل مصلحتك أنت . انهم فى موسكو سوف يتصورون انك فقدت عقلك .. » .

وراح ترابر يمعن فى الرجاء ، الى أن قبل الملحق العسكرى ارسال البرقية ، وفكت رموزها فى نفس المساء فى موسكو . ولما كان ترابر يعتبر من الجواسيس الجديرين بالثقة ، فان مدير المخابرات السوفيتية قرر أن يسلم بنفسه الرسالة الى ستالين .

والقى ستالين نظرة على الرسالة ، واستغرق فى التفكير لحظة ، ثم قال :

ـ « ان أوتو ـ وهذا هو الاسم المستعار لترابر ـ قد برهن بصفة عامة على شىء من الحكمة السياسية . فكيف اذن لم يفطن الى الشرك ، ويدرك أنه وقع ضحية لهذه الاثارة الفظة من جانب بريطانيا ؟ » .

لقد جاءت المحاولات من كافة عواصم العالم لتحذير الاتحاد السوفييتى ، الا أن الجيش الأحمر لم يتخذ أى اجراء يدل على اليقظة .

وفى صباح يوم ٢٢ يونيه ، استيقظ ليوبولدترابر فى الفندق الذى ينزل به فى فيشى ، على صوت صاحب الفندق وهو واقف فى أعلى الدرج يعلن على الملأ :

« سيداتى سادتى ٠٠ لقد اجتاز الجيش الألمانى نهر (بوج) هذه الليلة واجتاح الاتحاد السوفييتى » ٠

***

ليست هناك وجوه شبه البتة ، من حيث التسلسل التاريخى ، بين الأحداث التى وقعت عام ١٩٤١ على الحدود السوفيتية البولندية ، وتلك الأحداث التى سبقت عبور خمس فرق من المشاة وأكثر من ألف دبابة لقناة السويس ٠ ذلك أنه كان بين ألمانيا الهتلرية والاتحاد السوفييتى فى عهد ستالين ميثاق عدم اعتداء تم التوقيع عليه فى أواخر عام ١٩٣٩ ، يضمن تأمين الحدود بين الدولتين ٠

حقا أن ستالين ، وكذلك أركان حربه وادارات مخابراته ، لم تكن لهم ثقة مطلقة فى هتلر ٠ لقد كانوا يعلمون ولا شك ، أن الرايخ الألمانى سوف يعمد عاجلا أو آجلا، الى غزو بلادهم. الا أنهم كانوا مقتنعين تماما أن هتلر لن يشن هجوما على الشرق طالما لم ينته من عملية التدمير الكاملة التى يقوم بها فى الغرب ٠ لكن الواقع هو أن ستالين قد أخذ رغباته على انها حقائق ، ومنها إنه توقع نضوب القوى العسكرية الألمانية فى معركة بريطانيا ، قبل أى احتمال لقيامها بالهجوم على الاتحاد السوفييتى ٠

غير أن الوقائع فى الشرق الأوسط فى شهر أكتوبر ١٩٧٣ ، كانت مختلفة عن ذلك كل الاختلاف ٠ فلم يكن بين مصر فى الجنوب ، وسوريا فى الشمال ، وبين اسرائيل أية معاهدة لعدم الاعتداء ٠ بل كان الأمر على العكس من ذلك ، فمنذ اتفاقية وقف اطلاق النار وبالرغم منها ، وهى الاتفاقية التى وقعت عام ١٩٧٠ ، وانتهت بها حرب الاستنزاف التى كانت تجرى على ضفتى قناة السويس ، لم يلق جيران اسرائيل السلاح من أيديهم قط ٠ ومنذ ثلاث سنوات ، لم تتوقف مصر أو سوريا أو الدول العربية الأخرى عن التأكيد بأعلى صوت ، أنها تنوى الدخول فى حرب على جميع الجبهات ، لكى تجبر اسرائيل على الانسحاب الى حدود ١٩٦٧ ٠

وكان الشعار الذى رفعه الرئيس الراحل جمال عبد الناصر هو أن « ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة » ، قد أصبح هو نفسه شعارا لخلفه انور السادات • واذا كان هذا الشعار قد ترك فى بعض الأوقات ، أو اذا كان قد خف بعض الشىء ، أو حتى عدل أو فسر بصور مختلفة ، فان ذلك قد أتاح للرئيس المصرى أن يعلن أنه على استعداد للاعتراف لاسرائيل بحق الوجود ، وأن يعقد معها مواثيق ، ولم يكن ذلك الا حسابا سياسيا ، قصد به اخفاء أكبر شرك ، لم يعرف التاريخ مثيلا له من قبل • والواقع أن كلا من مصر وسوريا كانتا فى نفس ذلك الوقت تؤيدان جميع العمليات الارهابية التى تقوم بها المنظمات الفلسطينية المتعددة ضد اسرائيل وضد مؤسساتها فى الخارج •

ومنها فان وجوه الشبه بين أحداث عام ١٩٤١ وبين حرب عيد الغفران ، انما تقتصر على ثلاثة أخطاء متشابهة وغير مقبولة هى :

١ ـ الخطأ الذى ارتكبته ادارات مخابرات الجيش الاسرائيلى ، المسئولة عن تجميع المعلومات الخاصة بتحركات العدو وتفسيرها •

٢ ـ والخطأ الذى وقع فيه مجلس الحرب الاسرائيلى ، الذى أخطأ فى تقدير الموقف ، ووقع فى الشرك الذى نصبه له العدو ، بغير أن يقيم وزنا للتحذيرات المتكررة ، القادمة من ادارات المخابرات الأجنبية •

٣ ـ وأخيرا الخطأ الذى ارتكبته القيادة العليا لقوات الدفاع الاسرائيلية ، التى لم تطعن فى التقديرات التى قدمتها ادارات المخابرات ومجلس الحرب ، ولم تمض فى الاستعدادات الأولية لهجوم مضاد على الجبهتين •

والى هذه الأخطاء الثلاثة ينبغى اضافة عامل آخر ، له طابع الاستراتيجية العسكرية فى الأعوام السابقة على حرب عيد الغفران ، وهو ـ على الأقل فى المرحلة الأولى من القتال ـ مالم يجد مصداقا له من حيث الواقع ، والذى كان يقول :

« ان الجيش الاسرائيلى قادر على مجابهة الجيوش العربية على الجبهتين مرة واحدة ، وأن يطردها ويسحقها فى بضع ساعات أو بضعة أيام » •

ان أصل هذا القياس الخاطىء قد يعود الى أحداث شهر سبتمبر سنة ١٩٧٠ ، عندما استغلت مصر بتأييد من الاتحاد السوفييتى اتفاقية وقف اطلاق النار ، التى أوقفت حرب الاستنزاف ، لكى تقيم عددا من قواعد اطلاق الصواريخ أرض ـ جو طراز (سام ـ ٣) ـ على الضفة الغربية لقناة السويس . ذلك أنه ابتداء من ذلك اليوم ، راح المصريون يقيمون على وجه السرعة حائطا حقيقيا للصواريخ ، التى غطت منطقة مساحتها عشرون كيلو مترا أو ثلاثون كيلو مترا فيما وراء الضفة الغربية للقناة . وقد منعت هذه الصواريخ سلاح الطيران الاسرائيلى من العمل بفعالية فى هذه المنطقة .

وفى شهر أكتوبر سنة ١٩٧٣ ، فان هذا الطيران الذى حقق لاسرائيل نصرا خاطفا فى حرب الأيام الستة ، اذ دمر على الأرض الجانب الأكبر من طائرات العدو لم يتمكن على الاطلاق من القيام بدور حاسم فى القتال الذى كان يمكن به ايقاف الجيش المصرى ثم طرده .

وكما فعل الكريملين فى شهر أبريل سنة ١٩٤١ ، تلقت القدس منذ منتصف شهر أبريل ١٩٧٣ معلومات تدور حول الاعداد للحرب فى مصر . فقد كانت هناك تحركات كبيرة لقوات المؤخرة ، وارسال قوات مدرعة وقوات للمشاة الى منطقة القناة ، ثم حالة التأهب على الخطوط المتقدمة ، وغير ذلك من الظواهر التى تحدث فى الميدان ، مما يؤكد رسائل ادارات المخابرات القادمة من مصادر مختلفة . لقد كان الجميع مجمعين على أن مصر يمكنها شن حرب شاملة بعد فترة وجيزة .

وقد أضيف الى أنباء هذه المصادر السرية ، التصريحات الرسمية التى كان يلقيها الرئيس أنور السادات . ففى يوم ٢٥ مارس سنة ١٩٧٣ ، وبينما كان يقدم حكومته الجديدة قال :

« ان دور هذه الحكومة هو ضرورة الاعداد لكى تخوض مصر الحرب القادمة » .

وفى نفس ذلك اليوم ، قالت صحيفة الأخبار القاهرية فى مقالها الافتتاحى «اننا سوف ندخل قريبا فى معارك كبرى مع اسرائيل ، وعلينا أن نعد أنفسنا من أجل ذلك معنويا وماديا » .

ومنذ ذلك الوقت ، لم يمض يوم الا وتنشر الصحف فى جميع أنحاء العالم خبرا أو تحليلا حول الحرب القادمة بين مصر واسرائيل • ففى يوم ٢٨ مارس سنة ١٩٧٣ ، كتبت صحيفة « النهار » التى تصدر فى بيروت تقول :

« ان القوات تنقل ليلا ونهارا من القاهرة الى قناة السويس ، وقد أعلنت حالة الطوارىء فى الجيش المصرى ، الذى ينتظر قرارا على أكبر جانب من الأهمية ، قد يصدر بين لحظة وأخرى » .

وفى اسرائيل ، كانوا ينظرون الى هذه الأنباء سواء كانت علنية أم سرية ، على أنها محاولات للضغط على حكومة اسرائيل • ذلك أن السادات لم يتوقف ، منذ أن خلف جمال عبد الناصر ، عن تهديد الدولة اليهودية بويلات الحرب . وفى عام ١٩٧٣ كانت جميع خطب الرئيس المصرى تعيد الى الذاكرة ما ألفاه عقب وصوله الى الحكم • ومن هنا فان القوم فى اسرائيل قد توقفوا عن أخذ ما يقول على محمل الجد ، وكان المسئولون فى الحكومة الاسرائيلية ، يرفضـــون التفكير فى أن مصر تفـكر حقيقة فى شن حرب شاملة • لقد كانوا يقولون لبعضهم :

« هل يحاول المصريون ـ على أسوأ تقدير ـ أن يعبروا القناة فى نقطة منها ، فى محاولة لاقامة رأس جسر على الضفة الشرقية ؟ ان اعادتهم الى الصواب فى هذه الحالة أى ردهم الى الضفة الأخرى ، لن يستدعى جهدا يذكر من القوات الاسرائيلية » •

غير أن ادارة أركان الحرب الاسرائيلية أصدرت فى شهرى أبريل ومايو ، أمرا باعلان حالة « اليقظة » فى الجيش ، وكان الأمر خاصـــا بتدريب ، لاحتمال عبور مفاجىء لشبه جزيرة سيناء • وكانت هـــذه المناورة ، التى كان هدفها المزدوج هو انتشار القوات وتحريك عدة فرق وفقـــا لبرنامج تقرر مسبقا ، لابد أن تجرى • وكل ما حـــدث أن ادارة الأركان قررت تقديم موعدها ، على أمل منهـــا فى أن يكون ذلك بمثابة رادع للعدو ومنعه من القيام بأية عملية •

وفى خلال أسبوعين ، من شهر يونيه ، دارت هذه المنـــاورات فى صحراء سيناء تحت بصر المصريين الذين لم يحركوا ساكنا ، ولم يتحركوا

من مواقعهم على الضفة الغربية . لم يكن الوقت قد حان بالنسبة للسادات، غير أن هذه التدريبات قد أتاحت للجيش المصرى أن يختبر كافة الاجراءات التى عليه أن يتخذها فى حالة التأهب القصوى ، وأن يختبر أيضا سرعة وطبيعة رد الفعل الاسرائيلى .

ومن المناسب هنا أن نشير الى مقال هام نشرته مجلة (نيوزويك) الامريكية التى يعتبر رئيس تحريرها آرنو دى بورشجراف منذ زمن ، الصحفى المقرب الذى يلقى تقديرا لدى نظام الحكم فى مصر ، مما يجعله يحصل على الأحاديث الخاصة التى يدلى بها السادات بصفة منتظمة . وهكذا ، فان بورشجراف نشر أولا حديثا للرئيس المصرى ، ثم تبعه بمجموعة من الأنباء التى استقاها من أكثر المصادر المسئولة فى القاهرة اطلاعا ، والتى أكدتها فيما بعد الدوائر الأمريكية المسئولة . وقد أعلن السادات في حديثه ، أنه ينوى أن يقوم قريبا بعملية محدودة ضد اسرائيل . وبعد ذلك بأسبوع ، استند بورشجراف الى نفس الدوائر الامريكية المسئولة ، ثم كتب يقول :

« ان فى واشنطون اتجاها الى الاعتقاد بأن الأمر لن يكون مجرد عملية محدودة ولكن حربا عامة، تشمل هذه المرة جبهة البترول . وبمعنى آخر ، فان الامارات المنتجة للبترول ، وكذلك الجزائر وليبيا ، سوف تشترك فى هذه الحرب ، فتقطع بذلك عن أوروبا مصادر الذهب الاسود فى الشرق الأدنى » .

ومضى بورشجراف فى مقاله قائلا :

« ان اسرائيل سوف تحقق نصرا ساحقا ، بتلك الطريقة المتأنقة التى نعرفها عنها، وسوف يصفق العالم لها اعجابا، كما فعل عام ١٩٦٧ . لكن النتائج السياسية للحرب التى ستدور فى الشرق الاوسط اخذت تلوح منذ الآن فى الأفق : فان هذا العلاج بالصدمة ضرورى لمصر ، لكى تفرض على الدول الكبرى أن تتدخل ، وهو تدخل سوف يؤدى الى وقف القتال الذى سوف يترتب عليه وقف شحنات البترول الى العالم أجمع ، فيعقبه حل مفروض يجبر اسرائيل على أن تنسحب الى حدودها القديمة» .

ومع ذلك فان رئيس أركان الحرب الاسرائيلية كان محقا ، يوم ١٩

ابريل ١٩٧٣ ، أى فى قمة التوتر ، عندما أدلى ببيان لمراسلى الصحف المحلية والاجنبية قال فيه :

« لن يكون من المنطقى ، من جانب المصريين ، أن يبدءوا بفتح النار، لأن اندلاع الحرب سوف يعود بأخطار جسيمة عليهم ـ الا أننا يجب أن نتوقع منهم تصرفا غير منطقى » ٠

وهنا أخذ بعض المعلقين الأجانب ومراسلى الصحف الاسرائيلية يتهمون الجنرال دافيد اليعازر رئيس الاركان ، بأنه يترك نفسه لينساق فى جو الحرب ، التى يحاول الرئيس المصرى أن يخلقه لمتطلبات سياسته الداخلية ٠

ولقد جرت اذن المناورات العسكرية المقررة ، فكلفت الخزانة الاسرائيلية عدة عشرات من ملايين الليرات الاسرائيلية(١) ٠ وبعدها ، حدث كما حدث فى قصة الراعى الذى صاح قائلا : احترسوا من الذئب ، فعاد كل شىء الى ما كان عليه ، وزال توتر الجميع ٠

كانت تصريحات السادات يقل صداها تدريجيا فى اسرائيل ، حيث بدا القوم يرون أن تعبئة الاحتياط والنفقات التى تتطلبها المناورات العسكرية ، أمور يمكن تجنبها ٠

كان رد الفعل الاسرائيلى، أو بالأحرى عدم وجود رد الفعل الاسرائيلى أحد عوامل عملية «تحويل أنظار العدو عن مركز الخطر» ، التى اتفق الجميع على أنها راجعة الى المستشارين السوفييت ٠ ومن هنا يتعين البحث عن أصل الكارثة التى انقضت على اسرائيل فى يوم ٦ أكتوبر سنة ١٩٧٣ ، قادمة من الجولان ومن سيناء ٠

والواقع أن الشرق الأوسط كان على أعتاب الحرب، يوم ١٣سبتمبر٠ ففى ذلك اليوم ، وجدت مجموعة من طائرات السلاح الجوى الاسرائيلى كانت فى مهمة استطلاعية غرب ساحل اللاذقية نفسها ازاء سرب من طائرات الميج السورية ، فدار بين الجانبين قتال سقطت فيه ثلاث عشرة طائرة معادية ، وهو القتال الذى اعتبر فى البداية حادثا عارضا ، واصيبت

---

(١) الليرة الاسرائيلية تعادل فرنكا فرنسيا جديدا واحدا ٠

طائرة اسرائيلية واحدة هبط قائدها فى البحر ، ثم التقطته طائرات الهليوكوبتر التابعة للجيش ·

لم يكن هناك شك فى أن هذه الدورية الاسرائيلية كانت مكلفة بمراقبة تحركات سفن النقل السوفيتية ، وهى تفرغ فى ميناء اللاذقية وميناء طرطوس الدبابات وقطع المدفعية والصواريخ · وفى اليوم التالى ، أمكن بوضوح رؤية حشود القوات السورية للمرة الأولى على طول خطوط وقف اطلاق النار · ولم تكن هذه الحشود قاصرة على الدبابات وقواعد اطلاق الصواريخ عند الجولان ، ولكن الجيش السورى أقام على وجه السرعة أوكارا للصواريخ المضادة للطائرات شمال خط وقف اطلاق النار وفى المؤخرة حول المدن · وفى خلال بضعة أيام ، تضاعف عدد الوحدات السورية المرابطة على بعد بضع كيلو مترات من المواقع الاسرائيلية ·

وابتداء من يوم ٢٦ سبتمبر ، قبل أسبوع من عيد رأس العام اليهودى كان يدور التعليق فى مقر أركان الحرب وفى وزارة الدفاع ، حول نبأ جاءت به المخابرات الاسرائيلية ، يقول ان انتشار القوات السورية على طول الحدود ينم عن نواياها الحقيقية · وقد طلب موشيه ديان والجنرال اليعازر تقريرا حول مدى صحة هذا الاستنتاج ·

وقد تقدمت مخابرات الجيش ، التى يرأسها الجنرال الياهو زايرا ـ الذى خلف الجنرال أهارون باريف ـ بنظرية تلفت النظر ، ولكنها غير واقعية ، وكانت تقول :

« انه بعد اسقاط طائرات الميج الثلاث عشرة يوم ١٣ سبتمبر، فان دمشق تخطط لعملية انتقامية محدودة · ولما كان الجيش السورى يخشى ردا عنيفا وخاطفا من جانب الاسرائيليين ، فانه يحشد قواته على الحدود لكى يقوم ·· أولا بعمليته الانتقامية وثانيا باحتواء الرد الاسرائيلى » ·

على أن نوعا من القلق بدأ يسود بين رؤساء الجيش الاسرائيلى فى وزارة الدفاع الاسرائيلية ، حيث عقد عشية رأس السنة اليهودية اجتماع جديد فى مكتب موشيه ديان ، حضره الجنرال اليعازر رئيس الأركان واسرائيل طال مساعده ، الذى يتولى أيضا مهام رئيس عمليات الجيش ، والجنرال اسحاق حوفى قائد قوات المنطقة الشمالية ، والجنرال الياهو

زايرا مدير المخابرات العسكرية ، وغـــيرهم من الضباط العظام . وقدم الجنرال حوفى تقريرا حول حالة القوات ، واكتفى موشيه ديان الذى كان يمتنع منـــذ بضع سنوات عن التدخل فى المســائل التكتيكية وامدادات الجيش ، اكتفى بأن ألقى مجموعة من الأسئلة ، وألمح الى أن ضخامة عدد الجنود الاسرائيليين فى الشمال ، لا تجعله مطمئنا كل الاطمئنان .

وقال : « ان هناك ثغرات فى خطوطكم » .

وفى نهاية الاجتماع ، تقرر سحب بضع بطاريات من سيناء ، لتعزيز المدفعية فى الجولان . وعندما رفعت الجلسة ، أعلن موشيه ديان وسط دهشة عامة ، أنه ينوى القيام فى اليوم التالى بجـولة تفتيشية على طول خطوط وقف اطلاق النار . فلما نبهه أحد ضباطه الى أن يوم وقفة العيد قد لا يكون ملائما تماما لمثل هذه الجولة ، أخذ الوزير يوضح فكرته قائلا: «اننى أرغب من ناحية أن أتحقق على الطبيعة من الموقف ، بدلا من الاكتفاء بخرائط هيئة الأركان ، عند الحدود الشمالية ، ومن ناحية أخرى فاننى اريد أن أنتهز الفرصة ، لكى أوجه علنا تحذيرا الى سوريا » .

وعند ذلك اقترح المتحـــدث الرســـمى باسم وزارة الدفاع دعوة مجموعتين من رجال التليفزيون ، احداهمـــا اسرائيلية والاخرى أجنبية ، لكى تعلنا التحـــذيرات التى سيوجهها ديان . ووافق الوزير على ذلك ، وطلب من الجنرال اليعازر أن ينضم اليه كالعـــادة فى هذه الجـولة على هضبة الجولان ، ولـــكن رئيس الأركان رفض الدعوة ، وقال : « اننى أعرف الموقف جيدا فوق الجولان » .

كان هناك شك ينهش وزير الدفاع الاسرائيلى: «ألا ينتهز السوريون فرصة (الفراغ) الذى سيبدأ فى اسرائيل يوم الاربعاء ٢٦ سبتمبر ، وهو وقفة عيد رأس العام اليهودى ، لكى يقوموا بعملية محدودة ؟ » .

ولذلك فانه استقل احدى طائرات الهليوكوبتر وذهب الى الجولان، حيث زار القطاعات الحصينة ، وطلب عدة ايضاحات بشأن القوات العاملة فى قوة المدرعات ، فقيل له : «ليس هناك سوى ٧٥ دبابة فى الخط الاول» . ولقد كان من عادة ديان ألا يتدخل قط فى الشـــئون الخـــاصة بالقيادة العسكرية ، ومع ذلك فانه أصدر أمرا الى الجنرال حوفى بأن يضاعف على

الفور قوة جنوده ـ ولم يكن ذلك ميسورا الا باللجوء الى الاحتياط • ومع ذلك فانه أصر على أن تضاعف جميع أنـواع الاسلحة الاخرى فى الخط الاول •

وفى الساعة الثالثة بعد الظهر، وصل الوزير ومرافقوه الى مستعمرة (عين زيفان) الزراعية ، حيث قال الوزير أن قرى الهضبة تشكل بفضل وضعها الجغرافى، الخط الحقيقى المتقدم للجيش، وقد أعرب عن أمله أنه فى حالة وقوع الحرب ، لا تكون هناك حاجة الى اخلائها • وأخيرا ، وفى مواجهة عدسات التليفزيون ، أدلى بالتصريح التالى : « ان هناك أكثر من ثلثمائة دبابة ، ومثلها من قطع المدفعية ، قد تكدست فى الناحية الاخرى من الحدود الاسرائيلية السورية ، كما أن كثافة الصواريخ أرض ـ جو تفوق كثافة جميع المنشئات الاخرى من نفس النوع فى العالم بأسره » • ثم اختتم تصريحه بقوله مؤكدا ان اسرائيل واقفة على حذر .

لقد حذر سوريا ••

بينما كان وزير الدفاع الاسرائيلى ينتقل فوق هضبة الجولان ، كانت الأنباء ترد من مصادر متعددة ، وتقول أن مصر تقوم باستعدادات عسكرية هامة • ولم تجـد هذه الأنباء ـ التى كان عدد قليل من أعلى المستويات يعرفون مصدرها ـ تأكيدا لها لدى ادارة المخـابرات العسكرية ، التى كانت قد وصلتها مع ذلك عناصر أخرى فى الفترة بين ٢٦ ، ٢٩ سبتمبر، والتى تدل على أن شيئا ما بدأ يتحرك فى مصر • ولم يأخذ خبراء المخابرات العامة فى الاعتبار هذه الآراء غير الرسمية ، التى كانت تقول ، ليس فقط أن الحرب قريبة ، ولكنها كانت تعلن أن الحرب واقعة بين لحظة وأخرى• أنها لم تأخذ ذلك فى الاعتبار ، لا لشىء الا لأن المخابرات العامة لم تؤكده• لقد كان التقدير هو أن الصورة الاجمالية « لا تنم عن شىء » • والواقع أنه عند الافتراض بوقوع حرب ، فان الأفضلية دائما تعطى لمخابرات الجيش ، التى هى فى اسرائيل القادرة وحدها على تقديم تحليل سليم للموقف • غير أن الدوائر السياسية وأركان الحرب كانتا مقتنعتين تماما ، بأن العرب ليس فى نيتهم شن حرب قريبة •

وعلى ذلك فان الامور وقفت عند هذا الحد • ولنلاحظ كذلك ان ادارة المخابرات الامريكية كانت واقعة بدورها تحت تأثير التحليل الذى توصلت

اليه المخابرات الاسرائيلية وقد عرف بعد الحرب ، ان ضابطين وأحد المدنيين الذين كانوا يشغلون مناصب رئيسية قد أعفوا من وظائفهم في ادارة المخابرات الامريكية ، لأنهم وقعوا تحت تأثير زملائهم في مخابرات اسرائيل .

وفي ليلة السبت ٢٩ سبتمبر ، كان كل من رئيسة الوزراء واسرائيل جاليلي وزير الدولة وناثان بيليد وزير الهجرة وموشيه ديان وزير الدفاع مجتمعين في مكتب جولدا مائير بتل أبيب ، لكي يتابعوا في قلق المأساة التي كانت تجري في مطار فيينا ، حيث قام بعض الارهابيين الفلسطينيين باحتجاز مجموعة من مهاجري الاتحاد السوفيتي . ولم يشر احد منهم خلال هذا الاجتماع الى التطور المقلق على الحدود السورية وعلى ضفتي قناة السويس .

وفي يوم ٣٠ سبتمبر طارت جولدا مائير الى ستراسبورج ، لالقاء كلمة في أجتماع البرلمان الاوربي ، وفي طريق عودتها توقفت يوما في فيينا لكي تجتمع بمستشار النمسا برونو كرايسكي . وخلال هذا الاجتماع الدرامي ، أكد رئيس الوزراء الاشتراكي الذي كان قد رضخ منذ قليل لتهديدات الارهابيين العرب ، لجولدا مائير أنه سيفي بالوعد الذي قطعه للفلسطينيين باغلاق معسكر عبور اللاجئين في شوناو .

وفي يوم الاثنين الاول من أكتوبر ، أبلغ كل من رئيس أركان الجيش ووزير الدفاع عن طريق المخابرات العسكرية ، أن المصريين يعززون قواتهم المرابطة على الضفة الغربية لقناة السويس . وفضلا عن ذلك ، استمرت المعلومات التي ترد من « المصادر المختلفة » تزيد من تحذيراتها وانذاراتها، وتقول في صراحة ان القاهرة تستعد لفتح النيران . ولكن كما فعلت مخابرات الجيش الامريكي خلال التحركات السورية والمصرية ، قدرت المخابرات الاسرائيلية ان الأمر لا يعدو كونه مناورات للخريف ، على الأقل بالنسبة لمصر . ولقد صرح المشير أحمد اسماعيل وزير الحربية المصري بعد وقف القتال بقوله : « لقد نشرنا في صحيفة الاهرام خبرا يقول انه قد سمح للضباط والجنود بتأدية فريضة الحج ، كما أعلنا أن وزير الحربية الروماني سوف يصل الى القاهرة يوم ٨ أكتوبر . لقد أرسلنا الدبابات الى ضفة القناة ، ولكن القيادة العامة كانت تعيد في كل ليلة

لواء كاملا الى الخطوط الخلفية ، لكى تعطى الانطباع بأن تحركات القوات تجرى فى نطاق المناورات » ٠

وقبل أن تعود جولدا مائير الى اسرائيل ، وجه وزير الدفاع الدعوة لانعقاد مجلس صغير فى مكتبه ، اقتصر على جنرالات الجيش الرئيسيين٠ وبدأ المجلس فى تحليل متعمق للموقف ، ولكن أحدا لم يجسر على القول بأن كل هذه التحركات فى القوات لا تكون مناورات عادية ، ولكنها استعدادات لحرب شاملة ٠ الا أن ديان ـ وبما لأنه متشائم بطبيعته ـ أبدى قلقه ومخاوفه ، وطلب وضع تقرير مكتوب حول الموقف٠ وقد اختتم التقرير بعبارة أن هناك « احتمالا ضئيلا لحرب عامة » ٠

وفى هذا الوقت أخذت المعلومات القادمة من مراكز المراقبة المتقدمة على هضبة الجولان وعلى طول القناة تتدفق على مقر أركان الحرب ، وكان بعضها يؤكد ما كان معروفا من تحركات الجيوش المعادية ٠ ويضيف أن المصريين يضعون فى المياه على طول قناة السويس دعائم ، يبدو أن الغرض منها حمل بعض الجسور ٠

وليس هناك من شك فى أن القوم لم يصدقوا بما فيه الكفاية تلك الملاحظات التى بعث بها « جنود بسطاء » ، غير أن مجموع تلك الملاحظات التى نقلت الى القيادة العامة فى الجبهة الجنوبية قد خلق لدى الكثيرين من الضباط شعورا معينا بالاستياء واحساسا غامضا باحتمال وقوع حرب قريبة ٠ لكن هذا الاستياء وهذا الاحساس لم يلقيا ، للأسف ، أى صدى فى تقارير هيئة الأركان ٠

وفى مساء نفس ذلك اليوم ، الثلاثاء ٢ أكتوبر ، دعا أحد كبار الضباط فى الجيش مراسلى الصحف اليومية الى لقاء قصير ، وأبلغهم أن حشود القوات على الحدود السورية وعلى الضفة الغربية لقناة السويس قد لوحظت ولكن رئيس الأركان يرى أن احتمال نشوب الحرب احتمال ضئيل ٠ ثم ناشد الصحفيين بألا يرددوا ما تقوله وكالات الأنباء فى دمشق والقاهرة ، مما يثير الحديث عن «وجود توتر متزايد على الحدود» ٠ وقال الضابط الاسرائيلى : « عبثا يحاولون احداث تصاعد » ٠

ولقد ترتب على ذلك ، ابتداء من اليوم التالى ، أن أصبحت الأنباء

العسكرية لا تشغل فى الصحف الاسرائيلية الا حيزا متواضعا • والأكثر من ذلك انه ابتداء من ذلك اليوم ، راحت الرقابة الاسرائيلية تمنع نشر جميع الأنباء ، التى ترد الى المراسلين الصحفيين من مصادرهم الخاصة •

وفى يوم ٣ أكتوبر عادت جولدا مائير من النمسا ، ودعت الى عقد « مجلس حرب » شكل لهذه الظروف ، وتكون الى جانب رئيسة الوزراء من موشـــيه ديان وزير الدفاع ، وايجـال آلون نائب رئيســة الوزراء واسرائيل جاليلى وزير الدولة ، ودافيد اليعازر رئيس الأركان ، والجنرال الياهو زايرا مدير مخابرات الجيش ، وواحد من كبار مساعديه ، وجاء التشخيص هذه المرة أيضا ، احتمالا ضئيلا للحرب ، وبالتالى لا جدوى من تعبئة الاحتياطى • ولم يدل أى من الحاضرين بأى رأى مخالف •

ولقد أكد مدير المخابرات العسكرية ، أنه قادر على أن يعطى الانذار قبل أربع وعشرين ساعة من اندلاع الحرب • وكان ايجال آلون وحده هو الذى لم يقتنع بذلك كل الاقتناع • وقال : « اننى أعتقد أنه لا ينبغى التقليل من شأن الاجراءات التى اتخذها المصريون ، ولست أعتقد أنها تهدف الى ايقاعنا فى خطأ • ان هناك شيئا ما خطيرا يتهيأ • » •

وفى اليوم التالى ، عندما كانت جولدا مائير سوف تقف وتلقى كلمة أمام اللجنة البرلمانية للشئون الخارجية ، فان ذلك سيكون لمجرد تقديم كشف بالمحادثات التى أجرتها مع المستشار النمسوى بروفو كرايسكى •

غير أن الحالة النفسـية للضباط فى قوات سيناء كانت مختلفة تماما فى نفس ذلك اليوم وقد قال رئيس احدى الكتائب المدرعة المرابطة فى سيناء ، بعيدا بما فيه الكفاية عن القناة ، يروى ما وقع :

« لقد أقمنا حفل غداء لوداع الجنرال البير بمناسبة رحيله ، قبل يومين من عيد الغفران ، وكان ذلك يوم خميس • ولكن هذا الجنرال عاد يوم الأحـــد التالى الموافق ٧ أكتوبر ، لكى يحل محــل الجنرال برين فى منصب القائد العـــام للقوات المدرعة فى سيناء • ولم يكن يجلس على المائدة غير الضباط ، ويتعين على القـــول بأننا بدلا من أن نتحدث عن الوقت الطيب الذى أمضاه الجنرال على رأس فرقتنا ، اذا بالجنرال نفســه يتحدث عن شىء آخر هو الحرب • ولقد جعلنا ندرك بكل وضوح أن نقله قد يلغى ،

نظرا للاستعدادات المصرية وما قد يترتب عليها • والواقع أنه ركز بصفة خاصة على اشعار الضباط باحتمال نشوب حرب قريبة للغاية » •

وفى هذه الأثناء ، وصل نبأ من مصدر لم تعرف حقيقته الى هيئة الأركان الاسرائيلية ، وكان نبأ على جانب عظيم من الأهمية • « ان الحرب سوف تندلع » • وقد علم فى نفس الوقت ، ان عددا من الطائرات السوفيتية اخذت تخلى من مصر وسوريا المستشارين السوفيت وعائلاتهم •

ولقد وضع فى هذه المرة شعور حقيقى بالقلق فى تقارير مخابرات الجيش • ان الذعر لم يكن قد ظهر فيها بعد ، كما ظهر فى المعلومات غير الرسمية الأخيرة الا أنه كان متوقعا منها أن الانذار بالحرب كان وشيكا • وقد اقترح رئيس أركان الحرب اعلان حالة الطوارىء من درجة (ج) ، وهو ما لم يكن قد حدث على الاطلاق منذ حرب الاستنزاف ، وأعلن أنه الغى التصاريح على كلتا الجبهتين .

وقد رد عليه ديان قائلا : «لقد أحسنت صنعا ، ولكن هذا لا يكفى» •

كان ذلك عشية اليوم الكبير ، ووقفة عيد الغفران • ولم يكن ديان أو دافيد اليعازر أو كل من اشترك فى مجلس الحرب يخامره الشك فى أن الأمر بالغاء التصاريح سوف يصل الى الجبهة متأخرا ، وان الكثيرين من الجنود والضباط سوف يكونون فى طريقهم لقضاء العيد مع عائلاتهم ، وأنه سوف يكون عسيرا العثور عليهم . أما المسئولون الاسرائيليون انفسهم ، فبالرغم من تخوفهم ويقظتهم ، كانوا بعيدين كل البعد عن التفكير فى أن الحرب « ستقع غدا » . فما كاد مجلس الحرب ينفض ، حتى قصد اسرائيل جاليلى الى مزرعته ، وعاد موشيه ديان الى بيته ليبيت فيه ، كما أن جولدا مائير بعد أن كلفت ميشيل آرنون سكرتيرها الخاص بأخذ العناوين المختلفة للوزراء لدعوتهم الى الاجتماع فى حالة حدوث اجتماع طارىء فى اليوم التالى ، وهو يوم السبت ، عادت بدورها الى بيتها فى « رامات ـ أفيف » •

وفى ختام هذا الاجتماع الأخير لمجلس الحرب ، يوم الجمعة ٥ أكتوبر ، صدر البيان الرسمى التالى :

« اجتمع مجلس الوزراء اليوم (الجمعة) فى جلسة استثنائية ، لبحث احتمال وقوع هجوم مصرى سورى • وبالرغم من أن حشـــود القوات يخشى معها بوضوح وقوع هجوم ، فقد تقرر عدم اصدار الأمر بتعبئة الاحتياطى ، حتى لا يزعم الرأى العام العالمى أن اسرائيل تستعد للهجوم. » •

وعنـــدما نشر هذا البيان في اليوم التالى ، يوم عيد الغفران ، كانت اسرائيل فى حالة حرب .

والواقع أن الشرك المصرى كان جاهزا تماما ، يوم السبت ٦ أكتوبر فقد اجتمع هنرى كيسنجر وزير الخارجية الأمريكى بالدكتور محمد حسن الزيات مستشار الرئيس المصرى ، وجرى اجتماعهما فى جو هادىء ، وتناول الحديث مبادرة السلام التى كان كيسنجر يفكر فى القيام بها بعد الانتخـــابات التشريعية فى اسرائيل ، التى كان ينتظر اجراؤهـا يوم ٢٩ أكتوبر ، ولم يدرك كيسنجر الا بعد اندلاع الحرب ، أن الزيات الذى كان بالضرورة على علم بتاريخ الهجوم، قد قام بدوره خير قيام فى مناورة التضليل ، التى وضعت حساباتها فى أدق تفاصيلها •

وفى صباح يوم السبت ، وقبل بضع دقائق من الساعة الرابعة . كان وزير الدفاع قد اسـتيقظ فى بيته على رنين التليفون • وقد أبلغه محدثه أنه قد تأكد بصفة نهائية صدق ودقة المعلومات التى وصلت الى اسرائيل منذ يوم ٢٦ سبتمبر ، وأنه لم يعد هناك أى شك فى أن الحرب على الأبواب ، وان مصر وسوريا ينتويان القيام اليوم ــ يوم عيد الغفران ــ وفى الساعة السادسة مساء بعملية مشتركة على كلتا الجبهتين .

وعلى الفور اتصــل ديان تليفونيا برئيســة مجلس الوزراء . وفى الساعة السادسة صباحا التقى بالجنرال اليعازر فى القيادة العامة .

وفى الساعة السابعة صباحا انضما الى مدير المخابرات العسكرية فى مكتب جولدا مائير برئاسة الوزراء . وأعلن اليعازر أن سلاح الطيران فى حالة تأهب منـــذ الأمس ، وأنه قادر على شن هجـــوم وقائى على الجبهتين . واقترح رئيس الأركان اعلان التعبئة العامة على الفور ، وبدء تحليق السلاح الجوى فى الساعة الواحدة بعد الظهر .

ورفضت جولدا مائير الاقتراحين معا ، فانضمت بذلك الى الرأى الذى عبر عنه ديان لدافيد اليعازر قبل ذلك ، خلال أول اتصال لهما فى الصباح المبكر • وكان ما قاله وزير الدفاع هو أن اسرائيل لا يمكنها بأية حال من الأحوال ، السماح لنفسها بالقيام بعملية وقائية ، ورجح الأخذ بفكرة أنه يتعين على الاسرائيليين أن يثبتوا أن العرب هم الذين فتحوا النار وبدأوا الحرب •

ثم قال مؤكدا : « ما من دولة صديقة سوف تؤيد اسرائيل ، اذا كان هناك أى شك فى أن الجيش الاسرائيلى يتحرك دفاعا عن نفسه » •

وقد رفض ديان كذلك التعبئة العامة ، فقد كان يرى أن القوات المرابطة على خطوط الجبهتين قادرة على تلقى الصدمة ، الى أن تصل وحدات الاحتياطى ، وانه يكفى بالتالى اعلان تعبئة سرية للقبضات الفولاذية أى لقوات المدرعات •

أما جولدا مائير التى لم تكن على مثل معرفة رئيس الأركان أو وزير دفاعها فيما يتعلق بالمسائل التكتيكية أو الخاصة بالتعبئة ، فانها قد انحازت الى رأى ديان ، وفى الساعة العاشرة صباحا أعلنت التعبئة العامة (السرية ؟ ـ عن طريق الاتصال الخاص ، وليس عن طريق موجات الأثير ـ للقبضات الفولاذية ، بالاضافة الى بعض القوات الأخرى • لقد كانت اسرائيل بعيدة عما اتفق على تسميته تعبئة عامة • وعندما توجهت جولدا مائير الى الأمة فى حديثها التليفزيونى ، فانها أكدت ذلك ، وقالت: « لقد أعلنا منذ ساعات الصباح الأولى التعبئة الجزئية لقوات الاحتياط » •

ولقد كان على أحد المسئولين السياسيين أن يشرح ، خلال اجتماع موجز مع محررى الصحف ، أسباب هذين القرارين بالعبارات التالية : « بعد أن تم تحليل الموقف ، وامعان فى التفكير ، قررت السلطات العليا بالاتفاق مع وزير الدفاع ورئيس الأركان العامة ، أن تعطى الافضلية هذه المرة لمصلحة الدولة على الاعتبارات العسكرية ، والا تكون اسرائيل هى أول من يفتح النار • لقد فضلنا باسم هذه المصلحة السياسية ، أن نتحمل مخاطر الصعاب العسكرية ، لكى يتضح تماما من هو الذى بادر ببدء الأعمال الحربية • ولما كانت الاذاعات العربية تزعم فى هذه الأيام أن اسرائيل تضع الخطط لغزو سوريا ، فقد تقرر لهذا السبب أيضا عدم

اعلان التعبئة الا فى آخر وقت ، لكى نزيل حجة العرب بأنهم كانوا مضطرين الى فتح النار وقاية من هجوم اسرائيل » ٠

وبمعنى آخر ، فان سلاح الطيران الاسرائيلى لم يستطع التدخل وقائيا ـ وهو ما كان قد تهيأ له حوالى الظهر ـ ولم تعلن التعبئة الا بصفة جزئية ، وفى وقت متأخر ، لكى لا نعطى العرب ذريعة لشن الحرب ٠

وتتابعت المشاورات فى مكتب رئيسة الوزراء فى تل أبيب ٠ ووصل التأكيد الرسمى فى هذه الأثناء بشأن جلاء المستشارين السوفييت وعائلاتهم من مصر ، وكان ذلك عند اللزوم دليلا جديدا على سرعة وقوع الحرب ، وكان معناه أيضا أن السوفييت لا يريدون التورط فى مواجهة جديدة بين المصريين والاسرائيليين ٠

وبينما كانت هيئة الأركان تعطى الأمر بالتعبئة الجزئية ، كانت رئيسة الوزراء فى محادثات فى مكتبها بتل أبيب مع كينيث كيتنج سفير الولايات المتحدة فى اسرائيل ٠ ولخد حرصت جولدا مائير على أن تبلغ السفير بالقرارات التى اتخذت فى الساعات الأولى من الصباح ، وهى : تعبئة جزئية ، وعدم اللجوء الى أى عمل وقائى ٠ وفى هذه اللحظات ، كان كيتنج على علم عن طريق المخابرات الأمريكية أن السوريين والمصريين أصبحوا على اهبة الهجوم ٠ وطلبت منه جولدا مائير أن يحيط الرئيس نيكسون ووزير خارجيته بالاتصال بالمسئولين السوفييت والمصريين ، فى محاولة لاثنائهم عن الهجوم ٠

ولعدة مرات خلال هذا الحديث ، طرح كيتنج السؤال التالى :

« هل أنتم مصممون على ألا تكونوا أول من يطلق النار ؟ »

وفى كل مرة ، كانت جولدا مائير تجيب بعزم :

« هذا هو قرارنا ٠ لن تكون اسرائيل أول من يطلق النار ٠ واذا كنا لم نعلن التعبئة العامة ، فان ذلك على وجه التحديد لكى نتجنب ان يفسر هذا الاجراء ، على انه استفزاز ، مما قد يفيد أعداءنا ٠

وفى الصباح ، استدعى ميشيل أرنون سكرتير مجلس الوزراء ،

الوزراء الى حضور اجتماع طارئ كان يجب أن يعقد فى الساعة الثانية عشرة فى مكتب رئيسة الوزراء بتل أبيب . وفى هـذا اليـوم من عيد الغفران ، كان أغلبيـة الاسرائيليين قد قصـدوا الى المعابد ، أو كانوا يتهيأون للذهاب اليها • وقد اضطر بعض المندوبين الى التجول فى كثير من هذه المعابد ، قبل أن يتمكنوا من اللحاق بالوزراء ، الذين لم يمكن الاتصال بهم فى بيوتهم بالتليفون •

وبدأت جلسة الوزراء فى الساعة الثانية عشرة تماما ، بتقرير من وزير الدفاع ، ووافق الحاضرون بالاجمـاع على قرارى التعبئـة الجزئية – التى بدأ تنفيذها بالفعل – والامتناع عن القيـام بأى عمـل وقائى . وفجاة ، انطلقت فى تل أبيب صـفارات الانذار ، بغير أن يكون فى ذلك سبب يدعو الى فض اجتماع مجلس الوزراء – وبعد ذلك ببضع لحظات، أبلغت هيئة الأركان أن الهجوم المصرى السورى قد بدأ .

وانتظم مجلس الحرب على الفـــور ، وتقرر أن تتولى جولدا مائير اصـدار جميع القرارات الرئيسـية ، يساعدها فى ذلك جاليلى وآلون ، اذ كلف الأول بتولى الشئون الخارجية بالتنسيق مع وزير الخارجية ، وأن يتولى الثانى عملية الاتصال بين أركان الحرب ورئاسة مجلس الوزراء •

وفى هذا الصباح من عيد الغفران ، وصل الجنرال جونين الى القيادة العـامة ، فوجد هناك تقريرا يبلغه أن المصريين سوف يعبرون قنـاة السويس بكل طولها فى الساعة السادسة مساء ، بعد أن تقوم المدفعية بدك المنطقة ، ويقوم السلاح الجوى المصرى بقصف كثيف لها • وقد اتصل باللاسلكى فى الساعة الثانية بعد الظهر بالجنرال ماندلر وقال له :

– « يجب أن تدفع بالألوية المدرعة الى الخطوط .. لأنهم عندما يصلون سيكون الليل قد جاء » •

وأجاب (البير) :

– « نعم • ولكن المصريين يقصفون (رافيديم) بالفعل •

– « فى هذه الحالة يجب أن نتحرك حقيقة » •

وهكذا بدأ الهجوم المصرى ••

سبت عيد الغفران الأسود

في يوم عيد الغفران ، وحوالى الظهر ، اجتمع المراسلون الحربيون للصحف الاسرائيلية في مكتب الجنرال ايلى زايرا مدير المخابرات العسكرية . كانوا قد دعوا للحضور على عجل في الساعة الحادية عشرة صباحا ، في لقاء قصير ، لم يبدأ الا بعد ذلك بساعتين . وجاء الجنرال زايرا ، مليئا ومتماسكا وبادى الهدوء ، ثم استعرض الموقف وقال : « أن هناك حربا يمكن أن تندلع في أى وقت » .

وقبل الساعة الثانية بقليل ، دخل مدير مكتب الجنرال الى غرفة الاجتماع ، وقد بدا عليه الاضطراب ، ووضع ورقة أمام رئيسه . والقى هذا نظرة عليها ، وتظاهر بأنه لا يهتم كثيرا بما يقرأ ، ثم صرف مساعده بعد بضع كلمات بصوت منخفض لم يتمكن الصحفيون الحاضرون من سماعها .

وسأل زيف شيف المراسل العسكرى لصحيفة (هاآرتس) في فضول :

ـ ماذا يحدث ؟

فقال مدير المخابرات :

ـ لا شيء

ثم مضى فى الرد على أسئلة المراسلين ، كما لو أن شيئا لم يحدث، الى أن عاد مدير مكتبه بعد دقيقتين أو ثلاث فدخل مرة أخرى ، وقدم له ورقة ثانية ، ونهض الجنرال هذه المرة ، وخرج من الغرفة ، ولم يعد الا لكى يعلن على عجل أن الاجتماع قد انتهى .

وعندما أخذ المراسلون العسكريون يغادرون مقر أركان الحرب ، فوجئوا بصراخ صفارات الانذار تهز تل أبيب فى ذلك اليـــوم من عيد الغفران .

فى نفس هـــذه اللحظة ، وفى طابق آخر من مبنى هيئة اركان الحرب ، كان الجنرال دافيـــد اليعازر الملقب باسم (داود) فى اجتماع مع مساعده الجنرال اسرائيل طال .

كان الضباط العظام قد انصرفوا ، منذ الساعة السادسة صباحا ، وهى الساعة التى عقد فيها اليعازر أول اجتماع له مع موشيه ديان ، انصرفوا الى الاستعدادات .. العاجلة ، احتمالا لوقوع حرب لم يكونوا قد اقتنعوا بعد بوقوعها .

وبعد الساعة الثانية بعد الظهر ببضع دقائق ، وصلت الى اليعازر وطال التقـــارير الأولى المزعجة عن القصف المعـــادى فى سيناء والجولان . فقفز الاثنان من مقعديهما واسرعا الى قاعة العمليات بهيئة الأركان . وفى عصبية وحركات محمومة : راح الاثنان يدرسان الخرائط ، التى لم تكن قد سجلت عليها بعد تحركات العدو فى تلك الساعة وقد كشف سلوك الجنرالين عن توترهما الشديد ، والواقع انه اعتمادا على صـــدق المعلومات التى جاءت منذ الصباح فان الحرب لن تندلع ــ اذا هى اندلعت ــ الا فى الساعة السادسة مساء . والساعة الآن هى الثـــانية .

ان الجيش الاسرائيلى ليس مستعدا ، بل ان رؤساءه ليس لديهم تلك الساعات .. الأربع الباقية ، التى كانوا يعتقدون انهم يستطيعون أن يقوموا خلالها بالاجراءات العاجلة اللازمة .

وكان الموقف على أرض المعارك بعيدا عن اى وضوح .

اندلعت الحرب فعلا على طول المائة والثمانين كيلو مترا بمحاذاة قناة السويس ، والخمسة والسبعين كيلو مترا من خط وقف اطلاق النار بين اسرائيل وسوريا فوق هضبة الجولان . ففى الساعة الثانية بعد الظهر انفجرت آلاف القنابل والدانات فى جميع انحاء الجبهة ، وقامت موجات من قاذفات القنابل المصرية والسورية بغاراتها الجوية . وظهرت تسع طائرات من طرازى (ميج) و (سوخوى) السوفييتية الصنع فجاة فوق منطقة شلومو (أى منطقة شرم الشيخ) ، عند الطرف الجنوبى الأقصى من شبه جزيرة سيناء وأخذت تقصف منشئات الميناء العسكرى ومطار اوفيرا (الاسم العبرى لشرم الشيخ) . وبعد الهجوم الانقضاضى الأول ، وفور أن أخذ التشكيل الذى يتكون من الطائرات المصرية يستأنف ارتفاعه ، اندفعت نحو السماء أعمدة النيران والدخان . وسارع جنود شرم الشيخ الذين فوجئوا بهذا الهجوم الى مواقعهم ، كان بعضهم يوشك أن يستحم فى مياه الخليج الصافية ، وكانوا لا يزالون بأردية الاستحمام .

وبعد بضع دقائق ، ردد الهواء دوى المدافع الرشاشة ، التى حاولت عبثا اسقاط الطائرات المصرية . لقد كان جانب من أجهزة الاطلاق غير قابل للعمل ، ثم جاءت الموجة الثانية من الطائرات المعادية بعد لحظات ، واستطاعت أن تقصف بدون أن يضايقها شىء تقريبا المطار ومركز الاتصال فى شرم الشيخ .

ونتج عن الهجمات المتتالية الأربع سقوط قنبلتين، وخسائر مادية جسيمة . وفى نفس الوقت قصف عدد آخر من الطائرات المصرية (أبو ردبس) وهى مدينة البترول القائمة على الضفة الشرقية لخليج السويس . وحرصت هذه الطائرات على تجنب اصابة آبار البترول ومضخات الحفر . وركزت ضربها على مساكن الموظفين المدنيين فى حقول البترول . وقد تسببت ضربة مباشرة على أحد المبانى فى مصرع ستة من الموظفين المدنيين من منطقة شلومو .

وكانت المنطقة المطلة على مضايق تيران ـ التى كان اغلاقها بأمر من الرئيس جمال عبد الناصر يوم ٢٨ مايو ١٩٦٧ السبب المباشر فى اندلاع حرب الأيام الستة أحد أهداف الهجوم المصرى . كان قد أعطى الانذار ليلة الجمعة فى شرم الشيخ بقرب وقوع غارات جوية ، كما تلقت سلطات

أوفيرا صـــباح عيد الغفران أمرا باخلاء جميع السكان المدنيين فى أقصر وقت .

ومنذ افتتاح الطريق الذى يربط ايلات بأوفيرا ، كانت الخلجان الصغيرة المتناثرة عند أقصى الجنوب فى شبه جزيرة سيناء تجتذب الكثيرين من الاسرائيليين وقبل ذلك بأسبوع كان الآلاف من المتنزهين والأسر الكاملة يملأون القرى التى أنشئت لقضاء العطلات والأجازات فى المنطقة . وفى صبيحة العيد لم يعد فيها غير سبعين شخصا تقريبا ، فنقلوا جميعا اما بالسيارات العسكرية الى ايلات ، واما بطريق الجو من مطار أوفيرا الى تل أبيب . وقد انتهت عملية اخلاء المدنيين قبل بضع ساعات من أول هجوم جوى ، وهو ما سمى فيما بعد (بيرل هاربر) الاسرائيلية .

ونظرا للأهمية الاستراتيجية لشرم الشيخ ، فان حالات الطوارىء كانت كثيرا ما تعلن فيها خلال السنوات الأخيرة ، وكانت حالات الطوارىء هذه لا يقع خلالها أى هجوم . ولم يتغير شىء فى حالة الطوارىء التى أعلنت اليوم عن الحالات الســـابقة ، فيما عدا ظهور قاذفات القنابل المصرية .

***

فى ذلك الصباح ، صدر فوق احدى قمم جبل الشيخ : الواقع على بعد حوالى ستمائة وخمسين كيلو مترا بالطريق الجوى من شرم الشيخ ، أمر بالاستعداد لوقوع غارة . ولم يكن الأمر بالنسبة للحامية الاسرائيلية فى هذا الموقع الحصـــين فريدا أكثر مما كان فى الجبهة الجنوبية .

ففى الساعة الثانية بعد الظهر ، فتحت المدفعية السورية نيرانا كثيفة على قلعة جبل الشيخ ، المقامة على ارتفاع ٢٠٠٠ متر فوق سطح البحر ، عند أقصى الشمال من الاراضى التى تحتلها اسرائيل منذ عام ١٩٦٧ . وقد بنيت هذه القلعة الحصينة فى عمق الجبل ، وبين الصخور وسارع جنود الحامية الى مواقع اطلاق النـــار ، محاولين الاختبـــاء من قذائف العدو .

وعلى حين فجأة ، وعلى طول الوديان الصغيرة المواجهة لهم ، ظهرت

مجموعة من طائرات الهليكوبتر حاولت الهبوط فى منخفض قريب . وسقطت احدى الطائرات بفعل المدافع الرشاشة المضادة ، ولكن الأخرى تمكنت من الهبوط ، وقفز منها عشرات من رجال الكوماندوز السوريين ، وشرعوا فى مهاجمة القلعة .

وازاء هذا الهجوم المفاجىء ، ترك رجال الحامية مواقع اطلاق النار وتسللوا الى داخل القلعة ، التى يفترض انها غير قابلة للاقتحام . والواقع انها مغطاة بطبقة سميكة من صخور البازلت التى تبرز منها عدة مواسير التهوية . وتحت هذه الطبقة الصخرية التى يمكن أن تقاوم أية قنابل او قذائف ، اقيم مبنى فى باطن الأرض مكون من ثلاثة طوابق ، له حوائط سميكة من الأسمنت المسلح ، وأبواب من الصلب . انها قلعة حصينة لا يمكن دخولها . وقد قرر الجنود الاسرائيليون أن يلجأوا الى باطن الأرض ، انتظارا لوصول الطيران أو التعزيزات التى سوف تطرد الكوماندوز السوريين . ولن يستغرق ذلك سوى بضع ساعات ..

وفى الخارج ، كانت القلعة قد ضرب حولها الحصار .

* * *

ان نقاط الاستناد فى خط بارليف على قناة السويس ، هى عبارة عن مخابىء تتكون من مرابض وخنادق بنيت تحت الأرض ، يحيط بها ساتر مرتفع من التراب يغطى مواقع اطلاق النار . وهناك خنادق أخرى تربط بينها مواقع أخرى لاطلاق النار .

وفى داخل المعقل الرئيسى الذى صنعت جوانبه من الصاج المموج ، احس الجندى اسحاق فجأة أن الأرض زلزلت تحت قدميه ، ثم وجد نفسه منطرحا على الأرض ، وتدحرجت حوله الأحجار ، وتساقطت الأتربة ، وتطايرت شظايا الأسمنت المسلح .

وترامت اليه من الخارج نداءات تطلب الاستغاثة ، فنهض اسحاق وأسرع نحو مدخل المعقل — ولكن المشهد الذى كان فى انتظاره بدا له مروعا مفزعا وغير مفهوم .. لقد رأى جسد جندى قتيل عبر الخندق ، ورأى جنديين جريحين الى جانب الساتر . وعلى البعد عددا من طائرات المطاردة تتجه على ارتفاع منخفض نحو الشرق .

كانت المفاجأة شاملة خلال عدة دقائق . وبعد ذلك افاق اسحاق على الأوامر الأولى التى يصدرها قائد الموقع ، ويطلب فيها من رجاله أن يعودوا الى مواقعهم ثم سمع خطوات الجنود وهم يركضون على طول الخنادق الضيقة .

ويوناثان رجل مدنى له قامة طويلة تسترعى النظر . انه جالس فوق مقعده داخل الجرار الثقيل ، الذى ينطلق به على الممر المجاور للساتر الترابى ، عند حافة الضفة الشرقية لقناة السويس .

لم يكن قد مضى وقت طويل منذ سرح يوناثان من الخدمة العسكرية . لقد كان عريفا فى قوات المظلات . وبعد أن سرح من الجيش قرر أن يعود الى الجبهة ، لكى يقود الجرارات والأجهزة الثقيلة . انه عمل خطير وصعب ، وبالتالى يعود عليه بربح وفير . وكل ساعة عمل كبيرة الأهمية بالنسبة ليوناثان ، فهو فى حاجة الى النقود . وحتى فى ذلك اليوم من عيد الغفران ، الذى يتوقف فيه كل نشاط فى البلاد ، فانه استيقظ مبكرا ، وصعد الى جراره ، لكى يؤدى عملا كان قد كلف به . ولم يكن أحد قد أخبره باحتمال حدوث « شىء ما » ، وفضلا عن ذلك ، فانه حتى اذا كانوا قد أخبروه ، فان من المشكوك فيه انه كان سيترك جراره لكى يلجأ الى احد المخابىء .

وعندما بدأت القنابل تتساقط من حوله ، وتترك حفرا رمادية تميل الى البياض فى الأرض الرملية ، احس بكثير من المفاجأة انه فوجىء فحسب . فلقد كان مقتنعا أنه مجرد حادث آخر ، ولا شىء أكثر من ذلك ، فاتجه بجراره نحو نقطة الامداد والدعم التى تبعد قليلا ، وأخذ يقترب من مكان خيل اليه أنه مأمون . وجاءت قذيفة لتنفجر فجأة بالقرب منه ، ولم يكن لديه من الوقت الا لحظة قصيرة وصل فيها الى فتحة المعقل وعندما تلفت خلفه ، كان جراره مشتعلا بالنيران .

ويورام ــ الذى يبلغ من العمر الثلاثين ــ احد جنود الاحتياط . لقد وصل من القدس الى جبهة قناة السويس قبل عيد الغفران ببضعة أيام ، لكى يحل محل زميل له سافر فى اجازة ، لأن زوجته قد وضعت .

وكما هو الحال بالنسبة لجنود وحدة الاحتياط القادمة من

القدس والتى تتولى حراسة خط الجبهة فى ذلك اليوم ، فان يورام ليست لديه اية تجربة فى القتال .

ومنذ بضع ثوان ، ذهب احد رفاقه لكى ينشر غسيلا على الأسلاك الشائكة المقامة حول الموقع . وكانت الساعة عندئذ الثــانية بعد الظهر ، ويورام واقف أمام المعقل ـ راح يتطلع ، وفمه مفتوح الى ثلاث من طائرات هليكوبتر متجهة نحوه محلقة فوق مياه القناة الزرقاء . وعند ذلك أسرع نحو القلعة ليسأل عما يحدث ، فلحقت به فى دوى يصم الآذان مجموعة من القذائف ، سقطت احداها بالقرب من المعقل .. وتصاعد دخان كثيف اخضر ملأ خياشــيم يورام ورئتيه ، وجعله يصــاب بالغثيان . وانتشر الدخان امامه داخل المعقل ، فشعر الرجال بأنهم لا يستطيعون التنفس ، ولكن طبيب الموقع قال : « هذا لا شىء .. انه دخان عادى .. الغرض منه حجب الرؤية » .

واخذت جميع اجهزة اللاسلكى على جبهة القناة تعمل بعصبية ، فقد توالت الأنبــاء المذهلة « المصريون يعبرون القناة » .. « جموع غفيرة من الجنود » .. « مئات من قوارب المطاط » .. « قوارب من نيل الزجاج » ..

وعلى الضفة الغربية ، وقفت كتائب ترسل الى الضفة الأخرى العربات المصفحة وقد وضعت فوق العوامات ..

وكان موردخاى جالسا فى هدوء فوق برج المراقبة فى نقطة الامداد والدعم ، فى مواجهة كوبرى الفردان ، عندما دوى انفجار يصم الآذان اخذ يزداد تضخما ، حمله على ان ينبطح على الأرض . كان تشكيل كبير من الطائرات النفاثة تطير على ارتفاع منخفض ، وتكاد تلمس الأرض الرملية ، ويندفع الى يساره . ولم تمض سوى بضع ثوان ، الا وشهدت عيناه مياه قناة السويس قد غطيت فجأة بعشرات من القوارب وبداخلها رجال راحوا يجدفون بكل قوتهم ، ويعبرون بهــا الطريق المائى من الغرب الى الشرق . وغمغم موردخاى وقد ظن أنه فى حلم : « هذا غير معقول .. ان المصريين يعبرون القناة » ..

وبضربة واحدة ترنح برج المراقبة وتمايل ، وظل معلقا على ثلاثة من أعمدته وفقد موردخاى توازنه ، وتعلق بكل ثقله فى السياج المعدنى

الذى يتدلى منه حطام النظارة المكبرة التى كان يستخدمها . وفى رعبه أخذ يتطلع الى ما تحت قدميه ليرى عشرات الجنود المصريين الذين أصبحوا الآن فوق الساتر الترابى فى الضفة الشرقية للقناة ، وأخذوا يندفعون فى كل اتجاه . ها هم يقتربون من الأسلاك الشائكة ثم يفجرونها فترتفع فى الهواء أعمدة من الرمال والدخان ..

ولم يفهم موردخاى السبب فى أن الفيلم الذى يدور أمام بصره فيلم صامت ، ولا السبب الذى يجعل هذا الصمت الرهيب يخيم على المكان . فى حين ان أولئك الرجال يركضون ويلوحون بأذرعتهم ، وبينما مدافعهم الرشاشة تطلق اللهب على مواقع اطلاق النار الاسرائيلية .. وكل ذلك كان يجب أن تكون له أصداء تهز الجبال .

انه لم يدرك الا فيما بعد ، عندما هبط من البرج ، انه اصبح أصم لا يسمع أن قذيفة المدفع المضاد للدبابات التى انطلقت من الضفة الأخرى للقناة ، قد اصابت برج المراقبة ، فجعله دويها يصاب بالصمم الى الأبد .

* * *

هكذا انقضت اللحظات الأولى من حرب عيد الغفران على خط بارليف . ولقد كان ما حدث شيئا غير معقول ، مما جعل الدهشة التى استولت على جميع وحدات حامية الخط كاملة شاملة . وبالرغم من المعلومات التى تسربت ووصلت الى مراكز قيادة الوحدات المرابطة فى الميدان ، وبالرغم من الأوامر التى صدرت للاحتفاظ بحالة « التأهب الدفاعى » على الخطوط ، فان المفاجأة كانت كاملة .

لقد كان هناك حوالى خمسمائة جندى ـ أغلبهم من الاحتياطى ـ يتولون حراسة ست عشرة من نقاط الامداد والدعم الثلاث والثلاثين ، وهى النقطة الحصينة فى خط بارليف .

وفى يوم ٦ أكتوبر ، فيما بين الساعة الثانية وخمس دقائق والثانية والربع بعد الظهر ، كان هناك عدد من القتلى على طول الضفة الشرقية للقناة ، وهم قتلى لن يسمح لهم الوقت لكى يفهموا أو يعرفوا أن الحرب قد بدأت . وكان هناك جنود أصيبوا بجراح ، وحملوا الى داخل المواقع

الحصينة ، وبينما عكف الأطباء على تضميد جراحهم ، اذا بهم يعلمون من الاذاعة ان الحرب قد اندلعت .

فى الليلة السابقة ، كانت مجموعات صغيرة العدد من المصريين قد اجتازت القناة ، ومهمتها نسف عدد من التجهيزات الخاصة بالقرب من المواقع الحصينة فى خط بارليف . والواقع أن الشائعات كانت قد رددت فى مصر ، ان على الضفة الشرقية للقناة جهازا رهيبا للدفاع عنها، أقامه الاسرائيليون عن طريق وضع مواسير ضخمة موازية للقناة ، لها فتحات تنتهى عند المياه ، فاذا حاول المصريون العبور ، اندفع منها سائل ملتهب فيغطى صفحة القناة بطبقة كثيفة من النار ، مما لا يمكن معها فعل شىء .

لقد كان رؤساء الجيش المصرى يعرفون جيدا ما هناك . ولكى يقضوا على هذه الشائعة المخيفة ، فانهم أرسلوا عشية موعد الهجوم بعض مجموعات التخريب ، لكى تبطل عمل تلك الأجهزة .

كان عملا وقائيا لا جدوى منه . فلقد كان هناك بالفعل عدد من خزانات سائل ملتهب . ولكنها كانت فى بعض نقاط الارتكاز فى خط بارليف . وفضلا عن ذلك فانه بالنظر الى أن الجهاز كان يعمل لمجرد الضغط على احد الأزرار ، كان الخوف من أن يعمل نتيجة لوقوع خطأ قد ادى بالمسئولين الى التخلى عن الجهاز ومن هنا كانت الخزانات فارغة من محتوياتها ، فلم يكن هناك ما يدعو الى نسفها ، اذا لم تكن صالحة للاستخدام .

على أن هذه العملية التى لا داعى لها ، كانت لها فوائدها فلقد استطاعت المجموعات المصرية أن تؤكد نظرية قيادتهم ، التى تقول ان « الخمول » قد ساد الجانب الاسرائيلى . وقد دفع المصريون ، فى اليوم السابق للحرب ، بقوات مدرعة وقفت بين قناة المياه العذبة وبين قناة السويس ، وقد غيروا معالمها بشباك التضليل ، أو بوضعها بين الأشجار . وكانت هناك أجزاء الجسور وغير ذلك من التجهيزات المعدة للعبور ، وهى تجهيزات حديثة وحسنة ، وجميعها صناعة سوفيتية قد وضعت فى أماكنها منذ شهور ، وأخفيت بوسائل للتضليل يبلغ

ارتفاعها عشرة أمتار وفى ليلة ٥ اكتوبر جاءوا الى منطقة القناة بقطع اخرى ضرورية للعبور .

ان تحديد موعد الهجوم بيوم ٦ اكتوبر لم تصنعه هيئة أركان الحرب المصرية اعتباطا . فلقد كانت هنـاك عدة عوامل حاسمة ، أولها أن الليلة التالية للهجوم مباشرة يجب أن يكون القمر فيها بدرا ، اذ أن ضوء القمر سوف يساعد قوات الهجوم فى الساعات الحرجة . وثانيها أن سرعة التيارات فى القناة قد درست بعناية لامكان اختيار أفضل وقت للعبور . وثالثها ان الاسرائيليين سيكونون فى يوم عيد الغفران أقل ما يمكن استعدادا ، ماديا وسيكولوجيا للرد على الهجوم .

وهكذا ، تقرر لدى الدول المجاورة لاسرائيل ، أن يكون يوم عيد الغفران الأكبر هو اليوم الموعود .

* * *

فى يوم السبت السادس من أكتوبر ، وفى الساعة الحادية عشرة صباحا كان الملازم رامى ـ رئيس احدى كتائب الدبابات ـ ورفاقه فوق هضبة الجولان ، فجاءته معلومة غير مصحوبة بأى تعليق تقول : « يبـدو أن حربا عامة على وشك أن تبدأ بين سوريا ومصر واسرائيل » .

وقد قال رامى فيما بعد :

« فى حوالى الساعة الثانية بعد الظهر ، سمعنا فجأة ضجيج محركات دبابات وطائرات ، وانقضت طائرات من طراز ميج على (تل أبو ندا) وعند ذلك فتحنا النار فى اتجاههما ولكن بغير أن نصيبهما . وصعدنا الى دباباتنا لكى نتقدم فى اتجاه الجبهة وفى خلال الطريق أصدر لنا قائد اللواء أمرا بالعودة الى قطاع الجبهة فسرنا حوالى كيلو مترا واحــدا ، واذا بنا نقع تحت نيران من المدفعيـة ، التى راحت تدك كل الطرق المحيطة بنا ، ووصلنا الى قطاعنا ، واتخذ كل منا موقعه . لم نكن نتوقع شيئا غير عادى خارج المألوف ، وفجأة رأيت عددا كبيرا من عربات نصف الجنزير والدبابات السورية يتقدم فى اتجاهنا ففتحنا النار ، وعلى الفور تحول عــدد منها الى حطــام . وبدأنا نعدها وطالب كل واحد من رجالى بحقه فى الشمبانيا ـ وهى المكافأة الموعودة لكل

من يدمر دبابة للعدو . غير أن هتافات الفرح لدينا لم تدم طويلا ، اذ ابلغونا ان قوة سورية مدرعة استطاعت أن تحدث ثغرة على بعد حوالى كيلو مترين من المكان الذى كنا فيه .

وعندما وصلنا الى القطاع الذى حدثت فيه الثغرة ، كان السوريون قد اجتازوا الحفرة المضادة للدبابات ، فاتخذنا مواقعنا وفتحنا النيران . وفى هذا التبادل دمرنا خمس دبابات من طراز (ت ـ ٥٥) ، وعددا من المجنزرات وبعض العربات .

«ثم عدت الى المكان الذى غادرته فادركت أن قوة سورية قدانتشرت على طوال التلال وكانت هناك عربات حاملة للجسور ، ودبابات وعربات مصفحة فبدأت أطلق عليها النار ، وتمكنت من تدمير عربتين حاملات للجسور ، ثم ولت الثالثة الأدبار . وقد استمر هذا الاشتباك مع القوات السورية ، الى أن استدعينا للحاق باللواء ، نظرا لأن قوات معادية جديدة ظهرت فى القطاع .

« كانت المعارك قد بدأت فى الساعة الثانية والنصف بعد الظهر ، ثم هبط الليل فى الساعة الخامسة والنصف ، فكان كل شىء حولنا عبارة عن أكوام من العربات المصفحة السورية المحترقة . وقد أصيبت لنا دبابة واحدة وجرح قائدها . وعندما كنا نخرجه منها تصورنا الأمر قد انتهى ، وان الهدوء لن يلبث أن يسود غير أنه فى حوالى الساعة العاشرة مساء انفتح ستار من المدفعية واستمر حتى صباح اليوم التالى .

« وفى الصباح ، انقسمت القوة السورية التى تتقدم فى وادى (خان ارنبه) الى ثلاثة طوابير ، فتلقينا الأمر باحتوائها . لقد كنا ست او سبع دبابات ، ولا أكثر من ذلك فذهبنا الى ركن نستطيع منه أن نرصد حركة السوريين ، الذين بدأوا يمطرون القطاع بنيرانهم . وقد اصيبت احدى دباباتنا ، وقتل قائدها . ولم يبق لدينا سوى القليل من الدبابات ، فأخذنا نقاتل من بعد حوالى ٢٥٠٠ متر ، وهكذا استطعنا أن نحتوى السوريين .

« وطلبنا ذخائر ، لأنها كادت تنفد وعند ذلك بدأوا يخلونا دبابة دبابة .. » .

بدأ السوريون الحرب على الجبهة الشمالية بنيران من المدفعية ، انطلقت من أكثر من ألف مدفع وبقصف جوى . ولم يكن يبدو أن طائراتهم تقيم وزنا لمواقع إطلاق النار ، أو للدبابات الاسرائيلية . لقد كانوا يركزون بصفة خاصة فى هجماتهم على المواقع المتقدمة ، ومنشئات اللاسلكى ، لكى يجعلوها غير صالحة للاستعمال ولم تكن مدفعيتهم تكتفى بقصف الطرق ونقط الاتصال والمواقع المتقدمة بل انهم كانوا لا يتركون المراكز المدنية سواء فى هضبة الجولان ، أو فى الوادى الممتد نحو الشرق أسفل الهضبة .

وعلى عكس ما فعل المصريون ، فان السوريين لم تكن أمامهم آية عقبة طبيعية لاجتيازهم ، خلال تقدمهم نحو الخطوط الاسرائيلية . وفى بعض النقاط ، كان يتعين عليهم أن يعبروا حفرة مضادة الدبابات ؛ عريضة وفعالة ، ولكن ذلك لم يكن فى نهاية الأمر سوى عقبة فنية . ولكن الى جانب هذه الحفرة ، والأرض الجبلية غير الملائمة لتحركات المدرعات ؛ فانه لم يكن أمامهم سوى مجموعة من التحصينات الاسرائيلية المتناثرة ، والمزودة بكافة أنواع الأسلحة المضادة للدبابات وبالبنادق القاذفة للقنابل المضادة للمدرعات وقاذفات الصواريخ ذات المدى القصير . ومن هنا فان الهجوم السورى قد قامت به أساسا القوات المدرعة ، التى كانت تتقدم فى ثلاثة طوابير ، نحو الخطوط الدفاعية الاسرائيلية فى الجولان . لم تكن على عجلة من أمرها ، وانما راحت تدور حول المواقع الاسرائيلية الحصينة ، ثم تركتها خلفها ، بغير أن تدخل فى اشتباك معها . وكما لو كان السوريون يتبعون خطة موضوعة مقدما ، فانهم راحوا يتقدمون نحو نقاط الاتصال وطرق المواصلات الرئيسية فى الجولان .

عندما فتح السوريون النار فى الساعة الثانية ، كان قادة الوحدات الاسرائيلية على هضبة الجولان مجتمعين فى مركز قيادة قائد عام الجبهة . ومنذ نصف ساعة مضى ، كانوا قد أصدروا الأمر الى رجال المدرعات — الذين لم يغادروا دباباتهم منذ اثنتى عشرة ساعة — أن يخلدوا للراحة وكان ذلك معناه أن يظل واحد منهم فى دبابته ، وأن يخرج الباقون لتلمس شىء من الراحة . وما كاد الرجال يغادرون عرباتهم . وهم يبتسمون لبعضهم البعض حتى فتحت المدفعية السورية نيرانها على المنطقة كلها ، فى نفس الوقت الذى راحت فيه طائرات الميج تهاجم

المنشئات والدبابات الاسرائيلية وفي هذه اللحظة كان قادة الوحدات عاكفين على الخرائط ، يحاولون بكل جهدهم العثور على خطة يتمكنون بها ، بالعدد القليل من المدرعات التى لديهم من وضع أفضل دفاع ممكن عن المنطقة ، الى أن تصل وحدات الاحتياطى ، ولكن هدير ستار نيران المدفعية قطع عليهم هذه الدراسة ، فسارعوا الى مدرعاتهم .

وراح قائد أحد التشكيلات الاسرائيليـة يجرى بكل سرعة على الطريق المتجه الى الشرق ، وأخذ يحاول الاتصال عن طريق اللاسلكى بقواته ، التى تركها وراءه مبعثرة فى ذلك القطاع العريض . الا أنها كانت فى غمار المعركة ، وكان عدد كبير منها لا وجود له على الاطلاق . كان اى رد يتلقاه على نداءاته ، يحدث لديه راحة كبرى ، فلم يكن يعرف حتى الآن أن الخسـائر التى لحقت بهـذه القوات ، قضت على فعـالية قتالية لعـدد كبير من الكتائب ، حتى ولو كانت بعض وحداتها لاتزالت تجيب على نداءاته .. فانه عندما تكون رحى القتال دائرة ، يستحيل وضع اى تقرير سليم .

ولقد أخذت الدبابات السورية تركز هجومها بصفة خاصة على جنوب هضبة الجولان . ابتداء من نقطة الاتصال عند « رافد » . فاما حاصرت المواقع الاسرائيلية المتقدمة وهاجمتها ، فان هذه المواقع سارعت بابلاغ ذلك الى حفنة الدبابات المرابطة فى القطـاع . ووصلت بعض المدرعات لتعزيز عدد من التشكيلات أو لكى تنقل الى مكان المعركة عددا من الجنود . لكن الحصار الذى ضربته الدبابات السورية كان يزداد احكاما ، مما جعل الكثير من المواقع الاسرائيلية معزولة تماما عن باقى اسرائيل .

كانت الصعاب التى واجهت عملية اخلاء المدنيين فى الساعات الأولى من الحرب ، قد طرحت عدة مشكلات أمام القوات المسلحة . ذلك أن الموقف فى الجولان مختلف تماما عنه فى قناة السـويس ، اذ أن المستعمرات الزراعية الاسرائيلية الاحدى عشرة ، تقوم على بعد كيلومترات قليلة من خط النار . لقد تم اجلاء النساء والأطفال حوالى الظهر ، اى قبل ساعتين من بدء الهجوم ، الا أن الجانب الأكبر من الرجال لم يتم اخلاؤهم الا بعد أن بدأ القتال بالفعل ، وتحت نيران المدفعية السورية .

ان (يهوشوا) شاب في التاسـعة عشرة ، وهو متدين ويمارس العبادة ومن مواليد تل أبيب . لقد وصلت وحدته الى الجولان منذ خمسة أيام ، لكى تحل محل لواء (جولانى) ، وهو لواء مشاة تكون من الجنود العاملين ، وقد استدعى للقيام بمهمة روتينية .

وكان (يهوشوا) يتولى قيادة الموقع المتقدم فى نقطة الارتكاز التى عهد بها الى هذه الوحدات . ولقد وصل الى موقعه قبل رجاله بيوم واحد ، لكى يتلقى من جنود لواء (جولانى) جميع تعليمات تغيير القوة . ولقد روى فيما بعد ذلك فقال : « لم يكن النشاط الذى تقوم به القوة يخرج عن النشاط المعتاد . فلقد كنا نرى فى الليل بعض التحركات التى يقوم بها عدد كبير من العربات السورية ، وكنا نقدم عن ذلك تقريرا ، وفى يوم الجمعة ، كانت دورات حراستنا قد نظمت كالعادة ثم تناولنا بعد الظهر الوجبة التى تسبق التهيؤ للصيام الخاص بعيد الغفران ، وقد تناول غير المتدينين منا طعامهم فيما بعد ، وذهبت مع عريف من وحدتى لنؤدى الصلاة . كان كل شىء يسير سيرا عاديا ، فيما عدا أنهم أرسلوا لنا يوم الجمعة مساء ، ثلاثة جنود بمثابة تعزيز لنا » .

وفى نفس ذلك اليوم ، الجمعة ، وصل الى نقطة الارتكاز هذه ، القائمة على خط وقف اطلاق النار فى مواجهة (وادى روداك) وفى اتجاه مستعمرة « رامات ماجشيميم » ضابط شاب للوحدة ، لكى يحل محل القائد الذى سافر فى أجازة .

وفى صباح اليوم التالى ، السبت ، وصل فى الساعة الثامنة الامر الخاص باعلان حالة التأهب فى الوحدة .

وفى الساعة الواحدة و ٥٥ دقيقة بعد الظهر ، كان (يهوشوا) فى موقع المراقبة ، وبالقرب من مدخل الموقع . كانوا قد وضعوا بدلا منه جنديا آخر حل محله ، ريثما يؤدى صلاته . ودلف يهوشوا الى المربض ليصلى فى ركن منه ، وما كاد يفعل ، حتى دوت الطلقات فى ساحة نقطة الارتكاز ، فانطلق الى الخارج . كانت الشبكة اللاسلكية التى تربط بين مراكز اطلاق النار قد أصيبت ، وأخذ الضابط المسئول يصيح فى رجاله لكى يلحق كل منهم بموقعه . وروى يهوشوا فيما بعد ما حدث فقال :

« لقد استمرت نيران المدفعية السورية نصف ساعة ، وفي كل اربع دقائق بالضبط ، كانت موجة من القذائف تنهمر علينا . وبعد كل واحدة من هذه الموجات كنا نعرف أن أمامنا ثلاث دقائق نلتقط فيها أنفاسنا » .

ومن الموقع المقام عند مدخل المربض ، كان يهوشوا يستطيع رؤية السوريين وهم يحاولون اقامة الجسور فوق الحفرة المضادة للدبابات ، والتى تفصل المواقع الاسرائيلية عن المواقع السورية . كانت لديهم سيارات من حاملات الكبارى وأحد البولدوزرات ، الذى راح يعمل لكى يردم الحفرة بالتراب . ولم يكن فى وسع الاسرائيليين مجرد منعهم ، اذ أن أسلحتهم المضادة للدبابات كانت ذات مدى قصير .

وفى الساعة الثالثة بعد الظهر ، كان العائق قد ردم أخيرا . وقال يهوشوا فى ذلك :

« لقد مروا بالقرب منا تماما ، وداروا حول مواقعنا . وكان هناك ما بين عشرين وثلاثين دبابة ، اجتازت الحفرة فوق الجسرين اللذين تمت اقامتهما . وبعد ذلك ببضع دقائق ظهرت طائراتنا فى السماء ، وتمكنت من احدى الدبابات السورية التى كانت لا تزال على أحد الجسرين ، غير أن السوريين تمكنوا من اقامة جسر ثالث ، على بعد عشرين مترا . وفى نفس الوقت تقريبا ، وصلت طائراتنا ومدرعاتنا وبدأت فى التصويب عليهم ، فأخذت بعض الدبابات السورية تشتعل » .

وبعد ذلك بساعتين ، راحت ثلاث دبابات سورية فى التقدم نحو نقطة الارتكاز الاسرائيلية ، فتمكنت واحدة منها من سحل الأسلاك الشائكة الحامية بجنازيرها ولكن عندما وصلت الى موضع مدفع المورتر ، اصيبت بصاروخ من صواريخ البازوكا أطلق عليها من مسافة خمسة وعشرين مترا . وعند ذلك قفز اثنان من الطاقم السورى وحاولا الفرار ولكن قنبلة يدوية قتلتهما على الفور . وأصيبت دبابة معادية أخرى كانت قد دخلت فى أعقاب الأولى ، اذ أطلقت عليها قذيفة مضادة للدبابات وجهها « يوسى » الضابط الشاب الذى يتولى قيادة نقطة الارتكاز وحاول الرجال الأربعة الذين يتكون منهم طاقمها الفرار . وقد استطاعوا ذلك فعلا وكان محرك الدبابة لا يزال دائرا ، فما دام خزان الوقود

ممتلئا . فسيظل ثمانيا وأربعين ساعة مغروسا هنـاك ، عند مدخل نقطة الارتكاز . وهو يدوى حتى ينفد منه الوقود .

وقبل هبوط الليل ، ارسلوا يهوشـوا لكى يبث بعض الألغام عنـد مدخل المربض ، خوفا من أن تنتهز بعض الدبابات السـورية فرصـة الظلام لاقتحامه وبالفعل أمكن تعطيل دبابة سورية واحدة وتمكن طاقمها من النجاة .

وفى الليل جاءت دبابتين أخريين ، كل منهما على حدة : ولكنها كانت اسرائيلية فى هذه المرة . كانت الأولى معطوبة والثانية تكاد تنفد منها الذخيرة فاستعارت ما مع الأولى وفجأة ، جاءت موجة جديدة من القذائف ، ولم يمكن رؤية من الذى أطلقها . وبفضل صاروخ مضىء أطلقه مدفع اسرائيلى ، أتيح للدبابة الاسرائيلية التى وصلت لتوها أن تطلق النار على العدو ، فأصابت ثلاث مدرعات قبل أن تنضـم الى وحدتها . غير أن مزيدا من المدرعات السورية أخذ يتدفق ، ولم تكن هناك ايه اسلحة تتيح قتالها . وفى لحظة يأس أطلق (ايلى) وهو العريف المسئول عن مدافع الهاون عدة قذائف من عيار ٨١ مم على تلك الدبابات، فأصاب احداها ، بينما غيرت الأخرى اتجاهها .

وطوال الليل اخذت المدرعات المعادية تدك جوانب المعقل ، فى الاتجاه الى داخل هضبة الجولان . وهنـــاك أدرك الاسرائيليون انهم محاصرون وقد قطعت الصلة بينهم وبين قواعدهم . فاكتفوا بأن بعثوا الى المؤخرة بأفضل ما لديهم من معلومات ممكنة حول عدد المدرعات القادمة من سوريا ، لكى تضبط عليها طلقات المدفعية الاسرائيلية . وقال يهوشوا فيما بعد :

« لقد كانت هناك طوابير كاملة من دبابات (ت ــ ٥٥) تهدر نحو الغرب ، وكانت تجىء بغير انقطاع . وقد سمعنا فى أجهزة الراديو التى كانت معنا انه قد حدث تبادل لاطلاق النار عند قناة السويس . ثم بقينا وحدنا تماما » .

❋ ❋ ❋

حاول (بواز) ، غير بعيد من هذا الموقع ، أن يحتوى بوحدته التقدم

السورى . فعندما بدأ اطلاق النار فى الساعة الثامنة بعد الظهر ، لم يكن قد عرف بعد أن هذه هي الحرب .

ويقول بواز :

« كان قد عقد اجتماع مساء يوم الجمعة لرؤساء الوحدات فى القطاع، وكنا قد وضعنا خططنا الخاصة بالعمليات . انها عمليات دفاعية، ولم يكن هناك أى تفكير فى أى عمل هجومى . لم نكن نفكر الا فى الدفاع عن انفسنا . لقد كانت لدينا معلومات عن حشـــود ضخمة للقوات السورية فى المنطقة ، ولم نكن نعرف أنه ستكون هناك حرب ، ولا متى ستندلع ، كل ما كان قد قيل لنا : هو أن الموقف عند الحدود قد يزداد سخونة فى اليوم التالى . وفى صباح السبت فقط قيل لنا أن الموقف قد يصبح خطيرا . وكنت قد قمت بدورية على طول خط وقف اطلاق النار ، وخيل الى أن الهدوء التام يسود المنطقة . ففى الجانب السورى كان الرعاة يبدون مع قطعانهم ، وكان من العسير الاعتقاد بان شـــيئا خطيرا سوف يحدث ، حتى ولا يوم قتال واحد ، كما سبق أن حدث لنا هنا يوم ٨ يناير أو يوم ٤ نوفمبر من العام الماضى » .

وحوالى ظهر يوم السبت ، كانت مدرعات وحدة (بواز) متناثرة على الأرض ، على احتمال وقوع قصف من المدفعية . وكانت جميع الأطقم فى أماكنها ، مستعدة للعمل على الفور .

وفى الساعة الثانية بعد الظهر ، أعلنت النيران الكثيفة للمدفعية التى أطلقت على منطقة الحسينة اندلاع الحرب . وفى الوقت نفسه ، جاء تشكيل من أربع قاذفات قنابل سورية من طراز (سوخوى) ليقصف أهداف المنطقة .

وجمع بواز وحدته ، واتخذ طريقه فى اتجاه (طريق البترول) .

وعلى طول هضبة الجولان فى الأراضى المحتلة بالقوات الاسرائيلية ، يمر فرع من خط الأنابيب الكبير الذى ينقل بترول العربية السعودية عبر الأردن ، حتى أحد الموانىء اللبنانية الواقع على البحر المتوسط . ويجيء خط الأنابيب من العربية السعودية ليعبر الأردن حتى الأراضى السورية ، ومن هناك يعبر الجولان الى لبنان . كان هناك اتفاق ضمنى بين جميع بلاد المنطقة يقول :

« ان خط الأنابيب خارج اللعبة ، حتى فى زمن الحرب » . ولقد انتهك هذا الاتفاق غير المكتوب فى عام ١٩٦٩ بواسطة مجموعة من الكوماندوز الفلسطينيين الذين خربوا خط الأنابيب . وقد تدفق البترول يومها على سفوح الجولان ، فى اتجاه الأراضى الاسرائيلية وهدد بتلوث مياه نهر الأردن . وبعد أن تم اصلاح الخط ، وبناء على مبادرة من جانب الشركات الأمريكية التى تستخدمه ، اتخذت اجراءات أمن لحمايته . فوضعت على جانبى خط الأنابيب شبكات عالية من الأسلاك الشائكة ، كما أقيم الى جواره طريق طويل ، تسير عليه دوريات للحراسة . وهذا هو (طريق البترول) ، الذى أصبح منذ الساعات الأولى لنشوب المعارك فى حرب عيد الغفران ، أحد المحاور الرئيسية للقتال فوق الجولان .

ولقد احتلت دبابات (بواز) مواقعها المقررة خلال عشر دقائق ، وهى تقع عند الحدود فى منطقة (طريق البترول) ، حيث يمر من سوريا الى اسرائيل . ولما كانت المدفعية السورية قد ضبطت تصويبها على الطريق الذى اتخذته دبابات (بواز) فان سائقيها الاسرائيليين وجدوا انفسهم تحت وابل من القذائف التى أخذت تتساقط عليهم .

وقال (بواز) :

« كانت القنابل تنهمر علينا من كل اتجاه ، وقد خيل الى انهم يروننا رؤية تامة ، أو أن قوة نيرانهم كانت من القدرة بفضل العدد الكبير من المدافع التى لديهم الى درجة انهم يغطون كل ركن من هضبة الجولان . وحينما كنت اتطلع ، كانت القذائف تنهمر » .

وشاهد (بواز) فى مواجهة دبابته ، وعلى بعد كيلو متر واحد ، طابورا لا نهاية له من المدرعات السورية يتقدم . وأخذت المدرعات الاسرائيلية التى كانت فى القطاع تطلق عليه نيرانها . أما السوريون فقد وجهوا نيران مدفعيتهم من نقاط استنادهم وراء الحدود الى المدرعات الاسرائيلية ، كما وجهوا للمرة الأولى صواريخهم المضادة للدبابات ، وبدا كأن الأرض كلها زلزلت .

ويروى (بواز) ما حدث فيقول :

« كانت أول فكرة خطرت لى ، هى أن السوريين ربما يكونون قد

قرروا فتح ثغرة فى قطـــاعى . لقــد مضى كل شىء فى غاية السرعة . وكان الطابور السورى المدرع يتقدم بكل سرعته فأصبنا الدبابتين اللتين فى مقـــدمته ، ولكن بقيــة الدبابات دارت من حولهما بكل بســـاطة واستمرت فى طريقها . ولقد وصلت الى بعد حوالى ثلثمائة متر من المكان الذى نقف فيه ، فرحنا ننسف دباباتهم ، واذا بهم يأتون بغيرها، الأمر الذى بدا غريبا فى هــذه العملية الصغيرة ولم أكن أتصــور ، مع السرعة التى كانت الدبابات الســـورية تنطلق بها ، اننا قادرون على اصطيادها بمثل هذه السهولة » .

« لقد أحصيت منها خمسا ، ثم ستا ، أصبحت كلها غير صالحة للقتال ولكنى حتى فى تلك اللحظات ، لم أكن أعتقد انها الحرب الشاملة ، انما كنت لا أزال أظن أنه (يوم قتال) آخر » .

وقد أصيبت دبابات بواز بدورها ، الواحدة بعد الأخرى . ولقد صمد بدباباته الست أمام عدة عشرات من دبابات العدو ، وبعد ساعتين ، وعندما بدأ يدرك أن (المسألة) أصبحت خطيرة ، لم يكن قد بقى له غير دبابتين .

ويتحدث (بواز) أيضا فيقول :

« لقد كانت حالتنا المعنوية منخفضة . ذلك انهم كانوا على بعــد مائة أو مائتى متر منا . لقد دمرنا لهم حوالى خمس عشرة دبابة ، ولكن وحدتى كلهــا أصبحت تقريبا غير صالحة للقتال . ويصعب على القول متى أصبنا ، أو ما هى القذائف التى أصبنا بها . وحتى دبابتى أصيبت بدورها . وكان السوريون لا يزالون يتقدمون ويتقدمون الى الحــد الذى امتنعوا فيه عن اطلاق النار . كانوا يتقدمون فى مجموعات . بغير أن يقيموا وزنا للدبابات التى تتوقف فى الطريق . وعند ذلك قررت الاتصال بمركز القيادة ، وقلت لهم أنهم اذا لم يرسلوا الى تعزيزات ، فلن أستطيع ايقاف الهجوم السورى وحدى . وفى هذه اللحظة ، جاءت قذيفة حطمت مدفع دبابتى الرشاش وتناثر فى الهواء ، ولم أعد أذكر ماذا حدث ، فقد كنت أشبه بمن يكون فى سحابة من الضباب . ثم احسست أنى قد أصبت ، ورأيت شيئا من الدم . والغريب أن ذلك مدنى بشعور بالأمن .. لقد رأيت الدم على يدى فأنا على الأقل استطيع أن أرى ،

وكان ذلك هو أهم شيء عندى . وفى داخل الدبابة لم يكن أفراد الطاقم يعرفون اننا قد أصبنا ، وطلبت باللاسلكى الجندى الذى يعبىء الذخيرة وسألته عما اذا كان يمكنه وضع قذيفة فى المدفع ، غير أنه لم يستطع ، اذ كانت ماسورة المدفع قد انبعجت . وفى اختصار ، فان كل الأسلحة التى كانت لدينا لم يبق منها شيء .. لا المدافع الرشاشة .. ولا المدفع .. ولا حتى بندقيتى الأتوماتيكية من طراز (كلاشـــنيكوف) . لقد أصبحت مجردا من السلاح ، ولم نعد نستطيع الا أن نقوم بدور المراقب، بل حتى هذا الدور لم يكن سهلا . وفى بطء تراجعت الى الوراء بدبابتى، وكانت ميزتنـا الكبرى ـ التى كانت فى الوقت نفســه فى غير صالحنا اننا كنا نسبح فى بحر من الدخان والنار . لم يكن فى الامكان التمييز بين دباباتنا ودباباتهم ، ولم يكونوا هم قادرين على التحقق منا. ولو انهم كانوا فى حالة تجعلهم يعرفون حالتنا ، لما تمكنا من النجاة .

« وعند ذلك تلقيت رسالة من قيادتى ، من القائد (أوزى) يقول فيها انه فى الطريق نحونا ومعه سبع دبابات ، فأمرت قائد احدى دباباتى بالاقتراب منى وكلفته باخلاء الجرحى وسحب دباباتى . كنت خائفا من اضطرارى الى ترك واحدة من دباباتنا فى ارض المعركة .

« ثم اننا كنا فى حالة صدمة سيئة ، لأنهم « هم » كانوا متفوقين علينا ، ومع ذلك فلقد كنت مقتنعا أنه عندما يأتى (أوزى) بتعزيزاته ، فسوف نكون قادرين على طرد السوريين . وعندما جاء ، صعدت الى دبابة أخرى ، ثم اشتبكنا فى القتال ، على أمـل أن نفتح ثغرة فى أرض العدو . ان هذا النوع من العمل ، يعيد الثقة الى النفس ، لأنك تشعر عند ذلك بأنك تفعل شيئا ما ، وبأن لك هدفا .. لقد كان كل شيء يمر سريعا حتى الآن ، اذ لم تمض عدة دقائق من اطلاق النار ، حتى كانت دباباتى قد أصبحت غير صالحة للقتال الواحـدة فى اثر الأخرى ، ومن ثم استولى على شعور رهيب بالعجز .

« غير أننا الآن نتقدم ، وها نحن نرى عرباتهم التى تحمل الجسـور تعبر الحفر ، فدمرنا منهــا اثنتين ، وعند ذلك أصبحنا فى مواجهـة مشاتهم . ومرة أخرى حـدث شيء غريب ، لم أدرك كنهه على الفور . كانت موجات المشاة تركض وتتسلق السواتر الترابية ، وكنا نحن قد

فتحنا عليهم النيران بمدافعنا الرشاشة وبأسلحتنا الخفيفة . وكنا نراهم يسقطون ، ثم ينهضون من جديد .. كان يبدو أنهم لا يعبأون بالنيران التى نطلقها عليهم ، بل انهم لم يحاولوا القيام بحركة التفاف، أو الهجوم من الجناح .. انما كانوا يهجمون مباشرة علينا ، كما فعلت دباباتهم ، ويزيحون بأقدامهم أولئك الذين يسقطون لقد كانت ميزتهم ، انهم جموع من الرجال ..

« ان من أشق الأمور أن تقاتل دبابات بدبابة واحدة ، فأنت لا تعرف من أين يطلق عليك العدو نيرانه . ولم أكن أستطيع أن أرى غير مدرعتين أو ثلاث دفعة واحـــدة ، وكان عسيرا على أن أحتفظ بعينى مفتوحتين ، لأن الدماء كانت تسيل على وجهى . وفى كل بضع دقائق ، كان رجال طاقمى يعطوننى قطعة مبللة من القماش ، أمسح بها وجهى .

« غير أن شيئا ما كان يبث فى الشجاعة ، فقد جاءت شظيـة كبيرة وحطمت نظارة الميدان التى كانت معلقة على صدرى ، مدلاة من عنقى بشريط جلدى وعند ذلك تبادر الى ذهنى انها قد أنقذت حياتى . لقد حدث فى حرب الأيام الستة ، أن تلقى أبى شظية قذيفة فى المكان نفسه ، وكانت أيضا فى نظارته . ونحن نحتفظ بها فى بيتنا من قبيل الذكرى. كان ذلك ما انقذ حياته ، اذ خرج من الحرب سليما معافى . والآن ، فها أنا أيضا واثق من أن شـيئا لن يصيبنى .. غير اننى كنت حزينـا لفكرة ان وحدتى قد قضى عليها » .

وحتى هبوط الليل ، حاولت (دبابات بواز) احتواء تدفق الدبابات السورية ، التى كانت تنهمر على هضبة الجولان . غير أن كل موجة من الرجال أو المدرعات يمكن صدها ، كانت تحل محلها موجة أخرى ، تتابع تقدمها . وسقط العشرات من الرجال ، واشتعلت الدبابات ، ولكن غيرهم وغيرها كانوا يجيئون ..

وفى الليل ، انتشرت دبابات (بواز) على طول (طريق البترول) ، وفى الظلام لم يعد أحد يميز بين المدرعات السورية وغيرها . وعلى حين فجأة ظهرت على بعد سبعين مترا دبابة معادية فريدة ، انطلقت مندفعة نحو دبابة (بواز) الذى كان واقفا ، وقد أخرج رأسه من فتحة البرج .

وقال (بواز) :

« كانت الدبابة السورية ماضية فى طريقها نحو دبابتى بسرعة رهيبة ، فصاح جميع من معى : انتبه .. هناك دبابة متجهة اليك ! وكان شعورى ان السورى لم يتحقق من شخصيتى .. لقد خرج فجأة من منخفض من الأرض ، فأطلقنا عليه قذيفة أصابته ، بغير ان يقلل من سرعة دبابته . واستمرت هذه نحونا مباشرة ، كما لو كانت تريد أن تسحقنا سحقا . وكانت هـذه هى المرة الأولى التى أرى فيها مدرعة معادية على مثل هذا القرب . لقد سبق لى أن رأيت بعضها على بعد مئات من الأمتار ، بل رأيتها على بعد مائة متر .. أما هكذا ؛ الى درجة انى أميز بوضوح الرجل الواقف داخلها ، وأرى النظارات المقربة فيها ، والمح كل شىء ، فذلك لم يسبق أن رأيته قط ..

« وبدأت أطلق النار ، ولكنها ظلت سائرة . ان السوريين لا يقاتلون بينما رءوسهم خارج الدبابة ، انما يقبعون داخلها . وعندما أصبحت على بعد خمسة عشر مترا توقفت دفعة واحدة ، اذ اصيبت بقذيفة من احدى دباباتى . ومرت لحظة ذهول ، ثم انفتحت الدبابة السورية ، وقفز منها جنديان الى الأرض .. لكى تحصدهما نيران المدافع الرشاشة . لقد كانت هذه هى المرة الأولى التى يحدث لى فيها أن أقتل انسانا نقف أمامى ، وقد وقعت أنظاره على .. » .

* * *

يوم السبت .. الساعة السابعة والنصف صباحا .

استدعى قائد أحـد أسراب القوات الجوية الاسرائيلية ضباطه لحضور اجتماع قصير ، وكان يهم باعطائهم أوامره ،عندما انطلق أنين احدى صفارات الانذار ، فقطع عليه فجأة ما كان يهم به . وغادر ضباط السرب مقر القيادة على عجل ، واستقل الطيارون الذين جاءوا من قاعة الاستراحة مرتدين ملابس الطيران ، العربات التى اتجهت بهم فورا الى ساحة المطار . وفى عنابر الطائرات ، كانت الأطقم الأرضية قد أسرعت للكشف الدقيق على الطائرات .

وراح الجميع يتساءلون .. ما معنى ذلك ؟ .

لقد كان الجنرال بنيامين بليد الملقب باسم (بينى) والذى يتولى منصب القائد العام للسلاح الجوى الاسرائيلى ، قد أصدر منذ الساعات الاولى من ذلك اليوم الموافق عيد الغفران امرا باعلان حالة التاهب ، تمهيدا لاحتمال القيام بعملية وقائية ضد مصر وسوريا . لقد كان يجهل انه فى هذه اللحظة التى انطلقت فيها صفارة الانذار ، كان الجنرال اليعازر رئيس الأركان العامة يحاول أن يحصل — بغير جدوى كما رأينا — على التصريح بالقيام بتوجيه الضربة الأولى . لقد كان معروفا ان رئيس الأركان ، يؤيد تأمين المواقع الاسرائيلية عن طريق القيام بهجوم وقائى فى الساعة الثانية عشرة ظهرا ، بعد أن بدا أن الحرب واقعة لا محالة .

وفى اليوم السابق ، وقفة عيد الغفران ، كان عدد من طيارى أحد أسراب طائرات الفانتوم قد اجتمعوا معا للعب الورق ، وطالت جلسة اللعب حتى الساعات الأولى من الفجر .

وبعد ذلك بثلاث ساعات ، استيقظ الرجال على صوت رنين التليفون . ثم جلسوا بعد عشرين دقيقة وعيونهم لا تزال يداعبها النعاس ، فى الاجتماع القصير فى مقر القيادة . كان احتمال نشوب حرب قريبة قد زاد من حالة التوتر ، ولكن الطيارين سرعان ما التقوا فى (الميس) ، حيث جلسوا فى هدوء . ان الجلوس فى البار يخلق جوا من المرح ، غير أن صفارة الانذار ولولت فجأة . فأسرع الجميع نحو حظائر الطائرات . لم يكن احد يدرى ما يحدث ، الا أن الجميع كانت تسيطر عليهم فكرة واحدة وماذا لو حاولوا ضربنا على الأرض ؟ « ثم بدات اللعبة الكبرى » .

« كل فى طائرته ! » .

كان الأمر قاطعا ، واضحا ، محددا .

ويروى احد الطيارين .

« لقد حلقت عشرات من الطائرات المقاتلة ، لكى تحول دون وقوع هجوم على المنشآت وساحات الطيران . لم تكن نعرف بعد ان الحرب قد اعلنت ، ولكننا طرنا . وكان بعض رفاقنا ينتظرون ، وهم يدورون فوق ساحة المطار ، أن يحدد لهم أى هدف . وسرعان ما تبين أن القوات

الجوية المصرية والسورية بعد ان اجتازت الحدود ، كانت مهمتها مهاجمة المنشئات الأرضية ، ولكن ليس تدمير طائراتنا » •

« كان (ك) أحد رجال الاحتياط فى السلاح الجوى الاسرائيلى ، فى حالة تأهب منذ الساعات الأولى للحرب . ولقد كان طائرا ، عندما تم الاتصال به ، لالغاء مهمته .

ويروى هو ذلك فيقول :

« لقد قيل لى ان فى امكانى العودة الى القاعدة ، ولكن نظـرا الى ان خزاناتى كانت مليئة بالوقود ، فقد فكرت فى الاستمرار في الدوران قليلا ، وبعد بضع لحظات ، تلقيت تعليمـــات بالاتجاه نحو الجنوب الغربى : ان هناك هدفا غير محدد يتجه نحو اسرائيل ، ويجب رصده وبدأت مهمتى ، وفى خلال بضع دقائق لمحت بالفعل نقطة لامعة متجهة نحو تل أبيب وخطر ببالى انها طائرة استطلاع ، فقررت أن اقطع عليها الطريق . ان هذه اللعبة كانت أبطأ كثيرا من طائرتى، الأمر الذى جعلنى أصحح اتجـاهى • وأخيرا اقتربت منها • كان ضـوءها الأحمر مطفـأ ، وقد توقف محركها فجأة ، وبدأ جســدها يحلق ، تاركا خلفــه شريطا أبيض . وارتفعت فوقها للتعرف على حقيقتها ، ثم رايت شيئا غريبا : لم يكن بها طيار ! وعند ذلك أدركت أنها صاروخ من طراز « كيلت » • كان الصـــاروخ مدهونا باللون الاسود ، ويحلق فى اتجاه العاصمة الاسرائيلية . وخفضت الغاز ، وتهيأت لوضع الهدف فى متناول يدى جيدا . وبعد بضع مئات من الأمتار بدا لى أنه فى (مركز التصويب) تماما ، ثم أرسلت عليه وابلا واحدا قصيرا من الرصاص ، أصابه فى الصميم . دار الصاروخ حول نفسه ، وأخذ يهوى ، ثم تحطم فى البحر الذى ارتفع منه عمود عال من الماء » .

كانت الطائرة ، بغير طيار ، واحدا من الصواريخ أرض ـ جو ، وهو الأول من نوعه الذى يستخدم فى مسرح العمليات ـ وكان وزن شحنته الناسفة يتراوح بين ٧٥٠ ، ١٠٠ كيلو جرام ويغلب على الظن أنه أطلق من احدى الطائرات المصرية من طراز (توبوليف) . ومن المرجح انه أطلق من فوق بور سعيد ، وانه وجه نحو تل أبيب ، بهدف واضح هو بث الرعب بين السكان .

ولقد كانت اسرائيل تعرف بوجود هذه الأسلحة . غير أن تدمير هذا الصاروخ الأول من طراز (كيلت) يعود الى الصدفة المجردة ٠

وبالمثل ، فلقد تم بعدم اكتراث تقريبا اسقاط المجموعة الأولى من الطائرات المصرية فلقد كانت هناك دوريتان اسرائيليتان تطيران فى سماء منطقة شرم الشيخ ، عندما جاءت تسع طائرات من الميج والسوخوى المصرية لكى تهاجم فى موجات متلاحقة منطقة شلومو ، فدارت معركة على الفور سقطت خلالها سبع من الطائرات التسع ٠

ان الحرب قد فاجأت الكثيرين من الجنود الاسرائيليين فى الخطوط الأولى ، بالرغم من الأوامر التى أبلغت الى الوحدات العاملة منذ صباح عيد الغفران : لاعلان حالة التأهب العامة ٠

ويقول الجنرال حاييم بارليف: «لقد توصلت القيادة العامة صباح يوم السبت الى هذه النتيجة وهى أن العرب سوف يهاجمون الا أن هذا الاقتناع لم يبلغ بصورة فعالة الى الخطوط الأولى . فعندما بدأ العرب الهجوم ، كان بعض الجنود الاسرائيليين يغسلون ثيابهم ، وكان غيرهم يضعون فى أقدامهم (الشبشب) ولم يكن أحد يتصور أن الحرب على وشك الاندلاع . من هنا أثر المفاجأة التى أتاحت لأعدائنا أن يحققوا ـ فى فترة من الوقت ـ ذلك النجاح الذى كلف اسرائيل غاليا » ٠

عندما تبين أنه فى الوقت نفسه الذى تنهمر فيه نيران كثيفة من المدفعية على نقاط الدفاع الاسرائيلية كان المصريون يعبرون القناة ويدفعون بقوات محمومة بطائرات الهليكوبتر نحو قلب سيناء عند ذلك ارسلت الدبابات الاسرائيلية بمثابة تعزيزات الى الخطوط الاولى . لكن مفاجأة كانت هناك فى انتظارها : لا تقتربوا من خط القناة . ولم يفهم قادة الدبابات ذلك الذى يحدث لهم ، ولا ما أصابهم غير أن الأمر كان فى غاية الوضوح : فعلى بعد بضع مئات من الساتر الترابى ، كان عدد كبير من الدبابات الاسرائيلية يرقد معطوبا غير صالح للقتال ، وقع ضحية للمئات من الصواريخ المضادة للدبابات من طراز (ساجر) المحسن ، وأطلقت من قواعد بناها المصريون على الضفة الغربية ٠

وبعد ذلك ببضع لحظات ، هوجمت الدبابات الاسرائيلية من جديد

بنفس هذه الصواريخ اطلقت هذه المرة من الضفة الشرقية ، بأيدى الجنود المصريين الذين بدأوا يضعون فى هذه الضفة اقدامهم . ولسوف تظل أطقم الدبابات الاسرائيلية يذكرون جيدا ، ولزمن طويل ، هذا الاستقبال .

الغيت فى كتيبة مدرعات (باروخ شامير) المرابطة فى قطاع قناة السويس التصاريح منذ يوم الخميس ٤ أكتوبر . وكانت أغلبية المدرعات الاسرائيلية - كما هى الحال فى هذه الكتيبة منتشرة على الخط الثانى، أى على بعد سبعة كيلو مترات من الممر المائى .

ولقد تلقى باروخ الأمر بأن ينتقل الى الخط الأول ، ويحتل موقعا ملائما يمكنه منه أن يحول دون اقامة أى رأس جسر . ولكن وا أسفاه .. لقد وجد عشرات الألوف من المشاة المصريين يعبرون القناة على طول المائة والثمانين كيلو مترا . ويهبطون بالتحديد بين المواقع الاسرائيلية الحصينة شرقى القناة .

وما كادت كتيبة باروخ تتلقى الأمر حتى انتفضت تتحرك . كان أغلب رجالها قد صعدوا فعلا الى الدبابات ، ويقول باروخ : « كانت أكثر الأشياء التى اهتممت بها هى التزود بكميات كبيرة من الشطائر والملابس الداخلية وما يمكن أن يقرأ ، وذلك قطعا للوقت . كنت أشعر انى منطلق فى جولة ونزهة ، فحسبت أن يصيبنى خلالها شىء من الملل » .

الا أن باروخ وزملاءه سرعان ما تبينوا أن الأمر لم يكن أمر نزهة . لقد انطلقوا بدباباتهم بكل سرعة . واصبحوا الآن تحت نيران العدو - كان باروخ شامير الذى يسميه زملاؤه (وجه الطفل) فى الخدمة منذ عام ونصف العام ، كجندى يعمل فى قوات المدرعات . انه عامل للاسلكى فى دبابة قائد الكتيبة ، وكان فى هذا اليوم يعانى شيئا من المتاعب مع فتحة دبابته العليا التى لم تكن تريد أن تقفل جيدا . بيد أن هذا العيب الميكانيكى هو الذى سوف ينقذ حياته .

وبالقرب من البحيرة المرة الصغرى ، وغير بعيد عن المكان الذى تتصل فيه البحيرة بالقناة ، توقفت دبابة باروخ ، وبدأت فى فتح نيرانها .

كان الهدف ، على الأرض المواجهة لها ، هو المشاة المصريون ، وليس الدبابات واحس باروخ بالدهشة أكثر مما أحس بالارتياح .

وسأل قائده : « هل يحاولون القيام بعملية انتحارية أم ماذا ؟ لقد علمونا في مدرسة المدرسات أن مشكلتنا الأولى هي دبابة العدو .. وان مشكلتنا الثانية هي المدافع المضادة للدبابات وبعد ذلك فقط ، يمكن ان نلتفت الى المشاة » ..

وكلما فرغت أشرطة الرصاص في المدافع الرشاشة ، انطرح الجنود المصريون على كثبان الرمال مصابين . ومع ذلك فان الكتيبة الاسرائيلية عجزت عن احتواء الهجوم ، فقد كان العدو يجيء بأعداد كبيرة . والقى باروخ اغلفة القذائف الفارغة خارج الدبابات، وعند ذلك رأى النار تخرج من مدفعه . وفي اللحظة نفسها شعر بحروق رهيبة في ذراعيه . وبفضل برج الدبابة الذى لا يغلق ، فانه قفز على الأرض .

وهو يقول في ذلك :

« كانت دبابتي تشتعل ، وقد تفحم صندوق الشطائر . وقد ألقيت نظرة حولي ، فرأيت كرات من النار تتراقص في الهواء ، وتندفع نحو المدرعات . ولقد أدركت فيما بعد ان هذه هي الصواريخ . لقد سمعت الحديث عنها بكل تأكيد ، ولكنها لم تكن واردة في قائمة الأشياء التى نوليها الأولوية في اهتمامنا . وقضينا طول النهار نختبيء من كرات النار التى كانت تنطلق في الصحراء » .

واقترب باروخ وزملاؤه من مدرعتهم المشتعلة ، واخرجوا منها صفيحة الماء ، وفكوا المدفع الرشاش المركب في البرج ، وأخذوا القنابل اليدوية وقنابل الدخان . كانوا جميعا مصـــابين بحروق في أذرعتهم ، اذ كانوا قد شمروا أكمام أرديتهم غير القابلة للاشتعال .

وأضاف باروخ : « لقد كنا في غاية الارهاق ، فاختبأنا خلف أحـد كثبان الرمال ، ورحت أفكر طول الوقت أفكر في هذه الصــواريخ . كنت أجهل اسمها ، ولكننى كنت أعرف انها عندما تدخل المدرعة فانها ترفع درجة الحرارة الى الف درجة مئوية ، وهذه هي فعالية هذه الصواريخ . ان بقية الدبابات لم يكن لديها الوقت ولا الخط الذى اتيح لنا ، والى

ما وراء الكثبان رأينا النار مشتعلة فيها بعنف ، وكان الذين بداخلها هم زملاؤنا » .

وبعد ربع ساعة سمعت هذه المجموعة التى نجت صفيرا حادا عن الكوماندوز المصريين وفى ذلك يقول باروخ :

« لقد مروا بجوارنا ، على بعد لا يزيد عن خمسمائة متر ، فغرسوا علما مصريا فوق السد الترابى وكنت حتى هذا الوقت ، لم تسبق لى رؤية مثل هذا العدد الكبير من الجنود يعملون معا . وغادرنا مخبأنا بعد أن تركنا صفيحة الماء ، لأنه ما من واحد منا كان قادرا على حملها نتيجة لما بنا من حروق . وقد أمسك القائد بالمدفع الرشاش ، وحملت أنا شرائط الرصاص ، اذ كنا قد قررنا عدم فتح النار الا اذا هوجمنا . وكان قائد الدبابة لا يزال يحمل مدفعه الرشـــاش الصغير من طراز (أوزى) ، وكان اثنان آخران يحملان بعض القنـــابل اليدوية . وعبرت من فوقنا فى لحظة من اللحظات أربع طائرات (فانتوم) على ارتفاع منخفض » .

« والى يميننا كانت دبابة مصرية تحترق ، فتصورنا ان طاقمها قد لقــوا مصرعهم ، واذا بنا نرى قائد الدبابة يخرج منها ويركض نحــو الشرق . وفتحنا عليه النار فسقط على الأرض . وقد جرح سائق الدبابة المصرية أيضا ، وعلمت فيما بعد أنه استطاع أن يجر نفسه حتى وصل الى الطريق ، حيث حملوه . وعادت طائرات الفانتوم مرة أخرى ، ورأيناها تحاول الفرار من الصواريخ التى اطلقت عليها وبقينا بعد ذلك وحدنا ، وقرر القائد ان ننتظر هبوط الليل ، لأن المنطقة كانت مكتظة بالكوماندوز المصريين . وفى المســـــاء تسلقنا الى حوالى ثلثمائة متر ، فشاهدنا عددا من المدرعات الاسرائيلية على بعد حوالى كيلو متر ، وقد تعرضت المنطقة التى انتشرت فيها لنيران كثيفة من المدفعية . ومع ذلك فقد جرينا كالمجانين نحوها . ونحن نشير اليها فى اشارات خاصــة لتتعرف علينا ، فلا تطلق علينا النار . واخيرا رأتنا الوحدة الاسرائيلية ، وأرسلت دبابة لحمايتنا . لقد نجونا ! وها أنا جالس فى المؤخرة ، واشعر بألم فى يدى ، وأقول لنفسى بعد ما حدث لى ، أننى لن أدخل الى الأبد أى دبابة » ..

كانت اذاعة القاهرة قد أعلنت صراحة ساعة عبور القناة .

ففى الســـاعة الثـانية وخمس دقائق بعد الظهر ، بدأ الرجال يتدفقون ، فجاء فى المقدمة الجنود فى قوارب المطاط ، لكى يحتلوا اهم مواقع على الأرض الثابتة . ومن خلفهم جاءت فصائل مزودة بمدافع المياه ، ليشقوا فتحات فى الساتر الترابى بخراطيم ذات ضغط عال تأخذ الماء من القناة نفسها . وحاولت بعض نقاط الارتكاز الاسرائيلية الدخول مع هذه الفصائل فى معركة ، فدمرت بعض القوارب ، ولكن الأحياء ممن فيها بلغوا الشاطىء سباحة . وهنا وهناك كان يمكن مشاهدة الجثث عائمة على صفحة الماء ، ولسوف يظل هذا المشهد مما لا يمكن أن يمحى من ذكريات القتال على هذه الجبهة .

ولتغطية المشاة الذين عبروا القناة ، بدأت المدفعية المصرية عملها ، فراح الفان من المدافع من كل طراز وكل عيار تدمر الدشم الاسرائيلية ، والخنادق ، والهوائيات ، والمنشآت التى اقامتها اسرائيل .

وكان المصريون الذين يقتحمون الســـاتر الترابى شرقى القنـاة ، مجهزين بعتاد ثقيل ومتنوع فمنه المعاول ، والأقنعة الواقية من الغازات ، والآنية الخاصة بجمع ماء المطر ، والســواطير والجراية الشخصية ، والقنابل اليدوية والمواد الناسفة ، والذخيرة . وقد حملوا أيضا حقيبة صغيرة غريبة .. انها تلك الصواريخ الشهيرة من طراز (ساجر) .

ولقـد عبر أكثر من ثمانية آلاف رجل قنـــاة السويس فى الساعة الأولى . وبعد أربع وعشرين ساعة كانت خمس فرق مشـــاة ومدرعة مصرية تحتل المواقع بعرض خمسة كيلو مترات شرقى القناة فقطعت بذلك نقاط الارتكاز الحصينة فى خط بارليف عن مؤخرتها .

وفى تمام الساعة الثانية بعد الظهر انطلقت صفارات الانذار فى المدن الاسرائيلية وراح مئات الألوف المعـــابد ، يصلون الى الاله القادر أن يغفر لهم خطاياهم التى وقعوا فيها طوال العام الماضى . ان يوم عيد الغفران هو اليوم الوحيد من العام الذى تشل فيه حركة اسرائيل . فليس هناك اى محل يفتح أبوابه ، وليست هناك أية سيارة تجرى فى الطريق ، وليست هنـاك اذاعة ولا تليفزيون . ومع ذلك ، وهـــذا

أمر عجيب ، فمنذ فجر يوم ٦ أكتوبر ، توجـد حركة مرور كثيفة فى الطرق ، مما أثار حفيظة المتدينين . وزادت حركة السيارات ، واخذ المندوبون يبلغون رؤساء الكتائب والفصائل ، فيسرع هؤلاء الى تعبئة رجالهم . وذهبت العربات للبحث عن رجال الاحتياط فى بيوتهم لكى يرسلوا الى وحداتهم . وفى كل مكان رجال بثيابهم العسكرية ، وأحذيتهم العالية والحقائب على ظهورهم . وفى المعابد بدأت تعبئة الرجال الذين كانوا على وشك تأدية الصلاة . وفى الحى الدينى المعروف باسم (ميا شاريم) بالقدس ، شوهد حملة الطواقى المصنوعة من الورق ، يتحولون فى لحظات الى جنود .

وأخـذت الشائعات تنتقل ، نظرا لأن الاذاعة لا تعمل فى عيد الغفران ، فكان أثر قلة الأنباء قاسيا . وبالرغم من حالة التوتر التى اخذت تتضاعف ، فان الجميع تذكروا احداث يونية ١٩٦٧ . وراح البعض ينظفون المخابىء فى عماراتهم .

لكن جموع السكان ظلت مقتنعة بأن الأمر لا يعدو كونه تعبئة مفاجئة ليوم أو يومين .

فلما انطلقت صفارات الانذار ، فى ذلك اليوم من عيد الغفران ، اخذت اسرائيل كلها على غرة ، بينما هى سادرة فى طمأنينتها .

رأس سليمة ... خير من رأس ضخمة

في يوم الأربعاء ٢٦ سبتمبر ، وهو اليوم السابق لرأس السنة اليهودية ؛ كان المراسل العسكرى لصحيفة معاريف يقوم بجولة فوق هضبة الجولان . ومن محادثاته مع الضباط والجنود ، امكنه أن يخرج بنتيجة هى أنه انتقل من عالم السلام .. الى عالم الحرب . ففى صباح ذلك اليوم ، كانت القوات السورية المنتشرة على طول خط وقف اطلاق النار فى الجولان قد تلقت تعزيزات كبيرة . فقد انتقلت المئات من الدبابات الى المنطقة الشرقية من الخط ، كما اتخذت عدة مئات من بطاريات المدفعية الجديدة مواقع لها على المنطقة نفسها ، وبالمثل ، تم تعزيز مواقع الجيش السورى باعداد كبيرة من وحدات المشاة . وفى المؤخرة ، كانت هناك تجهيزات بالغة الكثافة من الدفاع الجوى ، تتكون من صواريخ ارض ــ جو من طراز سام من جميع الأنواع .

وقبل الظهر ، علم احد الضباط من الاذاعة ان الجيش السورى كله اخذ يحتشد على طول الحدود . أما القوات المدرعة السورية المرابطة فوق هضبة الجولان ، والتى لم تكن تضم سوى بضع عشرات من الدبابات ، فانها قد وضعت فى حالة تأهب .

ولما كانت الاجازات قد ألغيت ، وكانت السيارات التى جاءت الى الجولان لكى تحمل الجنود الذين كانوا سيقضون العيد فى بيوتهم قد عادت فارغة فان الرجال لم يستطيعوا اخفاء دهشتهم ، وراحوا يتساءلون : ما الذى يحدث ؟

وفى نفس هذه الساعة ، كان يعقد فى تل أبيب احتفال اشترك فيه كبار ضباط الجيش الاسرائيلى . فقد تلقى ضباط القيادة العامة من المنطقة الشمالية من المعلومات ما يتناول ما يجرى فى الجولان ، وعند ذلك سارعوا بالذهاب الى وحداتهم .

وحوالى الظهر ، وصل موشيه ديان وزير الدفاع الى الجولان . وفى رفقته الجنرال اسحاق حوفى قائد عام المنطقة الشمالية . وقام الاثنان بتفتيش الوحدات المدرعة والخطوط الاسرائيلية الأولى . وقدم ضباط الخطوط تقاريرهم الى الوزير عما لاحظوه فى الناحية الأخرى من خط وقف اطلاق النار . وفى نهاية الجولة ، وأمام كاميرات التليفزيون الأمريكى ، ادلى ديان بخطاب يهدف أساسا الى تهدئة الحماس الحربى لدى السوريين ، ثم اختتمه قائلا :

« اننى آمل أن يدرك السوريون الى أى حد مؤلم ستكون هزيمتهم مرة اخرى بالنسبة لهم . ومع اعتبار للعتاد العسكرى فى المنطقة ، لا يمكن القول بأن الموقف قد ازداد خطورة ، كما انه لا يمكن القول كذلك انه قد تحسن . ان الجيش والشعب فى سوريا كانت لهما دائما صفة التطرف » .

وهكذا أنذر الوزير سوريا لكى تتجنب اى بدء للأعمال العدوانية : خلال أيام عيد رأس السنة الثلاثة . والواقع أن الدوائر العسكرية الاسرائيلية لم تكن تنتظر على الاطلاق وقوع اية حوادث خطيرة خلال هذا العيد . ومع ذلك ، ومن قبيل الحذر ، فان القائد العام للمنطقة الشمالية قام بتعزيز قواته المدرعة فوق الجولان ، فأمر بنقل مجموعات من رجال الدبابات المرابطين فى الجنوب الى الشمال بالطائرات ، كما دفع الى الخطوط الأولى بعدد من المدرعات اخذها من قوة الطوارىء ، بالاضافة الى تعزيز وحدات المدفعية .

وفى نفس ذلك اليوم السادس والعشرين من سبتمبر ، نقلت صحف بيروت أن وحدات الجيش السورى قد احتلت الحدود على هضبة الجولان ، وان قوات كبيرة قد نقلت الى الحدود السورية الأردنية عند خط وقف اطلاق النار بين سوريا واسرائيل . لقد كانت مصادر المعلومات للصحافة اللبنانية دائما هى أفضل المصادر فى جميع الدول العربية ، لأنها هى الصحافة الوحيدة تقريبا فى هذه المنطقة من الشرق الأوسط التى توصف بأنها صحافة حرة ، ولأنها لم تخضع لأية رقابة ، فيما عدا الأنباء الخاصة بأمن لبنان .

واعتمادا على تقرير الموقف الصادر عن القيادة العامة للجيش الاسرائيلى فان المدنيين مضوا فى حياتهم اليومية المعتادة . ولم تتلق القرى المدنية فى الجولان اى تحذير كما ان المنطقة لم يحظر دخولها على السائحين . وطوال أجازة العيد ، كان الآلاف من الاسرائيليين يقطعون بسياراتهم الطريق المؤدى الى الجولان ، ويقضون عطلاتهم على بعد كيلو مترات قليلة من القوات السورية .

وفى يوم السبت ٢٩ سبتمبر ، وضع أحد المراسلين العسكريين فى اعتباره الزيارة التى قام بها وزير الدفاع للجبهة الشمالية ، وأراد أن ينشر الخبر التالى : « ان حدود الجولان برميل للبارود يمكن أن ينفجر فى اية لحظة ، فبعد فترة هدوء استمرت عدة أشهر، يبدو أن السوريين يريدون أخذ المبادرة للقيام بعمليات عسكرية ، خلال أيام عيد رأس السنة » .

ولكن هذا الخبر لم ينشر قط .

ويجب الا ننسى أن الانتخابات الاسرائيلية كان متوقعا لها أن تجرى يوم ٢٩ أكتوبر أى بعد ذلك بشهر واحد ، وبعث القلق فى البلاد قد يضر بالحملة الانتخابية التى تستند على الهدوء ، وعلى الحدود الآمنة ، والسياسة المستقرة ، البعيدة النظر .

وبالرغم من عدم وقوع أى حادث يعكر صفو عيد راس السنة ، فان التوتر لم يخف ، على طول خط وقف اطلاق النار بين سوريا واسرائيل ، وقد أعلن كثيرون من كبار ضباط الجبهة الشمالية رسميا

« ان التوتر خطير ، ومن غير المتوقع أن يهبط قبل أن يشرع الاسرائيليون في العمل » وأن هؤلاء الضباط يؤكدون « بأنهم لا يستطيعون الوقوف مكتوفى الأيدى ، بعد أن حشدوا كل جيشهم على طول الحدود » .

ولما كان المراسلون العسكريون فى تل أبيب قد تلقوا معلومات حول الحشود السورية فانهم حاولوا الحصول على ايضاحات عن مدلول هذه الحشود . وقال المتحدث باسم الجيش الاسرائيلى ردا على أسئلتهم ، ان المعدات السورية لها طابع دفاعى محض ، وانه فى جميع الأحوال لن يقع أى شىء .

وفى يوم أول أكتوبر ، عاد واحد من هؤلاء المراسلين ، كان بغير شك غير مقتنع بالتفسيرات التى أدلى بها المتحدث الرسمى للجيش الاسرائيلى عاد الى الجولان ، حيث أجرى حديثا مع ضابط اسرائيلى كبير . وقال الصحفى : انهم فى تل أبيب يرون أن الاستعدادات السورية لها طابع دفاعى ، وان الأزمة بعد أن وصلت الى ذروتها لن يحدث أى شىء .

فأجاب الضابط فى قوة :

هذا خطأ . ان الأزمة لم تصل الى ذروتها ، ولسوف يدهشنى اذا لم يشرع السوريون فى العمل .

كان ذلك هو آخر اتصال لذلك الضابط بالصحافة ، لأنه قتل فى ثانى أيام الحرب بينما كان على رأس وحدة مدرعة حاولت تعويق التقدم السورى .

وفى خبر آخر نشر فى نفس ذلك اليوم الأول من أكتوبر . كان احد المراسلين الحربيين يتحدث عن المعدات السوفيتية التى تسلمتها سوريا مؤخرا على وجه الاستعجال ، الا أن الخبر لم ينشر الا جزئيا ، بعد أن حذفت منه الرقابة الشىء الكثير .

وفى تلك الأثناء كان الحديث قد بدأ يتردد حول حشود ضخمة للقوات على الحدود المصرية . لم تكن مراكز المراقبة الاسرائيلية تستطيع ان تغفل ملاحظة ذلك النشاط غير العادى ويقول : (آثى يافيه) وهو جندى احتياطى من القدس كان يقضى فترة خدمته فى نقطة الارتكاز

الاسرائيلية عند القناة : « فى يوم أول أكتوبر ، سجلت تقارير مراكز المراقبة نشاطا كثيفا يجرى على الضفة الغربية . وقد وصلت قافلة من السيارات حاملة الصواريخ الى الاسماعيلية ، ومن خلف الساتر المصرى الذى كان يخفى عنا فى بعض مواقعه ما يجرى فى الناحية الأخرى ، سمعنا ضجيج الدبابات المعادية ، وكان بعض الضباط المصريين يعطون تعليماتهم الى رؤساء الوحدات فى الخط الأول . وكان ضابط برتبة المقدم يراقب مواقعنا بنظاراته المقربة ، وكان بعض الجنود يهبطون الى حافة الماء لأخذ بعض المقاييس ووضع بعض الأجهزة . وكانت بعض عربات البولدوزر تمهد الأرض لكى تعد لعبور الطريق المائى » .

وقد وصلت مثل هذه التقارير من مواقع اسرائيلية اخرى على القناة . وقد روى الملازم (دان بليج) وهو ضابط من السلاح الطبى انقذ بأعجوبة يوم ٩ أكتوبر واسره المصريون فيقول : « لقد لاحظنا منذ يوم ٢ أو ٣ اكتوبر تحركات غير عادية للقوات فى الناحية الأخرى للقناة ، انها حركات للمدرعات والعربات بأعداد لا يستهان بها . وفى ليلة واحدة أحصينا مائة عربة وضعت فى مواجهتنا . وقد وضعنا تقريرنا ورفعناه الى أعلى المستويات فى القيادة ، التى عينت بعثة خاصة للمجىء للملاحظة بدورها وترى تحركات القوات والعتاد والتى أشرنا اليها . وقد اختتمت هذه البعثة تقريرها بالقول : ان الأمر يتعلق بمناورات مصرية ضخمة » .

ويقول ضابط عظيم فى احد الفرق العاملة فى سيناء :

« لقد كنا نعرف ما يجرى فى الناحية المصرية واشرنا اليه فى تقاريرنا . كان الجميع يعرفون الموقف ، منذ شهر ونصف شهر ، وكنا نعرف ان قوات مصرية ضخمة قد تجمعت بالقرب من القناة . وخلال الأسبوع الذى سبق الحرب ، كنا قد رأينا عددا من العربات البرمائية فى الخط الأول ، ولم نكن قد لحظنا مثلها منذ قيام هذا الخط . وقد أشرنا الى هذه الوقائع فى تقاريرنا ، فاعلنت حالة التأهب ، بناء على أمر أصدره البير (الجنرال ماندلر) . وكانت استعداداتنا تتيح لأطقم الدبابات ان يكونوا جاهزين خلال بضع دقائق ، اذ كان الرجال يجعلون مدرعاتهم فى متناول أيديهم من الصباح حتى المساء ، كما كانوا ينامون وقد ارتدوا ثياب الميدان والأحذية العالية . **واذا كنا لم نرسل تعزيزات**

الى الخط الأول ، فان ذلك حدث لأننا لم نكن نمتلك أية تعزيزات » ؟

وبينما كانت الصحف اللبنانية تؤكد بتوسع كافة الملاحظات التى سجلت فى الخطوط الاسرائيلية الأولى ، أجرى أحد المراسلين العسكريين حديثا مع الجنرال ماندلر ، وسأله :

ـ ما الذى يحدث غدا .. لو ان المصريين عبروا القناة ؟

ـ سوف توقفهم قواتنا فوق قناة السويس ـ وفى مثل لمح البصر ، سوف تدور الحرب على الضفة الغربية .

وبعد فترة من نفس هذا الحديث ، أفلت من ماندلر ما يدل على شعوره بالقلق وهو ما أخفاه وراء هدوئه الظاهرى ، اذ قال :

ـ « وعلى أية حال .. فاننى سوف أسلم قيادتى صباح يوم الأحد .. فاذا أقيم الاحتفال الخاص بنقل السلطة ، كان معنى ذلك أن كل شىء على ما يرام .. أما اذا لم تتم اقامة هذا الحفل ، فكن على ثقة من أن الموقف فى غاية الخطورة » .

أما الحفل الذى كان الجنرال ماندلر سيسلم فى نهايته قيادته ، فانه لم يتم على الاطلاق .

وفى يوم الجمعة ٥ أكتوبر ، وفى الصباح من ذلك اليوم ، رفع الى الرقابة نبأ حول النشاط المصرى غرب قناة السويس ، فاذا بهذه الرقابة لا تسمح الا بفقرتين منه فقط : وكانت الفقرة الأولى تشير الى برقية لوكالة الأنباء المصرية (أ.ش.أ.) تعلن أن حالة الطوارىء قد أعلنت فى منطقة القناة ، وأما الفقرة الثانية فكانت تؤكد أن القوات الاسرائيلية تتابع عن قرب تطورات الموقف ، وأن جميع الاجراءات قد اتخذت لمنع المصريين من الافادة من عنصر المفاجأة .

وفى اليوم الذى خلع فيه الجنرال الاحتياطى حاييم بارليف نوبه العسكرى لكى يشغل مقعده فى الحكومة كوزير للتجارة والصناعة ، أدلى بتصريح قال فيه :

« ان ادارات المخابرات التابعة للجيش الاسرائيلى كانت لديها معلومات يعتد بها حول الاستعداد للحرب من جانب المصريين والسوريين ،

ولكن التقدير الذى وضعته هـذه المخـابرات هو الذى اتضح انه غير سليم . وانى أؤكد بكل مسئولية ، اننا كنا على علم تام بنوايا العـدو ، فقـد كانت لدينا مجمـوعة كبيرة من المعلومات التى تثبت أننا سـوف نتعرض للهجوم . اننى أعرف ان الجمهور يفكر فى أن هـذه الحرب قد فاجأت ادارات مخابراتنا ، ولكن ذلك لم يحدث . والحقيقة هى اننـا ظللنا الى يوم السبت صباحا (٦ أكتوبر) لا نريد أن نصدق امكان وقوع الحرب ، وفى هذا التاريخ فقط غيرنا من اقتناعنا » .

ويفسر الجنرال اسـحاق رابين الذى كان رئيسا لأركان الحرب الاسرائيلية خلال الأيام الستة ثم عين سفيرا لاسرائيل فى واشـنطون ، نفسر تغلب الرأى الذى كان يقول بأن الحرب لن تقع ، بالرغم من تلال المعلومات التى كانت تقول بعكس ذلك ، فى حديث أدلى به أمام مجموعة محدودة من المسئولين فى حزب العمل فقال :

« ان موشـيه ديان ، ورئيس هيئة الأركان ، ومدير المخـابرات العسكرية ، كانوا جميعا واقعين تحت نوع من (الحصار) كانوا أسرى لاقتناعهم العميق ولتصريحاتهم الخاصة . **كان المصريون بالنسبة لهم، « لا يستطيعون شيئا .. وكانوا عاجزين عن الدخول فى أى حرب وانهم حتى اذا دخلوا مثل هذه الحرب ، فانهم سوف يسحقون فيها بصورة لا قيام لهم بعدها** » ونتيجة لهـذا الحصـار أو الجمود العقلى ، فانهم رفضوا البديهيات التى قدمتها لهم ادارات المخابرات » .

ان من العسير على المواطن المتوسط أن يميز بين « المعلومات » .. وبين (تقـديرات الموقف التى تسـتند الى المعلومات) وهـذا التمييز الدقيق يحتاج الى شرح .

ان كل ادارة من أدارات المخابرات تقوم على جهازين :

الجهاز الأول يجمع المعلومات بفضل عملائه ، ونتيجة لتصنته ، ومما ينشر من مصادر موثوق بها على نحو أو آخر ، ومن الملاحظات ، ومن تلك الوسائل التى تتيح النجاح لأقلام الجاسوسية ، وأما الجهاز الثانى ، فانه يفحص وينسق تلك المعلومات ، بهـدف أن يجعل منهـا صورة تقريبية كاملة بقدر الامكان ، لنوايا العدو .

اى ان الجهاز الأول يجمع المعلومات ، والثانى يقوم بتحليلها .

وهاكم مثالا : لو أن مخابرات الجيش الاسرائيلى حصلت على بعض المعلومات الخاصة بكمية ونوع الصواريخ أرض ـ جو التى يسلمها الاتحاد السوفيتى الى كل من مصر وسوريا ، فان دور المحللين هو تقديم تقدير مضبوط للخطر الذى تشكله هذه الصواريخ ، ومدى عملها ، والوقت اللازم لكى تصبح داخلة فى العمليات . وذلك لكى يتاح لسلاح الطيران الاسرائيلى اتخاذ الاجراءات الملائمة ويقرر أفضل تكتيك لابطال مفعولها .

وقد يحدث كذلك أن يكون التقدير الذى يوضع للموقف غير مفيد . فاذا كانت المعلومات التى أمكن الحصول عليها واضحة وضوحا كافيا ، فان اى تحليل لها لن يفعل الا أن يزيدها تعقيدا . ان لدى المحللين فى ادارات المخابرات فى العالم أجمع ميلا ضارا للجدل والافتراض كما أن الاستنتاجات التى يستخلصونها كثيرا ما أضفت الغموض على الحقائق البسيطة التى تتضمنها المعلومات .

وفى هذه الادارات توجد كذلك الاختلافات فى وجهات النظر . وفى هذه الأحوال ، فان رؤساء المخابرات يقدمون الى المسئولين السياسيين فى البلاد ، ليس فقط التحليلات والتقديرات المتناقضة وانما يقدمون اليهم كذلك العناصر التى استخدمت فى التوصل الى هذه التقديرات . وعندئذ يكون من شأن المسئولين السياسيين أن يحسموا فى الأمر ، بعد أن يدرسوا ويقارنوا بين تلك المعطيات .

مثال :

« هل يريد الاتحاد السوفيتى حقا وصدقا ازالة التوتر فى علاقاته مع الولايات المتحدة أم ان الأمر مناورة سوفيتية تهدف الى تنويم يقظة الأمريكيين ؟ وهل يريد الاتحاد السوفيتى حقا نزع سلاح تدريجى ومتبادل ، كما زعم فى مؤتمر هلسنكى ، أم أن ذلك شرك ، ومحاولة للخداع ؟ » .

ان هذه المسألة الهامة التى نوقشت فى ادارة المخابرات الأمريكية ، قد أثارت اختلافات حادة . ونتيجة لذلك ، فان الرئيس نيكسون

ومجلس الأمن القومى لم يكتفوا فى هذا الموضوع الحيوى بالنسبة لسلام العالمى بطلب التحليلات والتقديرات التى وضعتها ادارة المخابرات المركزية من الموقف فقط ، وانما طلبوا كذلك كافة المعلومات التى توصلت اليها تلك الادارة ، ابتداء من التقارير الخاصة بصناعة الصواريخ والأسلحة النووية فى الاتحاد السوفيتى ، الى الصور التى التقطت من الأقمار الصناعية لقواعد اطلاق الصواريخ فى الأراضى السوفيتية الخ. .

وهكذا يمكن للجهاز التنفيذى الأمريكى أن يتخذ قراراته استنادا الى هذه الحقائق وليس فقط استنادا الى التحليلات .

وفى اسرائيل كذلك انفجرت بعض الخلافات أكثر من مرة بشأن موضوعات تتعلق بالعمل فى ادارة المخابرات . ففى مطلع الستينات ، قام خلاف اهتزت له ادارات الأمن . ذلك أن . . (أيسر هاربل) الذى كان يتولى يومها الهيئة المركزية للمخابرات والأمن كان قد جمع كمية ضخمة من المعلومات عن الصواريخ أرض ــ أرض التى حاول المصريون فى تلك الفترة صنعها بمعاونة بعض الخبراء الألمان . كان (هاربل) يزعم أن تلك الصناعة تعرض للخطر أمن اسرائيل ، وأنه يتعين العمل بأسرع ما يمكن ضد الخبراء الأجانب . وفى وزارة الدفاع ، كان هناك اقتناع بأن هذه الصواريخ غير هجومية ، ولا يمكن أن يكون لها أى تأثير على توازن القوى العسكرية بين الدولتين . وكان على دافيد بن جوريون ، الذى كان عندئذ رئيسا لمجلس الوزراء ، أن يختار وقد قدموا اليه المعطيات الأساسية الواردة من المصادر المختلفة ، ومعها الوثائق والتقديرات المتضاربة . وبعد دراسة للملف بأكمله ، أعطى بن جوريون الذى كان يجمع بين رئاسة الحكومة ووزارة الدفاع تفويضا كاملا الى (ايسرهاربل) ليبدأ حملة ضد الخبراء الألمان .

ان الوكالة الرئيسية للمخابرات فى اسرائيل هى الهيئة المركزية للمخابرات والأمن . ومنذ عام ١٩٦٧ ، تغير اسمها وأصبح : « هيئة المخابرات والمهام الخاصة » وهى معروفة أكثر باسم « موساد » ومنذ قامت دولة اسرائيل ، فان هذه الهيئة تضم الفروع المختلفة للمخابرات وادارة الجاسوسية الاسرائيلية ــ أما ادارة مخابرات البوليس ، وادارات مخابرات الجيش أو مخابرات وزارة الخارجية ، فهى تعمل منفصلة ، ولكنها جميعا تتعاون مع « الموساد » .

ومع ذلك فانه فيما بعد حرب الأيام الستة ، احتل فرع المخابرات التابعة لقيادة الأركان العامة المكان الأول ، وذلك بفضل الذى كان يومئذ على راسها ، وهو الجنرال اهارون ياريف انه فى الثالثة والخمسين ، ومولود فى ليتوانيا ، وقد أحرز مجدا كبيرا خلال حرب الأيام الستة ولعلنا نذكر أن المعلقين والخبراء العسكريين فى العالم أجمع قد كشفوا عما قامت به ادارة مخابراته فى حرب عام ١٩٦٧ . بل ان عددا من هؤلاء الخبراء ذهبوا الى حد وصفها بأنها «أفضل ادارة مخابرات فى العالم» ، وان الفضل يرجع اليها فى النصر العظيم الذى احرزته اسرائيل فى حرب الأيام الستة .

ولما كان نشاط (الموساد) سريا للغاية ، وكذلك شخصيات عملائها فان رئيسها الجنرال ياريف قد أصبح أشهر شخصية فى ادارة المخابرات الاسرائيلية ، كما انه اكتسب فى العالم شهرة (ساحر الجاسوسية) .

وفي مقال كتبه زيف شيف المراسل العسكرى لصحيفة ها آرتس الاسرائيلية عن شخصية الجنرال ياريف يوم ١٥ فبراير ١٩٧١ ٠ قال : « ان فرع مخابرات الجيش الاسرائيلى قد اقتطع لنفسه مكانا هاما به لانه الادارة الوحيدة التى نجحت فى وضع نظام للتحليل والتقدير متطور ومحنك وفى خلال بضعة أعوام ، فان هذا الفرع قد خرج من النطاق العسكرى البحت ، فكان طبيعيا أن ترتفع تحليلاته الى المستوى الاستراتيجى ، ويتضمن بالضرورة تطور الخطط السياسية والاقتصادية والسكانية والعلمية لدى العدو . وبينما كانت ادارة الأبحاث بوزارة الخارجية الاسرائيلية تقف جامدة ، كانت ادارة المخابرات العسكرية تطور أقسامها المختلفة ، وسرعان ما ازدادت سلطتها وأصبحت ادارة المخابرات الأولى فى اسرائيل . وقد وصلت اقسامها المختلفة تحت رئاسة ياريف الى أوج نشاطها ، ويكفى لادراك ذلك ، أن نقارن بين عدد المرات التى دعى فيها الجنرال ياريف لتقديم تقاريره الى مجلس الوزراء والى لجنة الأمن بعدد المرات التى دعى فيها رؤساء الادارات الأخرى الى نفس هذه الأجهزة . لقد كان من شأن أسلوب العمل الذى يتبعه موشيه ديان أن سهل بروز ياريف ٠ ذلك أن ديان ، على عكس من

سبقوه مثل دافيد بن جوريون وليفى أشكول ، كان يتيح لرؤساء أركان الحرب ولرؤساء المخابرات ولغيرهم من كبار الضباط أن يقدموا انفسهم وان يغرضوا تقاريرهم أمام الأجهزة الحكومية والبرلمانية . وفى هذا الصدد فان ديان اكثر تحررا من الذين سبقوه فى وزارة الدفاع » .

ويتبين من هذا المقال انه بينما كانت الموساد تقتصر فى عملها على الحصول فقط على المعلومات ، كانت مخابرات الجيش تضيف الى ذلك اعمال البحث وتقدير المواقف . وبمعنى آخر فان دور اعداد التقديرات يقع بصفة خاصة على عاتق فرع المخابرات التابعة لأركان حرب الجيش وقد ترتب على ذلك أنه بينما كان هذا الفرع موضع نقد كما حدث بعد حرب عيد الغفران ، فان كلمة واحدة لم تصدر عن (الموساد) ، ومن هنا يمكن الافتراض بأن هـذه لم يكن لها أى دور فى مسـئولية أخطاء التقدير .

وهذا الأسلوب الذى جعل اختصاص تقدير المواقف على مستوى الأمن القومى من حق المخابرات العسكرية بدلاً من أن تختص به أجهزة مستقلة فى الموساد أو غيرها من ادارات المخابرات قد استقر فى اسرائيل خلال السنوات العشر التى تولى فيها قيادتها الجنرال ياريف .

ونتيجة لذلك كان ينشأ فى بعض الأحيان وضع غير سـليم ، لأن التقدير الذى تعده المخـابرات العسـكرية ، له طابع خاص يجعله يميل الى اعطاء الأفضلية للاحتياجات العسـكرية ولرأى الضباط الكبـار ، والتقليل من اهمية وجهات نظر اجهزة الدولة الأخرى . وكثيرا ما حدث ان كانت سياسـة اسرائيل الخارجيـة تتحـدد نتيجة للاحتياجات العسكرية ، بدلا من أن يكون الجيش مجرد اداة للسياسة .

وفى دولة مثل اسرائيل ، حيث مشـكلات الأمن خطيرة وحيوية ، فانه قد يكون من الأفضل أن يكون الجهاز المسئول عن تحليل المعلومات مستقلا عن الادارات التى يقتصر عملها على الحصـول على المعلومات . ولو ان ذلك قد حدث عشية حرب عيـد الغفران ، لكان تقـدير الموقف متلائما بصورة أفضـل مع المعلومات التى كانت فى حيـازة الجيش عن العدو ونواياه .

لقد شهدت الدولة اليهودية مثل هذا القصور فى تاريخها . ذلك ان حكومة اسرائيل بالرغم مما لديها من أجهزة مخابرات متعددة ، كثيرا ما أخذت على غرة فى مجالات ذات أهمية قصوى . ان المفاجآت التى تعرضت لها اسرائيل من جانب الارهاب الفلسطينى تشكل فى حد ذاتها فصلا كاملا الا ان أحداثا أخرى مثل قيام الجمهورية العربية المتحدة بين مصر وسوريا وحل هذا الاتحاد وقيام مصر بغزو اليمن وخروج الخبراء السوفييت من مصر فى صيف عام ١٩٧٢ . كل هذه كانت مفاجآت لحكومة اسرائيل . ومن هذه المفاجآت ايضا قيام جمال عبد الناصر بحشد قواته فى سيناء عام ١٩٦٧ . وبمعنى آخر فان المخابرات العسكرية الاسرائيلية قامت مرتين خلال ست سنوات بوضع تقدير للموقف يتسم بالاستخفاف بخطورة الوضع — بالرغم من أنها تميزت منذ بدأت الأعمال الحربية بقدرة وفعالية .

ولقد ضربت اسرائيل صفحا عن الفشل الاستراتيجى للمخابرات العسكرية تحت قيادة الجنرال ياريف ، بعد النصر العظيم الذى أحرزه الجيش الاسرائيلى عام ١٩٦٧ . فقد اعتبرت جميع المحاولات التى بذلت فى تلك الفترة للتشكيك فى مفاهيم المخابرات العسكرية ، بمثابة تنكر لها . كان الجنرال ياريف قد أصبح وكأنه موضع الوحى أو (الآلة الالهية) فى العالم الغامض للمخابرات والأمن . فلقد كان بما فى حوزته من معلومات سرية ، وبما يعرفه من أسرار ، وما كان يجيده من عرض الأدلة بطريقة بليغة يصيب من يتحدث اليه بالذهول ، اذ كان يضيف الى تأكيداته مساندة الوثائق والخرائط والصور ، ببرود الرجل الذى يثق بما يقول . وكان من شأن الشهرة الشخصية للجنرال ياريف ، التى تعاظمت بعد أن أصبحت المخابرات السرية الاسرائيلية شيئا أسطوريا فى جميع أرجاء العالم ، أن أصبح هو ذا حظوة لدى رئيسة الوزراء ، ومرشحا لأحد المناصب الوزارية فى حكومة حزب العمل .

وابتداء من اللحظة التى خلع فيها الجنرال ياريف الزى العسكرى لكى يكرس نفسه للعمل السياسى ، وانقطعت عنه بالتالى تلك المصادر السرية فى المخابرات ، فان ظهوره وسط الجماهير — فى نطاق الحملة

الانتخابية لحزب العمل ـ لم يكن له نفس التأثير القديم . انه لم يعد هو بنفس (ياريف) السابق القوى ، ياريف الذى كان يخرج الأرانب من قبعته . لقد تحول الى ما يشبه (كيسنجر الإسرائيلى) ؛ وهى التسمية التى أطلقتها عليه جولدا مائير بنفسها .

وعندما ترك منصبه كرئيس للمخابرات العسكرية ، أجرت معه (اذاعة الجيش الاسرائيلى حديثا جاء فيه) :

سؤال : هل نحن اكثر معلومات عن العرب ، مما لدى العرب من معلومات عنا ؟

جواب : اعتقد ذلك .

سؤال : لقد ادعت بعض الصحف فى الخارج انه كان هناك تسيب فى ادارات المخابرات الاسرائيلية . ماذا تقول فى هذا الشأن ؟

جواب : اقول انه لا يجب أن نهتم بما تقول الصحف فى الخارج ، وأن نصدق ادارات مخابراتنا .

سؤال : ما هى الآثار الرئيسية بالنسبة لاسرائيل ، نتيجة لرحيل الخبراء السوفييت عن مصر ؟

جواب : فى رأيى ان الآثار الرئيسية عسكرية وليست سياسية . فانه نتيجة لرحيل الروس يضعف الجهاز العسكرى المصرى ـ وخاصة فيما يتعلق بالدفاع الجوى ـ كما أن امكانية مصر على الدخول فى أعمال حربية جديدة قد قلت على الأقل فى المستقبل القريب .

لقد حل محل الجنرال ياريف ، على رأس المخابرات العسكرية ، الجنرال الياهو زيرا (ايلى) وهو صديق حميم لموشيه ديان . وزيرا وافد جديد على المخابرات ، فعندما اندلعت حرب عيد الغفران ، لم يكن قد انقضى عليه فى عمله الجديد سوى عام . وفى مثل هذا الوقت القصير ، فان أكثر الرجال عبقرية لا يمكنهم أن يزعموا فيه انهم ادخلوا تجديدات كبيرة وبالفعل فان زيرا تسلم العمل ، كما تركه ياريف بعد تسع سنوات .

ان مؤيدى ياريف يزعمون انه لو لم تكن ادارة المخابرات العسكرية قد تغيرت من يد الى أخرى ، لما حدث ما حدث يوم عيد الغفران . اقد كان ياريف يثبت قدراً كبيراً من الحذر فى المواقف الخطيرة - كذلك الموقف الذى نشأ فى أعقاب حشد الجيوش العربية على حدود اسرائيل - وكان يصر على اتخاذ الاجراءات التى من شأنها الوقاية من الاحتمالات المتطرفة . لقد كان زيرا خلال ثلاث سنوات ، قبل أن يعين ملحقا عسكريا فى سفارة اسرائيل بواشنطون ، مساعدا لياريف على راس المخابرات العسكرية . غير أن شخصية كل منهما تختلف من شخصية الآخر . فالجنرال زيرا من أولئك القادة ، الذين اذا عرفوا كافة المعطيات عن مشكلة ما ، فانهم لا يتشككون فيها قط طالما أن التقدير النهائى بشأنها قد تم . وتنوع المراكز التى شغلها حتى ذلك الوقت فى الجيش الاسرائيلى ، لم تكن تتيح له أن يتعمق فى معرفة البلاد العربية .

ولم يكن التغيير الذى حدث فى قيادة المخابرات العسكرية هو التغيير الوحيد الذى تم فى الجيش خلال الأعوام الأخيرة ، فالجيش الاسرائيلى بأكمله قد اجتاز أزمة لم تترك أى فرع فيه . لقد رأى التكنوقراطيون فيه أن أهميتهم تتعاظم ، على حين كانت أهمية الفلاسفة والمفكرين والذين يتولون العقائد العسكرية تنخفض . وبعد حرب الأيام الستة ، التى اتضح خلالها أن قوات المدرعات هى أهم سلاح فى الجيش ، ارتفع نفوذ ضباط المدرعات . فكان من الطبيعى والأمر كذلك ، أن يجىء بعد اسحاق رابين رئيس هيئة الأركان العامة خلال حرب الأيام الستة ، رجال من المدرعات ، من أولئك الذين يرتدون البريهات السوداء ، أمثال الجنرال بارليف والجنرال اليعازر . ومن هنا فان نفوذ (أصحاب النظريات العسكرية) - وهذه هى التسمية التى أطلقت فى الجيش على بعض الجنرالات مثل اسحاق رابين وماتاتيا وهوبيليد واسرائيل طال وابراهام تامير ، هذا النفوذ بدأ يتقلص تدريجيا .

لقد تطورت الأساليب ، وأصبحت عمليات التسلح شيئا يتسم بالحذلقة والتكلف . لقد ارتفع المستوى التكنولوجى ، وحلت الأجهزة الالكترونية محل الفكر الانسانى . غير أن العقل الالكترونى ليس كالخيال

سواء كان ذلك فى الجيش ، أو فى اى مجال آخر من مجالات النشاط البشرى . وقد أعرب أحد كبار الضباط عن ذلك بقوله :

« ان العقل لا بأس به .. ولكنه وحده لا يكفى .. اذ لابد ايضا من وجود الادراك » .

وبينما كانت المخابرات العسكرية الاسرائيلية تنام مرتاحة لبعض الوقت على الغار الذى حصلت عليه فى حرب الأيام الستة ، كان المصريون يبذلون أقصى طاقتهم من أجل تحسين مخابراتهم ولقد قدموا مثالا مذهلا خلال حرب عيد الغفران عن التقدم الذى أحرزوه . ذلك ان الجيش الاسرائيلى كان قد أعد ، على احتمال وقوع حرب ، بعض الخرائط وعليها بعض البيانات مكتوبة بالشفرة . وكان قادة الوحدات والجنود الإسرائيليون يستخدمون هذه الرموز لتحديد موقع أو الاشارة الى نقطة محددة على أرض المعركة . وقد اكتشفت اسرائيل فيما بعد وقف اطلاق النار ، فى سيناء وفى غرب قناة السويس ، خرائط مصرية وعليها جميع الأسماء الشفرية الاسرائيلية .

لقد كان الرئيس المصرى جمال عبد الناصر متأثرا أبلغ التأثر بالمستوى الرفيع لادارات المخابرات الاسرائيلية خلال حرب الأيام الستة وقد روى محمد حسنين هيكل رئيس تحرير صحيفة الأهرام المصرية الشبيهة بالرسمية فى أحد فصول كتابه عن الهزيمة العربية عام ١٩٦٧ ما يلى :

« لم يستطع الرئيس عبد الناصر الذى تحطم قلبه من جراء الكارثة التى كان يعتقد أنه جرها على بلاده ، أن يتخلص من تعطشه الى ان يعرف ما حدث . وفى احدى المرات قضى ليلة كاملة فى أحد مكاتب أركان الحرب ، لكى يستمع الى تسجيلات للمؤتمرات الصحفية التى عقدها الجنرالات الاسرائيليون المنتصرون . فقد أخذ أولئك الرجال يروون للعالم ، بينما نظارات الميدان فى أيديهم وهم وقوف فى الجبهة ، وأحذيتهم معفرة بالتراب ، كيف استطاعوا ابادة الجيش المصرى . كان الجنرال اسحاق رابين قائد عام الجيش الاسرائيلى ، والجنرال مردخاى قائد عام القوات الجوية ، وقادة القوات المدرعة طال وبافية وشارون،

كانوا يروون تفاصيل انتصارهم وتفاصيل هزيمته هو ، هزيمة عبد الناصر . ولقد ملأت هذه الروايات قلب الرئيس المصرى بالحزن ، ولكنه كان مصرا على أن يعرف ، وقد عملت جميع المصادر الدبلوماسية وادارات المخابرات المصرية بكل طاقتها للمساعدة فى الحصول على تفسير لما حدث . وقد نقلت هذه المخابرات كل ما قيل فى اسرائيل كلمة كلمة ، وعرضت الدول المحايدة معونتها فى هذا الصدد ، فجرى فحص للصحف الاجنبية ، وتجمعت أكداس مذهلة من المعلومات ؟

ولقد تعلم عبد الناصر كيف يعترف بأهمية المخابرات فى أى حرب، ثم بدأ يتحدث عن (الحرب العلمية) ، وأمر باعادة تنظيم ادارات المخابرات على أسس مختلفة تماما . وتعلم المصريون كذلك ، كيف يتحققون من المعلومات التى تقدمها اليهم مخابرات الاتحاد السوفيتى .

ويتحدث هيكل فى كتابه عن السبب الذى جعل المصريين ، فى رأيه ، يقعون فى شرك (ضباب الحرب الاسرائيلية) فيقول :

« ان من المهم بمكان أن نلاحظ أن نجاح ضباب الحرب الاسرائيلية كان راجعا فى جانب كبير منه ، الى المعلومات الواردة الى مصر من الدول الصديقة فى الكتلة الشرقية . فقد اقام الاسرائيليون حسابهم — وهم لم يخطئوا فى ذلك — على أن مصر سوف تصدق أكثر مايصلها من معلومات من الكتلة الشرقية ، أكثر مما تصدق المعلومات التى تصل من الكتلة الغربية ، وعند ذلك سرب الاسرائيليون الى الشرق معلومات زائفة . ومن التقارير التى رفعت الى المشير عبد الحكيم عامر قادمة من السفير المصرى فى بلغاريا ، ما أشار الى أن مصادر دبلوماسية فى صوفيا أكدت له أن اسرائيل سوف تستخدم عددا من السفن التى ترفع العلم الليبيرى ، لكى تقوم يوم ٢ يونية ١٩٦٧ . بهجوم على شرم الشيخ ، وذلك بالتنسيق مع هجوم بالمدرعات فى جنوب سيناء . ولم يشك المصريون فى هذه المعلومات ، فسمحوا بالفعل للسفن الليبيرية بالدخول وفضلا على ذلك فان التقرير كان يحدد أن الهجوم الأصلى المتوقع له يوم ٢٧ مايو قد تأجل بناء على نصيحة من الولايات المتحدة » .

لقد اثبتت حرب عيد الغفران أن ادارات المخابرات المصرية قد قطعت خطوة كبرى الى الأمام منذ عام ١٩٦٧ . الى جانب تعزيز تعاونها

مع المخابرات الأخرى ، سواء فى الاتحاد السوفيتى أو فى الدول العربية . ويقول الأسرى الاسرائيليون فى حرب عيد الغفران والذين عذبوا فى سجن القاهرة المركزى ، أنهم قد تعرضوا بعد عودتهم لاستجوابات متكررة . وكانت الأسئلة التى وجهت اليهم تتناول كافة مجالات الحياة فى اسرائيل ، وليس فقط المجال العسكرى فيها . وقد طلب من أولئك الأسرى الرد على صيغ مكتوبة باللغة العبرية تتضمن أسئلة عن المشكلات الاجتماعية فى اسرائيل ، وعن علاقات القوى بين الأحزاب المختلفة .

ويتعين الا ننسى انه حتى هذه الساعة ، فان ادارات المخابرات الاسرائيلية لا تزال متفوقة على المخابرات العربية المماثلة . ولا يزال فى الامكان القول بغير اى تحيز ، ان المخابرات الاسرائيلية تعتبر من أفضل المخابرات فى العالم . فمن العسير تفسير فشلها فى حرب عيد الغفران ، بغير الافتراض بأنها أصيبت على نحو ما بالأزمة التى هزت — منذ حرب الأيام الستة — جميع مجالات الحياة والمجتمع فى اسرائيل .

وخلال العام الذى سبق حرب عيد الغفران ، رددت الصحف العالمية ما حدث من تسيب فى ادارات المخابرات الاسرائيلية . وهكذا فان جريدة (فلتفوشة) السويسرية كتبت فى شهر سبتمبر ١٩٧٢ . بعد مصرع الأبطال الاسرائيليين فى الألعاب الأولمبية بميونخ تقول :

« أين كان عملاء الأمن الاسرائيليون عندما تسلل الارهابيون العرب الى الحى المخصص للفريق الأولمبى الاسرائيلى ؟ وكيف أمكن لعميل مثل (صدوق أوفير) ان يقع فى شرك المغاربة بكل هذا الغباء ؟ وما الذى جعل العاملين فى سفارة اسرائيل بلندن يهملون كل هذا الاهمال فى معالجة البريد ؟ ولماذا لم يتمكن عملاء المخابرات الاسرائيلية من الدخول الى منظمة أيلول الاسود ؟ ان المخابرات الاسرائيلية التى كانت يقظة فى الماضى والتى كانت تحدث الخوف لدى العرب ، تجتاز اليوم أزمة خطيرة ؟ » .

وفى يوم ١٨ سبتمبر ١٩٧٢ تناولت مجلة (نوفيل أوبزرفاتير) الفرنسية نفس المسألة فقالت :

« ان الجمهور فى اسرائيل يطرح عدة أسئلة .. فللمرة الأولى

يجد رؤساء الادارات السرية أنفسهم عرضة لمناقشات مريرة داخل المقاهى فى شارع (ديزنجوف) .

وفى نفس المقال ، قالت المجلة الباريسية تعليقا على حادث بروكسل ، الذى أصيب فيه « صدوق أوفير » وهو أحد أعضاء موظفى سفارة اسرائيل فى العاصمة البلجيكية بجراح خطيرة من طلقات مسدس فى احدى مقاهى بروكسل حيث ذهب للالتقاء بأحد العملاء :

« ان ما ليس معروفا ، هو أن (صدوق أوفير) يمثل فى اسرائيل « الموساد » أى المخابرات الاسرائيلية ؟ وكشفت المجلة عن انه منذ نشبت الازمة بين الجنرال ديجول واسرائيل عام ١٩٦٧ ، أصبحت بروكسل تحل محل باريس بوصفها مركزا للجاسوسية الاسرائيلية فى أوروبا .. وان دور (أوفير) هو القيام بالاتصال مع بعض المخبرين العرب . وكان الذى أطلق عليه النار واحدا منهم ، اسمه السرى « رباط » .

وقد وصفت (نوفيل أوبزرفاتير) الحادث بانه خطير .. وقالت « وربما يكون أكثر خطورة بالنسبة للمخابرات الاسرائيلية من مذبحة ميونيخ . فقد ثبت بالفعل ان الفلسطينيين يعملون فى ميدانين : لديهم مجموعات الكوماندوز الأسطوريين ، كما حدث فى ميونيخ ، ولديهم أيضا من يقوم بالاعتداء على العملاء الاسرائيليين فى الخارج » واختتمت المجلة مقالها بأن الحادث الذى وقع فى بروكسل قد أصاب المخابرات الاسرائيلية بضربة خطرة أصابت سمعتها الأسطورية فى الصميم .

وبعد ذلك بأربعة أشهر ، أى فى شهر يناير ١٩٧٣ خر (جوزيه أنطونيو) ـ وهو فى الحقيقة العميل الاسرائيلى باروخ كوهين ـ خر صريعا فى وضح النهار وفى شارع رئيسى فى مدريد . ووفقا لما قالته الصحف ، فانه كان قادما للالتقاء بعميل فلسطينى .

وحتى فى اسرائيل ، كان كثيرون يجسرون على توجيه النقد الى المخابرات ويطرحون هذا السؤال : « ما الذى جرى للمخابرات ؟ » . ان أحدا من المسئولين لم يأخذ على محمل الجد التحذيرات التى كانت تجىء سواء من اسرائيل أو من خارجها . ولم تكن اللجنة البرلمانية

للشئون الخارجية والأمن ، أو الحكومة ، او رؤساء قوات الأمن ، او اية هيئـة ، لم يكن أحد من هؤلاء جميعـا يجرؤ على أن يعترض على تصرفات ادارات المخـابرات الاسرائيليـة .. أو يعترض على سـلسلة فشلها .

كانت هـذه الادارات الحيـوية بالنسبة للدولة اليهودية فوق كل نقد ، كما كانت كذلك بدورها أجهزة الأمن الأخرى . انها كانت بمثابة « الأبقار المقدسة » .

وقد قال فى ذلك الجنرال الاحتياطى (يهوشافات هاركابى) الذى كان بدوره مديرا للمخابرات العسكرية .

« ان هنـاك قواعد تلعب دورها لدى رؤسـاء المخـابرات ، فهم مقتنعـون تمـاما بأن النزاع الاسرائيلى العربى ليس هو بالمشـكلة الرئيسية . وقد اتفقت الحكومة والمعارضة على الخروج .. باستنتاجات خاطئة عن الموقف فى الأراضى المحتلة . وبالمثل فان الجمهور قد تولد لديه رأى يقول انه اذا كان الموقف فى الأراضى المحتلة مرضيا ، فان ذلك قد يؤدى الى السـلام . وهم يقولون : « لقد اعتقدنا أن الصـورة الايجابية التى لدى العرب عنا ، سـوف تأتى بالسـلام . ومن العسـير بمكان بالنسـبة لرجل المخابرات أن يخـالف المفاهيم المسـتقرة فى اداراته . وبالتالى فان اسرائيل كانت مقتنعة عمليا ، ان النزاع العربى الاسرائيلى قد فقد خطورته » .

والى هذا الاقتناع بأن الجمود يؤدى الى السلام ، اضيف اول عمل اخرق ، الا وهو التقدير الخاطىء للموقف عشية حرب عيد الغفران . ثم جاء عمل أخرق آخر ، هو التبعية المتزايدة لاسرائيل بالنسبة للولايات المتحدة . وكان هذا الوضع ـ الذى عكسـته تصريحـات جولدا مائير عندما أكدت ان الولايات المتحدة هى حليف اسرائيل الكبير ـ هو الذى حدا بالوزراء الى الاعتقاد بأنه فى حالة قرب وقوع الحرب ، فان التدخل الأمريكى يكفى لمنعها .

كانت جولدا مائير مقتنعة بذلك اقتناعا تاما ، فقد قالت بنفسها ان اول شيء فعلته صباح عيد الغفران عندما علمت بأن الحرب ستندلع

فى الساعة السادسة ، فأبلغت كينيث كبتنج السفير الأمريكى فى تل أبيب بما لديها . وفى حديثها معه - ولم يكن كبتنج يشغل منصبه الا منذ بضعة اسابيع - ناشدته ان يطلب التدخل من جانب حكومته لدى كل من موسكو والقاهرة ودمشق لايقاف الهجوم المنتظر .

ولقد أبلغ كبتنج ذلك الى الدكتور هنرى كيسنجر ربما دار من حديث مع جولدا مائير ، فاستدعى وزير الخارجية الأمريكى الدكتور محمد حسن الزيات وزير خارجية مصر ، الذى ادعى انه لا يعلم شيئا عن النوايا المنسوبة الى حكومته حول بدء أعمال عدوانية ضد اسرائيل. وبفضل الحديث الذى دار بين كيسنجر والزيات ، فان أعداء دولة اسرائيل قد علموا فى هذه الساعة ، ان اسرائيل تعلم بما يخططون له .

كان كل شيء يحمل على الاعتقاد بأن اسرائيل لم تفعل ، بطلب هذا التدخل ، الا أنها قد ضاعفت من أثر الكارثة ، ذلك ان ساعة الصفر قد حددها العرب بالساعة السادسة مساء ، وكان الاسرائيليون قد استندوا على هذه المعلومات لكي يصدروا قرار (التأهب الدفاعى) للقوات المسلحة . غير أن التحذير الذى أرادت اسرائيل توجيهه الى مصر وسوريا عن طريق الولايات المتحدة قد فعل كما يفعل السلاح الذى يرتد فيصيب صاحبه ، اذ ان القاهرة ودمشق وموسكو قد استنتجت أن اسرائيل على علم بمخططاتها ، وانها تستعد للحرب ، فقدمت ساعة الصفر الى الثانية بعد الظهر .

كان الانتظار هذه الساعات الأربع ذا اهمية حيوية قصوى بالنسبة لاسرائيل ، فى تلك الظروف التى كانت سائدة فى ذلك اليوم من عيد الغفران .

أهو حصن من حصون الله؟

في الليلة الواقعة بين يومى ٦ ،٧ أكتوبر ، قررت هيئة الأركان الاسرائيلية عمل احصائية لمجموع مواقع الخط الحصين ، الواقع على طول قناة السويس . كان واضحا الآن للرؤساء العسكريين ، ان المصريين قد نجحوا فى عبور الممر المائى على طول امتداده ، وان قواتهم قد تغلغلت بضعة كيلو مترات داخل سيناء . وكان معروفا كذلك انهم اقاموا جسورا من العوامات ومن العربات البرمائية السوفيتية ، وفوقها أخذت مدرعاتهم تهدر نحو رءوس الجسور فى الضفة الشرقية . كانت هناك أمور لا بأس بها معروفة عن المصريين ، أما المواقع الاسرائيلية ، فكان موقفها كله مجهولا . ولقد بدا فى ذلك الوقت أن العدو لم يقرر القيام بهجوم حقيقى نحو الشرق داخل سيناء . كان موقع اسرائيلى واحد قد تم احتلاله بعد أن هوجم ، وهو واقع فى المنطقة الشمالية على شريط ضيق من الأرض بين مستنقعات القناة . أما المواقع الأخرى ، فقد بدا أنها صمدت للهجوم وصدته .

ان المواقع الاسرائيلية الحصينة تقوم على بعد عشرة كيلو مترات كل منها من الآخر ، وقد احتل المصريون ما بين كل موقع وآخر ، وهم على ثقة من ان الدشم لن تلبث أن تسقط كالثمرة الناضجة . وفى المساء ،

واجهت القيادة العسكرية العليا الاسرائيلية هذا الاحتمال بصفة جدية . واذا كانت أجهزة الاتصال فى القيادة العامة قامت بمتابعة التحركات داخل المواقع الحصينة المرتبطة بصفة دائمة بالشبكة ، فانها لا تسمح باعطاء فكرة صادقة عن الموقف .

وصاح واحد من الضباط المكلفين بالعمليات فى جهاز الاتصال :

ـ ماذا يحدث هناك ؟

فأجابه راديو الموقع :

ـ انك تحسن صنعا لو أصغيت .

ونقل جهاز الاستماع صوت طلقات المدافع الرشاشة ، وكان عدد من الجنود المصريين فى تلك اللحظة داخل أحد المواقع الاسرائيلية ، وقد حاول المدافعون عنه وهم فى داخل الدشمة احتواء الهجوم .

وفى ذلك المساء ، كانت الأفضلية المطلقة معطاة للعمليات الخاصة بتخليص الوحدات المحاصرة ، نزولا على ما يقضى به تقليد قديم فى الجيش الاسرائيلى من عدم التخلى قط عن الرجال داخل أرض العدو . وكذلك كانت عملية اخلاء الموتى والجرحى بالنسبة للجندى الاسرائيلى واجبا مقدسا . وكان الرجال المحاصرون هذه المرة ما يقرب من الخمسمائة ، وقد احتموا جميعا داخل الدشم على طول القناة ، بينما كانت التقارير تقول ان بينهم عددا كبيرا من القتلى .

ومنذ الساعات الأولى من القتال ، اندفعت دبابات فرقة سيناء المدرعة تجاه الخط المتقدم عند القناة ، وقد تمكنت من الوصول الى بعض المواقع . وهكذا نجحت وحدة منها فى الوصول الى نقطة الارتكاز فى القنطرة ، وكان فى هذه النقطة حتى الآن أربعة قتلى وكثير من الجرحى .

وطلب قائد الموقع أن يصرح له بالارتداد بكل رجاله ، ولكن طلبه رفض ، وقيل له : « القتلى والجرحى فقط » .

لم يكن أحد قد أدرك بعد مدى اتساع التغلغل المصرى وأهميته الاستراتيجية .

وفى أماكن اخرى كانت عمليات تخليص المحاصرين باستخدام المدرعات عسيرة ، فقد كان هناك ستار حقيقى من الصواريخ المضادة للدبابات يطلق من الجانب الآخر من الساتر الترابى ، فيحول دون وصول المدرعات الى المواقع .

وبعد ذلك بوقت ، وصل الجنرال جونين الى الموقع الحصين الذى كان معدا ليستخدم بمثابة قيادة عامة لسيناء فى زمن الحرب ، كما استقر الجنرال ماندلر بدوره فى موقع متقدم للقوات المدرعة . وكان الموقف كما تعرضه خرائط أركان الحرب ، يشير الى ان ما يقرب من خمسمائة دبابة قد اشتبكت بالفعل فى معركة فى الخط الأول ، وهى تبذل جهودا يائسة لتخليص الوحدات المحاصرة فىالحصون الاسرائيلية .

وسرعان ما أدركت القيادة العامة أن الخسائر ستكون فادحة : فقد تمكن العدو من ابادة أربعين دبابة اسرائيلية وعربة مصفحة ، بينما كانت تحاول اخلاء موقع محاصر صغير ، كما أباد وحدة اسرائيلية كانت تحاول انقاذ ثلاثين رجلا .

وقال أحد الضباط :

« اننا قد نتمكن من الوصول الى الموقع ، ولكننا سنتعرض للانعزال عن فرقتنا ، وسنكون بغير دبابات » .

ولم يحسم مصير الوحدات المحاصرة الا بعد ظهر يوم الأحد ، عندما جاء الجنرالان شارون وآدان الى موقع القيادة المتقدم . فقد اقترح شارون تخليص المواقع الحصينة بفتح ثغرة فى الخطوط المصرية باستخدام مائة دبابة يأخذها من قواته . وأمر الجنرال آدان من جانبه الجنود الذين يحتلون الدشم فى قطاعه الخروج منها بوسائلهم الخاصة. وقد تمكن بعضهم من ذلك ، وقد تغلغلت بعض الدبابات فى خطوط الأعداء ، ثم لحقت بالقوات الاسرائيلية داخل سيناء .

وبدا موشيه ديان يكون لنفسه فكرة محددة عن الموقف ، واقترح حله بالطريقة التالية :

« ليس أمامنا الآن أن نختار . ان الذين يستطيعون الفرار عليهم

ان يفعلوا ذلك ، اما الآخرون فعليهم البقاء داخل الدشم » . انه قرار رهيب ، ولكن ماذا كان يمكن عمله غير ذلك

وسمع الجنرال شارون فى مقر قيادته صوت راديو خط بارليف وهو يتوجه اليه مباشرة : « لقد أحسسنا بالخوف .. وكنا نقول ان .. ولكن الآن وانت هنا .. فنحن نعلم أن كل شيء سيكون على ما يرام .. انك ستعمل على تخليصنا .. أليس كذلك ؟ » .

وصمت شارون . انه واحد من أولئك الذين أسسوا هذا التقليد المقدس فى الجيش الاسرائيلى : تحريم ترك أى مقاتل أو أى جريح فى أرض العدو . وفى خلال حرب الاستقلال عام ١٩٤٨ ، وكان شارون يومئذ شابا ، اشترك فى معركة النطرون . وخلال هجوم على مركز للبوليس ، وجد نفسه محاصرا فى أرض العدو ومعه المجموعة التى يرأسها ، وكانت رصاصة قد اخترقت فخذه وبطنه . وتلقت المجموعة الأمر بأن تقاتل وهى تنسحب ، وأن تترك وراءها الرجال الذين لا يستطيعون السير ، وعند ذلك ظل مكانه وهو يأمل فى وقوع معجزة تنقذه . وقد وقعت المعجزة بالفعل ، فان أحد رجاله حمله على كتفه وإبتعد به ، أما الجرحى الآخرون الذين بقوا مكانهم ، فقد قتلوا جميعا، ومنذ ذلك الوقت ، وضع شارون مبدأ مقدسا ، هو أن « الرجل الذى يعرف أن زملاءه يعرضون حياتهم للخطر من أجله ، لا يعرف الخوف من القتال قط » . غير انه فى ذلك اليوم ، الأحد السابع من اكتوبر ، لم يعرف كيف يفسر لذلك الموقع الذى حاصره المصريون، لماذا لا يستطيع الجيش الاسرائيلى أن يفعل له شيئا .

وفى نفس ذلك اليوم ، وصل الملازم (ايجال) وموطنه (ريشون صهيون) بعد عدة مغامرات على رأس وحدته ، الى المحور الذى يعبر المنطقة الواقعة بين (الطاسة) و (بالوظة) . وهو يقول فى ذلك :

« لم تكن لدى تعليمات محددة ، كما لم تكن هناك تعليمات كذلك لدى قائد اللواء ، فلم يكن أمامى الا أن أعتمد على نفسى . ومن بين الدبابات الثمانى التى كانت لدينا عند بدء مسيرتنا ، بقيت معنا ست فقط . وقد ضللنا طريقنا فعلا ، ولم نعد نعرف مكاننا بالنسبة لخط

بارليف ، أو بالنسبة للعدو . وقد صرحت بذلك عدة مرات لقائد اللواء ، ولكنه رد على قائلا :

ـ « لا توجه أية أسئلة .. فلست أعرف شيئا أكثر مما تعرفه ؟ »

« وعند ذلك سمعت أصوات انفجارات ، كانت هذه هى المدفعية المصرية . وفى نفس الوقت شاهدت كتلا سوداء فى الأفق : كانت هذه هى الدبابات المعادية . وعلى يسارنا بعض الدبابات من طراز (سنتوريون) التى حطمتها الدبابات المصرية . ولكى لا نظل على غير معرفة بالمكان الذى نحن فيه ، أخذنا نطلق النار على المدى البعيد . وعند ذلك أدركنا أن تصويبنا لا يصل الى نقطة الصفر ، فتسقط قذائفنا على مقربة منا . وغيرنا وضعنا بغية تحسين التصويب ، وفجأة شاهدت ست دبابات اتجهت مدافعها نحو الشمال .. فهل كانت هذه دبابات مصرية ؟ وقال لى قائد دبابتى :

ـ « انك تطلق النار على قواتنا ؟ » .

« وهنا صرخت لكى تعطى لى تعليمات باللاسلكى ، فقال لى القائد ان اطلق النار ، فعدلت وضعى مرة أخرى للتوصل الى افضل زاوية للضرب ، ومن القذيفة الأولى دمرت سيارة نقل مليئة بالجنود . وابتداء من هذه اللحظة توقف جهاز اللاسلكى معى عن العمل ، ولما لم يكن لدى جهاز اضافى ، فاننى اضطررت أن أخوض القتال وحدى . وسمعت انفجارات هائلة فى ناحية الفردان ، غير بعيد عن الموقع الحصين . كانت البقعة زاخرة بالمدرعات ، وأدركت اننا محاطون بالأعداء . كانوا كثيرين كثيرين .. الى حد أنهم بدوا فى كثرة الصينيين . لقد كانوا يخرجون من كل مكان ، من الخنادق ، ومن خلف التلال . ولم يكن أحد قد أبلغنا اننا سوف نقاتل ضد قوات المشاة . وبعد أن أطلقت وابلين من رصاص مدفعى الرشاش ، اذا بالمدفع يتوقف معطوبا . وخيل الى أن استخدام المدفع الكبير ليس من الحكمة فى شىء ولكنى اضطررت أخيرا أن ألجأ اليه ، وعند ذلك طالبت من المدفعى فى دبابتى أن يعطينى عددا من القنابل اليدوية . وبعد الهجوم الذى كان يقوم به المشاة المصريون ، كان جنودهم يبدون كأنهم أصيبوا بالخبل والصم ، وكأنهم لا يدركون

ما يجرى حولهم . ووقع بصرى على مدفع من مدافع الميدان عنـدهم موضوعا فى أحد الخنادق، فتمكنا من سحق أحد العاملين عليه ، وسمعنا صرخاته . اما الرجل الثانى فقد استطاع الفرار . كانت التلال مكتظة بالجنود المصريين الذين يركضون فى كل اتجـاه ، بغير هدف محـدد ، فبدوا كأنهم عش ضخم من النمل . كانوا يتجهون الى اليمين ، ثم الى اليسار، ويتقدمون ، ويتراجعون، ثم يسقطون وقد حصدتهم النيران. وفجأة ، جاء صـاروخ من طراز (سـاجر) طائر فى اتجـاه الدبابة السنتوريون التى كانت الى يمينى . لم يكن لى أى اتصال بها ، فلم أكن أستطيع أن انبهها طالما ان اللاسلكى لم يكن يعمـل عنـدى . وصمـ كالمجنون عندما صدمها الصاروخ فى صميمها ونفذ منها ، فرأيت قائد الدبابة ينقذف من برجها وقد تناثر جسده ، ثم توقفت الدبابة دفعـة واحدة . وهنا استولى على الفزع ، فأخذت أعطى سائق دبابتى اوامر متناقضة : «الى اليمين .. الى اليسار .. الى الامام .. الى الخلف؟ »

« كنت عاجزا عن النطق، فرحت أعطى أوامرى عن طريق المدفعى، الذى كنت اضربه بقدمى . وكنت أسمع رصـاص المدافع الرشاشـة تصطدم على جانبى دبابتى ، وبعد قليل عثرنا على الدبابات الست التى لم أكن قد استطعت معرفة شخصيتها . والآن وقد أصبحت تطلق النار علينا ، فانى تبينت حقيقتها : انها دبابات مصرية . ورددنا على النار بالمثل ، وأصبنا ، واذا بها تصبح خمس دبابات . وفجأة برزت وراءنا عربة ضخمة من طراز (س ى ١٠٠) وهى مدمرة للدبابات ، تسير فى حماية عدد من المشاة المصريين المسلحين بالمدافع وبقاذفات الصواريخ . وقد أصبناهم على بعد خمسة عشر مترا بأن ألقينا عليهم مجموعة من القنابل اليدوية ، فتفرقوا وتبعثروا ، فرحنـا نتـابعهم لنسحقهم . وخلال ذلك كانت الدبابات المعـادية الخمس مسـتمرة فى ضربنا ، فأدرت مدفعى فى اتجاهها ، وكان لدى فى ماسورة المدفع قذيفة مضـادة للدبابات ، وأمرت باطلاق النـار ، وكان مدفع دبابتى يتهيأ للمناورة ، عندما مرت احدى دباباتنا من طراز (سـنتوريون) عنـد طرف مدفعى بالضبط ، فرفعت طرف المدفع الى السماء بكل سرعة ، فخرجت القذيفة فى الهواء . وصاح المدفعى :

ــ « ايجال .. هل جننت ؟

فرددت عليه قائلا :

ـ « عليك أن تقرأ صلاة النجاة » .

ـ « لقد تلقينا قذيفة فى البرج » .

فصحت قائلا :

ـ « هذا لا شىء ؟ يجب تعديل زاوية الضرب » .

ـ « هـذا مسـتحيل .. لا يمـكن تحريكه .. لقد أصيب بطلقة مدفع » .

كنت أعرف ان هذه هى النهاية . كان عامل اللاسلكى قد انخلع مقبضـه ، ومع ذلك استطاع أن يضع فى ماسورة المدفع آخر خمس قذائف ، فقلت للسائق أن يتراجع الى الخلف بأسرع ما يمكن ، وخلال هذه المناورة استعملنا المدفع الرشاش . واخيرا عثرنا على قائدنا ، وكان جريحا ، وكذلك كان قائد اللواء ؟ » .

وعند محور الاسماعيلية ، كانت عدة وحـدات اسرائيلية مدرعة مشتبكة فى قتال يائس مع القوات المصرية .

وكان (اسحاق) وهو شاب من تلك القوة ، داخـل دبابته التى يقودها رئيس الفصيلة ، عندما تلقى اللواء الأمر بالهجوم .

ويقول اسحاق :

« لم أكن أعرف على بعد كم كيلو مترا من القناة كنا نسير ، عندما أصيبت دبابتنا . وكان علينـا أن ندخل فى اتصـال مع احد مواقعنـا الحصينة فى خط بارليف ، الا اننى لم أكن قد اسـتطعت اطلاق أول طلقة من مدفعى ، فقد اصيب الملازم فى برج الدبابة ساعة أن أصبنا ، وقد رأيته يلقى بنفسـه خارج الدبابة ، وسمعت صوت الكولونيل فى جهاز الاتصال . ولم يكن هو يسمعنا ، فأخلينا السنتوريون . ولم تكن معنا أسلحتنا الشخصية ، كما لم يكن معنا اناء للماء ، أو نقالة . كانت ساق الملازم قد تحطمت تحت الركبـة ، وكان يتألم . وقبل أن تنفجر دبابتنا ، سحبنا الملازم الى حوالى ثلاثين مترا ، وكان الليل قد هبط ، وكانت قذائف المدفعية المصرية هى وحدها التى تنير ما حولنا . وفجاة

ظهرت احدى دباباتنا، وهى تجرى متراجعة الى الوراء . وجرى مدفعى دبابتنا نحوها ، واذا بالدبابة تصاب بصاروخ وتنفجر .

وقلت للملازم : « ها هى واحدة أخرى تتحطم » .

وقد طلب منى أن أذهب به الى لقاء قواتنا ، فحملته ولكننى لم البث أن سقطت معه ، فقد خارت قواى . وعدت وحملته حوالى ثمانين أو مائة متر ، ثم شعرت انى عاجز عن التقدم أكثر من ذلك . فأمرنى هو قائلا :

ـ اتركنى هنا .. واذهب للبحث عن نجدة .

« وجريت فى اتجاه الشرق ، الى أن وقعت على مجموعة من رجالنا ، اضطروا بدورهم الى ترك دبابتهم . وسألونى أين يوجد الملازم، فقلت انه ملقى جريحا على أرض المعركة ، فقالوا : « يجب أن نعثر على دبابة لتذهب للبحث عنه » .

وبعد بعض الوقت التقيت بقائد لوائنا وصعدت الى دبابته ، ورويت له قصة الملازم ، واشرت الى المكان الذى تركته فيه ، فقال لى القائد بهدوء :

ـ سوف نخلى الجرحى أولا .. ثم نذهب لنقل الملازم .

كنت منبطحا على سطح الدبابة الخارجى واهرش فى ساقى ، عندما عثرت فى جيبى على ساعة يد الملازم ، كان قد اعطاها لى قبل ان أفارقه وقال :

ـ خذ هذه .. واعطها لزوجتى .

وهنا انخرطت فى البكاء . كانت المنطقة كلها قد تحولت الى جحيم حقيقى . ولقد عثرت بعد ذلك على وحدتى ، وعلمت ان قائد اللواء قد قتل ، بينما كان ذاهبا للبحث عن الملازم .

وفى القطاع الواقع جنوبى خط بارليف ، كان الاسرائيليون لا يزالون محاصرين داخل نقاط الارتكاز ، وكانت المدرعات المكلفة بتخليصهم فى وضع بالغ السوء . فبعضها قد احترق ، وبعضها الآخر قد تعطل . ان

الجيش الاسرائيلى لا يبدأ اية عملية الا بعد دراسة متعمقة للخسائر التى يمكن أن تسفر عنها . ان سقوط قتيل واحد ، يعتبر خسارة كبيرة . أما سقوط عشرة من القتلى . فهو شيء رهيب . لكن ها هم عشرات ترقد جثثهم فوق رمال الصحراء . لقد مات بعضهم محروقا وهو هي ، ومات آخرون وقد ضلوا فى الكثبان ، فانهم اما أن التقوا بوحدات معادية فماتوا على أيديها ، أو استسلموا لها .

ولقد تمكنت احدى الوحدات من الوصول الى احد مواقع خط بارليف ، بالقرب من بور توفيق وأمر قائدها قائد الموقع المحاصر أن يخليه مع رجاله ، وأن يلحق بالدبابات التى تنتظرهم على بعد أربعمائة متر من الخنادق الحصينة . كانت الأرض قد دكتها المدفعية ، وتتعرض لنيران مستمرة من الأسلحة الخفيفة . ورفض المحاصرون أن يخرجوا ، بينما أخذت مجموعة الدبابات تفقد عددا من رجالها وعتادها . وهنا غضب قائد المجموعة ، ولم يستطع أن يفعل شيئا ، فاصدر أمره بالقتال وهو يتراجع . ان الأمر لم يعد بالنسبة له بطبيعة الحال أن يدخل بور توفيق ، فان ذلك الشريط من الأرض الذى يفصل بينه وبينها كان مكتظا بالمشاة المصريين .

وفى يوم عيد الغفران ، كان (يوسى) الشاب الذى ينتمى الى (نحال) أى شباب الرواد المحاربين ، قد بقيت له مدة أسبوع واحد فى الخدمة ثم يسرح من الجيش . وكان الموقع الحصين الواقع على القناة يضم خمسة عشر جنديا فى نفس الدشمة ، يعملون تحت امرة أحد ضباط الصف برتبة العريف . وكانوا لا يعرفون بعضهم البعض جيدا ، فانهم جاءوا الى الموقع منذ ثلاثة أيام فقط . وفى حوالى الساعة الثانية بعد الظهر . رأى (يوسى) شيئا ما يطير متجها اليه ، فتصور فى البداية أنها قذيفة طائشة قد أطلقت خطأ . ومع ذلك فقد أبلغ العريف ، الذى قال له :

ــ هذا لا شيء .. وعلى كل حال فاصعد الى الساتر الترابى .

وفى هذه اللحظة نفسها سقط العريف على الأرض ، لقد تلقى رصاصة فى بطنه . وأسرع (يوسى) يرتقى الساتر ، فاكتشف وكله

ذهول مئات المصريين يتقافزون وراء الموقع ، وينطلقون للهجوم . وذلك الشيء الذى اعتقد (يوسى) انه قذيفة طائشة ، كان صاروخا .

وبعد ذلك بثلاثة أيام ، عندما استطاع أن يغادر الحصن ، لم يكن قد بقى من المائة جندى الذين كانت تتكون منهم القوة العاملة فيه سوى خمسة عشر رجلا . أما الباقون فقد قتلوا ، أو وقعوا أسرى .

غير أن المصريين لم يهاجموا بقوتهم الا فى اليوم الثالث من الحرب ، ومن هنا فان (يوسى) قد شهد المبارزة المروعة التى دارت بين المدرعات المصرية والاسرائيلية ، وقد وعدوه طوال يوم الأحد بأن يجيئوا لتخليصه ، وعندما ادرك أن كل شىء قد ضاع ، فانه قرر أن يهرب فى اتجاه الشرق . وفجأة رأى من فتحة الدشمة ماسورة احدى قاذفات اللهب ، ولم تمض سوى ثوان ، حتى تحول زملاؤه الستة الى رماد . وهنا جن من الرعب . فجلس منكمشا على نفسه فى أحد الأركان ، بينما كانت تصل اليه أصوات طلقات رصاص الرشاشات ، تقطعها الأوامر وهى تلقى باللغة العربية . وغادر الدشمة مع رفيق له ، فرأى فى ساحة الحصن سيارة جيب فيها جنديان مصريان قد أولياهما ظهريهما . وعندئذ قفز الشابان عليهما وخناقاهما ، ثم استوليا على السيارة ولاذا بالفرار .

وفى مساء يوم الأحد ــ اليوم الثانى للحرب ــ كانت المواقع الحصينة فى خط بارليف تنقصها الذخيرة . وفىالعدد الأكبر من الدشم ، كان يوجد الكثيرون من القتلى والذين أصيبوا بجراح خطيرة ، بينما كانت لا تزال تقاوم الهجوم المصرى . أما الدبابات الاسرائيلية التى حاولت أن تصل الى هذه الدشم ، لتخليص المحاصرين فيها ، فانها دمرت جميعا .

وتلقى ضباط المواقع المتقدمة الأمر بمغادرة مواقعهم ، وكان واضحا أنهم لا يستطيعون الاعتماد الا على أنفسهم ، وكانوا يعرفون ذلك .

ولم يكن (يانكليه) قائد موقع القنطرة قد بقى لديه سوى عشرة رجال قادرين على القتال ، أما الثلاثون الآخرون ومنهم عدد من أفراد الخدمة الدينية بالجيش كانوا قد وصلوا عشية عيد الغفران ، فانهم كانوا من الادارات المساعدة . وللوصول الى المكان الذى كانت تنتظرهم

فيه احدى الوحدات الاسرائيلية ، قرروا اقتحام الخطوط وهم يستقلون آخر عربتين مدرعتين. وفى نفس اللحظة أصابت قذيفة احدى العربتين، فلم يعد فى امكان الأربعين رجلا أن يغادروا المكان فى عربة واحدة .

ويقول (يانكليه) :

« عند ذلك قررنا الخروج سيرا على الأقدام ، بغير أن نحمل معنا سوى أسلحتنا الشخصية وأحد أجهزة اللاسلكى . وقرر خمسة من المصابين بجراح خطيرة أن يجيئوا معنا . وهكذا غادرنا الموقع فى ليلة الأحد ، بعد أن امتلأت القنطرة بالجنود المصريين ، وكنا نأمل أن نمر بغير ان يلحظنا أحد بالسير فى الأزقة المظلمة . كان ذلك من الجنون المطبق ، ولكن ما حدث أثبت أن خطتنا كانت ناجحة » .

وعلى بعد كيلو متر واحد من المدينة ، اذ بوحدة مصرية مدرعة واقفة تسد الطريق . ويقول (يانكليه) :

« لقد كنا قريبين منهم الى حد اننا كنا نلمس الشباك التى يستخدمونها فى عملية التمويه » .

وفتح العدو النار على المجموعة ، فتفرقت وتناثرت، ثم اصطدمت بعد بضع دقائق بكمين مصرى . وعندئذ صاح أحد رجال مجموعة (يانكليه) باللغة العربية :

ـ لا تطلقوا النار .. اننا مصريون !

وجاء صوت يقول :

ـ انهم يهود .. اقتلوهم !

وانهمر الرصاص فى كثافة ليس لها مثيل . ولكن المجموعة الصغيرة استطاعت أن تتراجع فى حماية أحدهم ، وتعود الى القنطرة ، حيث لاذت ببيت مهجور . ومن طريق جهاز اللاسلكى علم (يانكليه) أن مكان اللقاء قد تغير ، وبعد مغامرات أخرى تمكن العدد الأكبر من المجموعة من التسلل من المدينة .

ويروى (يانكليه) ذلك فيقول :

« غادرنا القنطرة من ناحية الشمال ، واستطعنا مرة أخرى ان ننجو ، فبعد أن تسلقنا جدارا ، وجدنا أنفسنا فى مقابر المسيحيين : وكانت قوانا قد خارت تماما ، فنمنا على الفور . وبعد ساعة أيقظت الرجال وأمرتهم بالمسير وقلت لهم : ان هذه هى فرصتنا الوحيدة .. ويجب أن نمضى مهما كلفنا الأمر .

وعند الفجر وصلوا الى مجموعة من الأشجار ، فقرروا الاختباء فيها . وراجع (يانكليه) موقفهم على الخريطة ، فوجد انه ليس هنالك سوى ثلاثة كيلو مترات ، حتى يصلوا الى مكان اللقاء . وكانت أضواء الفجر قد بدأت تطلع في الأفق . فقام اثنان من الرجال ، وتدثرا برداء دينى ، وراحا يؤديان الصلاة . ونهض الآخرون واحدا فى اثر الآخر . وانضموا الى الصلاة .

وبعد ربع ساعة برزت دبابة من طراز (باتون) اسرائيلية من الأفق . وهنا يقول (يانكليه) :

ـ لقد ظللت عدة ثوان وأنا أشعر بالدماء تتجمد فى عروقى ، ثم ادركت حقيقة الموقف . وعند ذلك صحت بكل قوتى : ها نحن أيها الرجال .. لقد نجونا ؟

لم يكن الموقع الذى تولى (يانكليه) الدفاع عنه هو الموقع الوحيد الذى تمكن الاسرائيليون من الخلاص منه بوسائلهم الخاصة . ففى نفس تلك الليلة ، كان عدد من الجنود الذين بقوا على قيد الحياة يسيرون فى اتجاه الشرق ، واختبأ اثنان منهم فى خندق صغير يقع على بعد حوالى عشرة أمتار من وحدة كوماندوز مصرية ـ وفجأة اذا بالجميع ينتابهم انفعال عنيف : ذلك ان طيارا اسرائيليا سقط من السماء بالقرب منهم . وكانت طائرته قد أسقطها صاروخ أرض ـ جو . وطوى الرجلان المظلة ، ووضعا الطيار الجريح فوقها ، وسحباه الى مكان أمين . ومن حولهم كانت المدافع الرشاشة تنطلق ، والمدافع تدوى . وقرر أحد الجنديين فى حالة يأس أن يخرج من مخبئه ، ويذهب للبحث عن نجدة فى مقر القيادة فى (البازولة) . وطوال اليوم التالى ظل الجندى الثانى

والطيار مختبئين فى احدى الحفر . وفى الليلة التالية ذهب الجندى للبحث عن نجدة ، وعندما جاءت وحدة من رجال المظلات الاسرائيليين للاستيلاء على الموقع ، لم يكن الطيار هناك .. لقد وقع أسيرا .

كانت مشكلة اخلاء جنود خط بارليف ، هى التى أرقت ضباط مواقع القيادة المختلفة ، طوال الأيام الثلاثة الأولى من الحرب . وكانت الرسائل التى يتلقونها ، بليغة كل البلاغة :

« ان ثمانمائة جندى مصرى يهاجموننا » .

وبعد بضع ثوان من الصمت ، يجىء نداء جديد باللاسلكى :

« انهم فى ساحة الموقع ، اننى مضطر الى التراجع الى الداخل ، وهم يطلقون النار علينا » .

وبعد ذلك بقليل يجىء الاتصال الأخير :

«انهم قريبون جدا .. ها هم قد وصلوا .. انهم يدخلون الحصن»

وفى المؤخرة ، وعلى خرائط القيادة ، تمتد ذراع لتضع خطا تشطب به الموقع الذى سقط . ويعلو البكاء والنحيب بين رجال الاستماع ، الذين تلقوا هذه الرسائل ، التى بعثت الاضطراب الثقيل، فيقطع الصمت الذى ساد موقع القيادة .

ويظل المحاربون فترة طويلة بعد ذلك ، يذكرون تلك الأصوات التى صمتت .

ولقد روى أحد العاملين باللاسلكى الاسرائيليين ما سمعه خلال الساعات التى أمضاها أمام جهازه ، فقال :

« اننى كنت أسمع صوتا ، انها رسالة .. ثم يكون الصمت .. وعندئذ كنت أقول لنفسى : هذا قتيل آخر .. لا تتعب نفسك بالحديث .. انه لن يجيب » .

كان ذلك هو الموقف فى مواقع خط بارليف ، وفى الوحدات التى كانت تحارب القوات المصرية على طول قناة السويس .

وطوال يوم الأحد كانت الهجمات اليائسة مستمرة ، ولقد دفعت الفرقة المدرعة الاسرائيلية العاملة فى سيناء ثمنا باهظا ، كلما كانت تحاول الاتصال بأحد المواقع الحصينة المحاصرة .

وفى خلال احدى الهجمات ، قرر قائد أحـد المواقع الحصينة بعد أن اتصل باللاسلكى بقائد لوائه ، أن ينتهز فرصة الليل لكى يغـادر الموقع ويلحق بوحدة المدرعات ، التى بذلت من جانبها كل جهدها لكى تصل حتى هناك . وناشد الكولونيل الجنرال قائد الفرقة لكى يصرح له بالاشتراك فى عملية انقاذ رجاله المحاصرين . ورافق اثنان من الضباط الكولونيل ، واتخذوا طريقهم لتنفيذ العملية . وبينما هم فى الطريق ، اذ بالتشكيل الذى يقودونه يتعرض لهجوم عنيف من جانب العدو .

وقد روى احد الجنود الاسرائيليين فيما بعد ما حدث فقال :

« لقد تعرضنا لستار من النيران لا يمكن وصفه : فقد انصبت من كل جانب الصواريخ ، ونيران الدبابات ، وقذائف المدفعية الثقيلة ، ورصاص الرشاشات . وقد تمكنا من شـق طريق لنا ، ولكن المعركة استمرت عدة سـاعات ، سقط خلالها عدد من الجنود المصريين تحت جنازير دباباتنا . وغير بعيد عن النقطة المتوقعة للاتصال ، وقعنا مرة ثانية تحت ستار من الحصار ، ففتحنا النار على المشاة . وقد احترق كل شىء من حولى ، وكان عدد من الرجال يصيحون ، وكان غـيرهم يقفزون من دباباتهم ، لكى يخلصوا زملاء لهم أصيبت دباباتهم » .

وأضاف الكولونيل :

« لقـد رأيت فجأة نوعا غريبا من الدبابات . كان حوالى ثلاثين رجلا قد تعلقوا بجوانبها ، وفوق أبراجها ، وفى كل جزء منها ، لقـد كانوا رجالى الذين كانوا داخل المعقل ، وقد خلصهم منه أحد ضباطى . وابتعدت هذه الدبابة العجيبة بحمولتها الآدمية ، ذاهبة نحو الشرق ، مارة عبر الدبابات المصرية الملتهبة » .

وفى خلال العملية أصيبت أربع عربات نصف جنزير اسرائيلية ، الأمر الذى استدعى تنظيم عملية انقاذ فدائية أخـرى . وقـد أمكن

اخلاء اكثر المصابين . وكانت النتيجة هى : ثلاثة جنود اسرائيليين مفقودين ، واعطاب أربع عربات نصف جنزير .

وبعد الحرب جاء هذا الكولونيل لكى يرى المكان الذى دارت فيه هذه المعارك الرهيبة ، وقد رافقه آباء جنوده الذين قتلوا خلالها . وقد وقفوا أمام الحطام الذى تبقى من احدى الدبابات ، وسال احد أولئك الآباء : «ترى هل بذلت كل مافى وسعك لانقاذهم ؟»

فأجاب الكولونيل : «لقد فعلت كل شىء .. وهو ماكلفنا غاليا» .

اشارت هيئة أركان الحرب الاسرائيلية عدة مرات لضباط القيادة العامة فى المنطقة الجنوبية ، بأنهم يستطيعون توسيع نطاق المعارك الى كل امتداد سيناء .

وكانت هذه الأركان ترد على الجنرال جور ريتش (جوروديتش جونين) فى كل مرة يطلب فيها مساعدة الطيران بقولها :

« عليكم باحتواء العدو بكافة الوسائل . احتووه .. وحاربوا وانتم تنسحبون الى الوراء . افعلوا ماتعلمتموه فى الكلية الحربية .

ولسوف تظهر التقارير المصرية ، فيما يتعلق بهذين اليومين من الحرب ، انهم هم انفسهم لم يكونوا يصدقون الحظ الذى أحرزوه . كانوا قد قدروا انهم سيفقدون ما بين ثلاثين وخمسة وثلاثين الفا من الجنود لعبور القناة ، الا أن خسائرهم الاولى كانت أقل من ذلك بكثير فبعد أن حاصروا المواقع الحصينة لخط بارليف ، راحت قواتهم تقيم لها خنادق وتدعم مواقعها فوق شريط يتراوح عرضه بين خمسة وسبعة كيلومترات داخل سيناء ، بهدف تأمين سيطرتهم على المحاور الرئيسية ، ومنع وصول التعزيزات الاسرائيلية وفى الأيام الثلاثة الأولى من الحرب ، استطاعت القيادة العسكرية المصرية العامة ان تسيطر تماما على القوات الضخمة التى عبرت القناة . كانت تتبع حرفيا المتعاليم السوفيتية التى توصى ، فى حالة عبور عائق مائى ، بأن تجىء وراء المشاة قوات ميكانيكية محمولة ، تدعمها الدبابات ، وأن تنتهى العملية بعبور فرقة مدرعة ، وأن تكون جميع هذه القوات تحت حماية ستار قوى من المدفعية .

وهكذا اقتحم المصريون هـذا الخط الأول للدفاع الاسرائيلي ، وهو الخط الذي كانوا يخشونه كثيرا ، ودمروا الوحدات الاسرائيلية الأولى التي ارسلت لتعزيزه .

ان هناك عددا كبيرا من الضباط الاسرائيليين الذين اشتركوا في حرب الأيام الستة ، يرون .. «انه يكفي أن يضرب أحد بيديه على الصفيح .. حتي يستولى الخـوف على الطيور فتطير» . لقـد كان اليومان الأولان من الحرب في منتهى القسوة على الاسرائيليين وكلفاهم خسائر عالية ، ويبدو أن ذلك لايكفي لجعلهم يدركون أن كل شيء قد اختلف هذه المرة . لقد اصطدمت الدبابات الاسرائيلية بمشاة مزودين بقاذفات صواريخ ، تحميهم مجموعات من المدرعات ، ويسـتند الكل الى ستار من المدفعية له كثافة لم يسبق لها مثيل .

ولقد وجدت المدرعات الاسرائيلية امامهـا كتلة بشرية هـائلة مزودة بقوة نيران تبعث على الرهبة . وقد كلف احد الألوية الاسرائيلية بالقيام بهجوم مضاد في منطقة كوبرى الفردان ، فتمكن من الوصـول الى محور (رومانى) ، ثم اتخذ وضع القتال ، تحت ادارة الكولونيل الذي يتولى قيادته . وقد بدأ الاشتباك بداية طيبة . ونشطت الفرقة التي يقودها الجنرال (برين) في نفس المنطقة ، على حين راحت فرقة الجنرال شارون تقوم بهجوم مضاد في المنطقة الوسـطى من القناة . وواجهت فرقة سيناء التي يتولى قيادتها الجنرال ماندلر بـدورها قوات مصرية كبيرة كانت تحاول القيام بشق طريق لها في اتجـاه المحاور المتحكمة في مداخل سيناء .

ولقـد تلقت الفرقة التي يقودها الجنرال (برين) أمرا بالقيـام بهجوم مضاد صدر في نوبة تفاؤل ، فقد كان هدفه هو الاستيلاء على الجسور التي اقامها المصريون ، وأن يرسلوا بعض القوات الاسرائيلية المدرعة الى الضفة الغربيـة لقنـاة السـويس . كان ذلك الأمـر يقول :

ـ استولوا على الجسر .. لاننا في حاجة الى نقطة ارتكاز .

وجاء الرد من ضابط برتبة الكولونيل في المدرعات ، كانت وحدته في صميم المعركة ، اذ قال :

ــ اذا لم ترسلوا لى الطيران ، فاننا قد نتعرض للعودة على أقدامنا .. هذا اذا عدنا على الاطلاق .

ويروى أحد الضباط فيما بعد ماحدث بقوله :

« كان المصريون يلقون بأنفسهم على الدبابات الاسرائيلية ، ويتعلقون بها ثم يموتون وهكذا بغير نهاية . وفى لحظة من اللحظات شعرت أن ذلك سوف ينال من القوات الاسرائيلية فرحت أصرخ فى جهاز الاتصال واقول : « اذا كانوا يريدون أن يحاربوا فليجيئوا الى هنا ! لسوف يرون كيف نخوض الحرب» لقد كنت فى حالة انفعال شديد ، فصحت مرة أخرى : «اننى أريد أن أراهم أمام دبابتى ...». كانت المذبحة مروعة ، ولكنى تصورت أن صيحاتى هذه ، وسط هذا الجحيم الذى يلقى فيه المصريون بأنفسهم على دباباتنا لكى تسحقهم . قد توقظ رجالنا الذين بدا أن الرعب قد أصابهم بالشلل . وقد غطيت تلال الرمال بطبقة حقيقية من اللحم البشرى ، اذ كانت كل موجة تتم ابادتها ، تحل محلها موجة أخرى» .

وأخذت أنباء ميدان المعارك تصبح تدريجيا مزعجة . وكانت وحدة مدرعة اخرى تقاتل بالقرب من القناة ، فأرسلت أول تقرير لها تقول : ثمانى دبابات تحترق فوق السد الترابى . هناك عشرات أخرى دمرت بينما كانت تحارب منسحبة . من الواضح أن الهجوم الاسرائيلى المضاد قد فشل . ان دباباتنا تنسحب فى غير نظام ، بعد ان نفدت ذخائرها . يقول بعض الضباط الذين عادوا من ساحة المعركة للتزود بالوقود والذخيرة أن قوات مصرية مدرعة جديدة أخذت تهاجم على ثلاثة رءوس جسور .

وقد بدا أن الجانب الأكبر من الجيش المصرى الثانى قد اشترك فى القتال .

وتلقى موقع قيادة الجنرال (برين) ضربة مباشرة ، وأخذ مساعد قائد عام الفرقة بنفسه تخليص الجرحى ، قبل اخلائهم الى ما وراء الخطوط ، لارسالهم الى احدى مستشفيات الميدان . وبعد ظهر يوم الاثنين لم يكن باقياالا حفنة من الدبابات الاسرائيلية لكى تواجه الطوفان

المصرى . وقد استمر المشاة المصريون يهاجمون بأعداد كبيرة ، وقد ترددت فى ذلك اليوم عبارة تناقلتها شبكة الاتصالات اللاسلكية وكانت تقول : « ان المصريين كثيرون .. وكأنهم صينيون » .

وفى هذا اليوم الثالث من الحرب ، كانت الخسائر الاسرائيلية مرتفعة بدرجة محسوسة . وكان من بين الأسرى الكولونيل عساف ياجورى ، الذى ظهر فى نفس المساء فى التليفزيون المصرى .

وبعد الظهر ، أصدر ضباط موقع قيادة الفرقة امرا بالبحث عن الدبابات الضالة ، وجمعها فى نقطة للتجمع حددها الجنرال .

كان الليل يوشك على الهبوط ، فانتهز الرجال ما بقى من ضوء لتجميع الوحدة ، التى سرعان ما أخذت موقعها ، وكانت الدبابات مصفوفة فوق التلال ، كما لو أنها كانت فى استعراض . ثم اخذ رجال المدفعية فيها ا يشعلون المدرعات المصرية . وتحول ميدان المعركة الى ساحة تغطيها العربات الملتهبة ، فاضاءت الليل كما لو كانت مشاعل .

وكان من شأن هذا المشهد ان أصاب المصريين بصدمة جعلتهم يوقفون تقدمهم .

كانت الخسائر فى الجانبين كبيرة ، فلم يحدث قط خلال الحروب السابقة أن فقد الجيش الاسرائيلى مثل هذه الأعداد من القتلى والجرحى . وطوال هذه الساعات الرهيبة كان القسم الطبى فى الجيش يعمل بغير توقف وبأكثر من طاقته ، وكان الأطباء العسكريون يقومون بالعمليات الجراحية الدقيقة فى ضوء البطاريات الكهربية . وكانت هناك فرق طبية تنقل بالطائرات العمودية التى تهبط تحت نيران العدو ، لعلاج عشرات الجرحى ، الذين يدينون بحياتهم لعمليات اخلائهم السريعة .

وخلال ذلك اليوم، الاثنين، أسهمت الدبابات مع وحدات التموين فى المؤخرة . ذلك أن مشكلة التزود بالوقود والذخائر كانت فى معركة الدبابات حاسمة ، بالنظر الى أن مصير الاشتباكات كان يتوقف على السرعة التى يمكن لكل دبابة أن تعود بها الى استئناف القتال .

وعلى مسافة معقولة من نقاط التموين ، كانت وحدات الاحتياط تنتظر ، بمنأى عن ضربات العدو وفى ظل بعض الخنادق ، أو بالقرب

من سيارة النقل التى جاءوا فيها . وكانوا يحلون محل القوات التى تصبح غير قادرة على القتال أولا بأول .

وسرت شائعة تقول :

« لقد وصل الجنرال (برين) الى القناة » .

وقد اخذت هذه الشائعة تتردد فى تل أبيب ، مما جعل الصحف الاسرائيلية تنشر عنها العناوين الضخمة فى صدر صفحاتها ، فى حين أن الواقع على أرض المعركة ، كان يدل على أن الموقف ليس بمثل هذا الوضوح . ذلك أن المصريين كانوا قد نجحوا فى كسر الهجوم الاسرائيلى المضاد ، واخذوا يعبرون بقوات الاحتياطى عن طريق رءوس الجسور .

وبعد اليوم الثالث ، انتقلت الحرب من (البكرة الضاغطة) الى ذلك النوع المعروف باسم (حرب الخنادق) . وقد ادركت القيادة العامة الاسرائيلية ، أن الهجمات المضادة لا يمكن الا أن تعجل بتدمير وحدات التعزيز . وعند ذلك صدر الأمر بعمل خنادق قوية على بعد يتراوح بين عشرة وخمسة عشر كيلو مترا من قناة السويس ، واتخاذ مواقع فيها . وبالرغم من الحاح الجنرال شارون ، فان مسألة القيام بغارة على الضفة الغربية للقناة لم تكن موضع تفكير . كانت الأوامر صريحة : ان تبقى كل قوة فى موقعها ، وان تقوم بهجمات محلية ، وان تكتفى بانتصارات محدودة .

وفى خلال هذه (الحروب) الصغيرة ـ ومع اعتبار ضيق ميدان المعركة ـ فان الجانبين أخذا يلقيان بقوات ضخمة لم يسبق لها مثيل . وفى مرات عديدة كانت تجرى مبارزة بين خمس دبابات ـ مصرية ومثلها من الدبابات الاسرائيلية . وعندما كانت الفرق المصرية تحاول اقتحام خطوط الدفاع الاسرائيلية . فان المئات من الدبابات تشترك فى المواجهة . وقد يحدث أن يكون هناك تداخل بين القوات ، الى حد أن مدافع الجانبين تلمس بعضها البعض . ولم تصل معارك الدبابات التى وقعت خلال الحرب العالمية الثانية فى شمال افريقيا الى مثل هذا الاتساع الذى بلغته فى حرب الغفران .

وللمرة الأولى أخذت الدبابات الاسرائيلية تحارب وهى تنسحب .

وللمرة الأولى كذلك ، فانها تعطلت فى أرض العدو ، وفى داخلها قتلى وجرحى ، بغير أن يستطيع أحد تخليصهم منها . ولقد قتل أو أسر عدد كبير من أطقم الدبابات التى تم تدميرها .

لقد كانت تلك القاعدة المقدسة التى تقول بأنه لا يجب ترك جريح واحد على أرض العـدو تنفذ فى المـاضى ، حتى مع تحمل التضحيات الكبيرة . اما فى هذه المرة ، فان الأمر جد مختلف . وعندما كان يتعين على أى قائد اسرائيلى ان يدخل فى اتصال مباشر مع العدو ، فانه كان عليه ان يختار فى ظرف ثوان قليلة : هل يخلص الجرحى ، ام يدمر من يهاجمه .. هل يحترم تلك القاعدة ، أم يحارب منسحبا لكى يعيد تنظيم صفوفه ويمكنه استئناف القتال ؟ .

وفى اليوم الرابع للحرب ، اصبح متاحا لقوات الجبهة الجنوبية امتلاك قوات مدرعة بكميات كافية كانت المعـارك الأولى ضـد تلك (الكتائب الصينية) قد بعثرت صفوف المدرعات الاسرائيلية فقد فقدت فرقة الجنرال (برين) جانبـا كبيرا من قواتهـا . أما فرقة الجنرال ماندلر ، فقد نزلت بها خسائر فادحة ، وكذلك فرقة الجنرال شارون .

وبدأ المصريون يفقدون صبرهم ، فراحوا يضاعفون هجماتهم ، فبلغ عددها خمس هجمات فى اليوم . وكان الاسرائيليون يصدون هذه الهجمات بالنهار ، ولكن ما آن يحل الليل ، حتى يعود مشاة العدو زاحفين نحو المواقع الاسرائيلية . وفى الفجر يستأنف القتال ، من حيث توقف فى اليوم السابق .

وقد وصف ضابط اسرائيلى هذه الهجمات المتلاحقة ، التى كانت تتم على أحسن ما يمكن وفقـا للتقليد السوفيتى ، وهى التى وصفت بأنها (الهجمات الزاحفة) فقال :

« كانت سيارات النقل المعبأة بالمشاة تصل الى الساحة ، فيقفز منها الجنود ، ثم ينتشرون بأقصى سرعة . وتعود السيارات من حيث اتت ، بينما يحتمى المصريون فى الحفر التى يحفرونها فى الرمال وبين الحين والحين ، وبعد بضع دقائق من التوقف ، ينهضون ويقفزون بضع قفزات الى الأمام ، ثم يعودون الى الأرض مرة أخرى . وبعد ساعتين تجىء الدبابات لتختلط بالمشاة ، الذين يعتمدون على حمايتها ، فيتقدمون

الى خطوطنا ، ثم يبدأون فى مهاجمتها . انهم يتقدمون دائما ، بغير ان يعبأوا بالخسائر كما تفعل البكرة الضاغطة » .

ويروى ضابط آخر ذلك فيقول :

« لقد علمتنا هذه المعارك شيئا جديدا عن الجيش الاسرائيلى . اننى لم أفهم قط كيف ان جنود الجيش الثامن البريطانى استطاعوا خلال الحرب العالمية الثانية أن يحاربوا وهم ينسحبون سبع عشرة مرة ، بغير أن يفقدوا روحهم المعنوية . وبعد ثلاثة أيام فى هذه الحرب ، فاننى قلت لنفسى : « اذا كتبت لى الحياة بعد ذلك ، فلن أخشى بعد الآن اى شىء » .. وهكذا فهمت الانجليز .

وفى اليوم الرابع للحرب ، وعند طرفي قناة السويس ، كان الجنود الاسرائيليون لا يزالون يناضلون فى يأس ، داخل مواقعهم الحصينة .

وعند الطرف الجنوبى ، فى مواجهة بور توفيق ومدينة السويس ، كان موقع (رصيف الميناء) من المواقع الاسرائيلية الهامة . فهو محاط بالماء من ثلاثة اتجاهات . ولا يمكن الدخول اليه الا من طريق ضيق . وخلال حرب الاستنزاف ، فان هذا الموقع تعرض عدة مرات للهجوم ، كما انه كان عرضة للقصف المدفعى أكثر من مرة . ومنذ بداية حرب عيد الغفران ، قرر المصريون انتزاعه بأى ثمن ، لأن سقوطه فى أيديهم له أهمية رمزية ، تدل على قوة جيشهم .

وعندما بدأ الهجوم على هذا الموقع يوم ٦ أكتوبر ، فى الساعة الثانية بعد الظهر ، كان الملازم شلومو أردينست قائده لا يعرف شيئا من نوايا العدو .

وسقطت القذائف حادة ، فدمرت وسائل الاتصال ومواقع المراقبة . وعند ذلك خيل الى الملازم الاسرائيلى أن الأمر لا يعدو أن يكون حادثا فرديا ، اكبر بعض الشىء من الحوادث السابقة .

واستمر القصف المصرى ساعتين ، وعند ذلك راى (أردينست) أربع دبابات اسرائيلية تدخل ساحة الموقع ، وقد أصيبت ثلاث منها . وبين رجال اطقمها عدد من الجرحى .

وقرب الغروب ، رأى الضـابط الاسرائيلى عشرة قوارب مليئة بالجنود تعبر القناة . غير ان مدفعه الرشاش الثقيل لم يكن ذا فائدة . وفتح رجاله النيران ، وتمكنوا من اصابة عدد من المشاة . لكن موجة الهجوم وصلت الى الساتر وهم يتصايحون :

ـ اذبحوا اليهود .

وعمد حملة قاذفات اللهب الى نسف خـزان الوقود فى الموقع ، وبدأ القتال بتبادل القنابل اليدوية وسقط أول الجرحى وأول القتلى.

ثم هبط الليـــل ، واخذت القذائف تدك المعقل ، وراح الجنود المصريون يستخدمون قاذفات الصواريخ .

كان الملازم شلومو أردينست يعرف أن موقعه أصبح محـاصرا ، وبات مقطوعا من بقية العالم . لكنه كان يشعر بالثقة ، فانهم بكل تأكيد سوف يجيئون لنجدته وتخليصه . وبالرغم من هذا الوثوق ، فان رجال الموقع شعروا فى فجر اليوم التالى بصدمة كبيرة ، ازاء المشهد الذى بدأ تحت أنظارهم . ويقول أردينست :

« كانت الأرض كلها مغطاة بالعربات المصرية ، وغير بعيد عن السور المحيط بالموقع كانت تمر الدبابات بأعداد كبيرة ، كما كانت هناك سيارات نقل ومدافع وصواريخ .. كل ذلك كان يتحرك ويجرى ، فى حين اننا كنا بين طرفى الكماشة » !!

واخذت مئات القذائف تنفجر فوق الموقع وفوق دشـــمته ، وقد استطاع جنود المشاة المصريين أن يصلوا الى فتحات الموقع ، فأخذوا يلقون القنابل اليدوية داخل الساحات التى تحمى السور ، ووجهت الدبابات مدافعها الى مداخل الموقع ، فراحت دباباتنا الأربع تطلق نيرانها. وخلال هذا الاشتباك ، أخذ عامل اللاسلكى يطلب النجدة .

فى صباح يوم الثلاثاء اليوم الرابع من الحرب ، اخذ شـــلومو أردينست بنظارته الميدانية يفتش ما حول الموقع ، فلم يصدق عينيه : كان العلم المصرى يرفرف فوق الدشمة المجاورة .

وقد قال بعد ذلك :

« يا للعار : ان العلم المصرى يرتفع فوق أحد مواقعنا ! وليس لدى سوى عشرة رجال يصلحون للقتال ، أما العشرة الباقون فينتمون الى الخدمات المعاونة » .

كانت حالات الجرحى الاسرائيليين خلال الأيام الثلاثة الأولى من الحرب ، تدعو الى القلق . ذلك آنه لم يعد فى المواقع حقن مورفين او زجاجات بلازما أو أربطة .

ونفدت الذخائر من تلك المواقع كذلك ، وأخذ شلومو أردينست يشجع رجاله قائلا :

ـ لسوف تمر الأزمة .. وسيأتى رجالنا .. فقليلا من الصبر !!

ومر يوم آخر ، وليلة أخرى ، ثم تلقى الملازم الاسرائيلى رسالة بواسطة جهاز اللاسلكى من القيادة العامة تقول : « اذا لم تصلكم التعزيزات خلال أربع وعشرين ساعة . فيمكنكم الاستسلام » !

وفى داخل الموقع ، كان عدد المصابين سبعة عشر رجلا ، والجرحى اثنين وعشرين ، والقتلى خمسة . وقد خارت قوة الوحدة ، ولم تعد لديها أية قدرة على القتال .

وجرى الحوار التالى باللاسلكى :

ـ شلومو .. هل يمكنك الصمود ؟

ـ مستحيل .. ليست هناك فائدة . اننى سأسلم .

ـ اصغ الى .. اذا استطعت أن تصمد قليلا .. فسوف نبذل كل جهد لنخرجكم من هناك .

فأجاب شلومو :

ـ طالما اننى أقول لك انه لم تعد هناك أية فائدة ..

ـ حسنا .. أرجو أن نراك .. هل تريد شيئا ؟

ـ نعم .. اذهب الى بيتى .

وقالت القيادة :

ـ عندما تظهرون فى التليفزيون ، قل للأولاد أن يرفعوا رءوسهم .

ـ لقد وعدونا بتطبيق اتفاقية جنيف .. لسوف أخلى القتلى والجرحى .

ـ الا تريد أن نضيف شيئا ؟

فقال شلومو :

ـ أبلغ أسرتى .. وقل للزملاء أن يسهروا على أمى وأبى ..

وقطع شلومو اردينست الاتصال ، لكى يذهب على رأس الاحياء ويستسلم للمصريين .

وهوجم الموقع الاسرائيلى الحصين القائم شمال القناة فى مواجهة منطقة بور سعيد ، حوالى الساعة الثانية والنصف بعد الظهر .. وعلى عكس ما حدث فى المواقع الأخرى ، فان هذا الموقع استطاع أن يعتمد على مساعدة بعض المدرعات التى كانت مرابطة على مقربة منه ، والتى دخلت على الفور فى المعركة .. وبعد بضع لحظات اشتعلت النار فى ست دبابات واثنتى عشرة عربة اسرائيلية ، واصبحت غير صالحة للقتال .

وفى الليلة التى تلت هذا الهجوم ، أحصى جنود الموقع الاسرائيلى خسائرهم ، فلم يصدقوا عيونهم . كانت الحفر العميقة التى تخلفت من قذائف مدافع الميدان المصرية حول المواقع كثيرة وعميقة ، مما يستحيل معها الوصول اليه . كانت هذه هى العزلة الكاملة .

وبعد ذلك بثمانية أيام ، كان الموقع لا يزال يقاوم . وفى الليل ، كان الجنود المصريون يتقدمون حتى السور الخارجى .

ويقول الجندى (مائير ليفنى) :

« كنت أسمعهم يضيحون قائلين : يالله يا جماعة . وفى الفجر كان العدو قد ترك وراءه عشرين جثة .

وبعد ذلك بقليل ، برز عند الأفق طابور مصرى ، فاستؤنف القتال ، ثم هبطت الى الشاطىء أربع عربات برمائية لا يدرى أحد من أين جاءت . وفى نفس الوقت تمكنت وحدة كوماندوز مصرية من اقامة رأس جسر على طريق الموقع .

كان البحر من ناحيـــة ، وهــذا أمر سيىء . وصعد الكوماندوز المصريون . والقنابل فى ايديهم على جدار الموقع ، وسرعان ما بدأ القتــال بالسلاح الأبيض ، رجلا لرجل ، وبالمدافع الرشاشة الصغيرة وبالقنابل اليدوية . وتوقف العدو أخيرا عن القتال ، وراح يحارب منسحبا فى اتجاه البحر بينما استمر جنود الموقع فى اطلاق النار عليهم .

وبعد عدة هجمات دامية . تخلى المصريون عن احتلال الموقع . وكان هو الموقع الحصين الوحيد فى خط بارليف ، الذى لم يســقط فى أيدى العدو .

ولقد جاء قائد هذا الموقع ؛ وهـــو الكابتن الاحتياطى اشكنازى الطالب فى جامعة القدس ، ليقف بعد انقضاء ثلاثة أشهر على الحــرب امام مكتب جولدا مائير لكى يطلب منها اقالة الجنرال موشيه ديان . . ولقد استمر هذا السلوك فرديا لعدة أسابيع ، وبعدها كان الآلاف من الاسرائيليين يجيئون لتأييده .

بارليف : الرجل والخط

كان من نتائج عبور القوات المصرية لقناة السويس، وانهيار الخط الاسرائيلى الحصين الذى كانت مهمته السيطرة عليها ، أن وضعت نقطة النهاية فى ذلك الفصل الذى يحمل عنوان « بارليف » فذلك الخط لم يكن مجرد عمل قام به هذا الجنرال ، ولكنه كان قد أصبح ، مع مرور الزمن ، رمزا فى جميع أنحاء العالم ، يمثل القوة والقدرة الاسرائيلية ، كما كان يمثل بالنسبة للعرب .. الدليل الساطع على عجزهم .

ولا يعرف أحد من الذى اطلق على الخط اسم « خط بارليف »، ولكن المؤكد هو أن الجيش الاسرائيلى لم يكن هو الذى فعل ذلك . ومن الناحية الرسمية ، فان هذا الخط الدفاعى لم يكن له وجود . ثم جاء يوم ، واذا بالصحافة والاذاعة والتليفزيون كلها تتحدث عنه ، بل ان الرئيس جمال عبد الناصر قد أشار اليه فى خطبه . ومنذ حرب الأيام الستة ، وهذا الخط هو العلامة المميزة لاسرائيل ، والجدار الذى لاسبيل الى اقتحامه ، وكان معنى خط بارليف ، هو الطمأنينة لاسرائيل ومن يحكمونها .

وخلال عدة سنوات ، كان المتحدثون الرسميون العسكريون والسياسيون فى اسرائيل يؤكدون ويحلفون بأغلظ الايمان ، انه يستحيل

على المصريين الى الأبد أن يجتازوا هذا (العائق) المضاد للدبابات ، الذى هو اضخم عائق فى العالم أجمع . وهذا التقدير كان قابلا للنقاش ،لأنه كان قائما على ما تعلمته اسرائيل من حرب الأيام الستة فقط . ومع ذلك - فقد كان الرؤساء العسكريون فى البلاد ، وفى مقدمتهم موشيه ديان وزير الدفاع ، وحاييم بارليف الذى كان رئيسا لأركان الحرب فى ذلك الوقت ، يكررون أن (كل حرب تختلف عن الحرب التى سبقتها) .

ولقد شاءت سخرية القدر أن يخلع حاييم بارليف ثوبه العسكرى عام ١٩٧١ لكى يتولى وزارة التجارة والصناعة ، ثم استدعى للخدمة وارسل الى الجبهة الجنوبية ليعمل على انقاذ الخط الذى يحمل اسمه .

وقد سأله عدد من الصحفيين خلال حرب عيد الغفران ، عن السبب الذى جعل هذا الخط الشهير لايقوم بالدور الذى انشىء أساسا ليقوم به . وعند ذلك قال الجنرال بارليف :

ـ خط بارليف ؟ ان هذا اختراع من جانب الصحافة .

ان هذا الخط سوف يذكر فى تاريخ الحروب ، بأنه الخط الذى لم يكن له وجود قط تماما مثل خط (ماجينو) الفرنسى . ومن المقطوع به أن هناك علاقة عسكرية وسياسية وسيكلوجية ، بين هذين الخطين .

كان خط (ماجينو) ـ على عكس خط بارليف ـ قد انشىء بموجب قرار سياسى وعسكرى بعد مناقشات طويلة ، مع معرفة كاملة للقضية التى يعالجها . وكان المجلس الأعلى للحرب قد درس ، تحت رئاسة الماريشال فيليب بيتان ، المشروعات الخاصة بخط ماجينو لمدة عشر سنوات ، وكان الماريشال ، وهو بطل موقعة (فردان) ويؤمن بالتفوق المطلق للتكتيك الدفاعى على الاستراتيجية الهجومية . وكانت حياة الانسان فى نظره تجىء قبل كل شىء آخر من حيث أهميتها فقد شهد بنفسه مصرع الملايين من الجنود خلال الحرب العالمية الأولى ، كما أنه كان مدركا تمام الادراك للقلة العددية لفرنسا ازاء المانيا . ومن هنا كان طلبه لانشاء خط هائل الحجم ، لايمكن عمليا الاستيلاء عليه ، ويقوم على الحدود بين فرنسا والمانيا .

وبدا تشييد الخط فى عام ١٩٣٠ ، وسار العمل فيه بصورة عاجلة ، تحت اشراف اندريه ماجينو وزير الدفاع ، ثم افتتح عام ١٩٣٥ .

على أن نقطة الضعف الرئيسية فى خط ماجينو كانت تكمن فى أنه لم ينشأ فى المكان الصحيح . ففى خلال الفي عام ، ظل الألمان بانتظام يغزون فرنسا ، عن طريق مرورهم من بلجيكا . واذا كان الخط لم يشيد على الحدود البلجيكية ، فذلك لأن الحكومة الفرنسية كانت تخشى أن توجه اهانة الى حلفائها . ثم انه كانت هناك كذلك أسباب أخرى ، منها أن مثل هذا الخط الذى يمتد على الحدود البلجيكية سوف يتكلف أموالا طائلة .

وهكذا عندما اندلعت الحرب العالمية، فان مدرعات (هاينز جودريان) التى كان يتولى قيادتها «هووين روميل» دارت حول خط ماجينو ، وعصفت تماما بالجيش الفرنسي — ذلك أنه نظرا للأهمية السيكولوجية لخط ماجينو ، ولأنه تكلف كثيرا ، فان الحكومة الفرنسية لم تكلف نفسها بأن تنشىء ازاء القوات الهتلرية قوة حربية فرنسية خفيفة الحركة وتساير العصر ، وهو ما كان ضابط شاب مغمور فى ذلك الوقت قد طالب به وكان يدعى شارل ديجول . وكانت فرنسا تغط فى نومها مطمئنة وراء خطها الحصين ، واثقة من ان احدا لايمكن أن يجتازه ، وأن الألمان لن يستطيعوا قط التغلب عليه .

اما المصريون فلم يكونوا قادرين على الدوران حول خط (بارليف) ولكن بالنظر الى أن هذا الخط لم يكن معدا أساسا للصمود أمام هجوم كبير الحجم ، فان المصريين كانوا يستطيعون اختراقه فيما بين حصونه ودشمه ، التى فقدت كل قيمة عسكرية لها ، منذ الساعات الأولى لحرب عيد الغفران .

لقد تكلف بناء خط بارليف مايقرب من مليارين من الليرات الاسرائيلية وكان هذا مبلغا ضخما بالنسبة لاسرائيل . وكما فعلت فرنسا عام ١٩٣٩ . فان اسرائيل كانت تغط فى نومها وراء هذا الحصن الرائع الجميل . ومن المرجح أن الجيش الاسرائيلى ، بغير هذا الخط ، كان سيتصرف بطريقة أخرى ازاء حشد القوات المصرية عشية الحرب .

والواقع أن وهم الأمن الذى يوفره هذا الخط ، هو الذى كان قاتلا بالنسبة للجيش الاسرائيلى .

ولقد نشر الجنرال بارليف ، بعد الحرب ، العديد من المقالات فى الصحف ، دفاعا عن المفهوم العسكرى الذى أدى الى بناء الخط . ومن وجهة نظره ، فان الخط لم يكن مجرد شبكة دفاعية محصنة ، وانما كان أيضا مجموعة من العناصر المختلفة ، منها المدرعات والمدفعية والمنشآت الخاصة بالامدادات تتضمن محاور للتحرك ، وقواعد خاصة بالصيانة ، وفى الخلف تجىء قواعد القيادة .

وهو يقول فى ذلك :

« لقد أخذنا الهجوم المصرى على غرة ، فلم يستطع هــذا الخط الكبير ، أن يستقبل فى الوقت المناسب القوات التى كان يجب أن تشغله وقت الحرب . ومن هنا فان الخط لم يتحمل (التجربة الحقيقية) ، وبمعنى آخر ، فانه لم يواجه المصريين ساعة هجومهم عليه الا باسمه . ان ما حدث عندما اجتازت هذه القوات قناة السويس هو أن نصف مواقع خط بارليف الحصينة فقط كانت مشغولة بالجنود » .

وقد يكون لهذه الحجة ما يبررها ، ولكن المشكلة ليست فى معرفة ما اذا كان الخط قد أثبت أو لم يثبت فعاليته ، وانما فى معرفة ما اذا كان مفهوم بارليف نفســه صحيحا أم خاطئا . كما أن المشكلة كانت بالدرجة الأولى ، فيما اذا كان من الضرورى حقا وضع هذا الخط موضع التجربة . والواقع انه ربما كان من الأفضل التفكير فى حلول اخرى من شأنها أن تخدم بفاعلية أكثر ، المصانع العسكرية والاقتصادية لاسرائيل .

ان أحدا ليس مسئولا ، من الناحية الرسمية ، عن بناء خط بارليف ذلك أن كل شىء فيه ــ تماما كالاسم الذى يحمله ــ قد نشأ من تلقــاء نفسه . لقد كانت الضرورة هى التى أملت بناءه . فحتى يونية ١٩٦٧ ، كان متفقا على أن الحرب اذا وقعت ، فان القتال سيدور فى أرض العدو . ونتيجة للشكل الجغرافى لاسرائيل بتلك الحدود التى لا نهاية لها ، والتى لا معنى لها نظرا لأن المسافة فى بعض المواضع بين الحدود والبحر لا تكاد تصل الى ثمانية عشر كيلو مترا ، فانه لم يكن أمام اسرائيل

اى تكتيك آخر . وترتيبا على ذلك ، فان الجيش الاسرائيلى كان لابد له ان يكون جيشا هجوميا خفيف الحركة قادرا على أن يباشر الهجـوم على الفور . ولعلنا نذكر هذا التكتيك وفعاليته خلال حـرب الأيام السـتة .

وفى فترة وقف اطلاق النار فى شهر يونية ١٩٦٧، كانت المدرعات الاسرائيلية واقفة على طول الضفة الشرقية لقناة السويس ، فيما عدا منطقة ضيقة فى الشمال ، حيث تفصل المستنقعات بين الساتر الترابى والممر المائى .

ومن وراء القوات الاسرائيلية ، كانت تمتد صحراء شبه جـزيرة سيناء . وفى قلب البلاد وشمالها ، كانت القوات واقفة كذلك على بعد عشرات الكيلو مترات من حدود اسرائيل القديمة . وقد غير هـذا الواقع الجديد من المفهوم الأساسى للتكتيك العسـكرى . وقال الرؤسـاء العسكريون : « من الآن فصـاعدا ، فان الجيش الاسرائيلى لن يكون مضطرا لكى يحارب فى أرض العدو » . وكان ذلك صحيحا ، وخاصة فى الجبهة المصرية ، فقد كانت الامتدادات الشاسعة لسيناء تقـدم الظروف المثالية لمعارك الدبابات ، وكان الضباط الاسرائيليون العظـام على ثقة من أنه حتى فى حالة وقوع هجوم مصرى ـ واذا كان أيضا من نوع ما حدث فى عيد الغفران من غير انذار ـ فان الجيش الاسرائيلى سيكون قادرا على مجابهة المهاجمين ، وعلى اعادتهم من حيث جاءوا بعد معركة دفاعية .

هذا النوع من تناول الحرب المحتملة كان من الناحية النظرية ، غير انه عنـدما تعين اتخاذ قرار تكتيكى دفاعى ، فان الاعتبـارات السياسية المحضة هى التى كانت لها الغلبة . وكان أهم هذه الاعتبارات ، هـو ما أوحت به رغبة اسرائيل فى أن تحتفظ بقواتها على ضفة قناة السـويس لكى تخلق حالة واقعة ، ولكى تجعل المصريين يدركون ومعهم العـالم بأكمله ، ان القناة لا يمكن فتحها للملاحة الحرة الا بتنفيذ الشرط الذى اعربت عنه اسرائيل ، وهو أن تستطيع بدورها استخدامها .

وعلى ذلك فانه كان على الاسرائيليين ان (يلتصقوا) بضفة القناة . وفى البداية عمدت هذه القوات الى بناء خنادق لها على طول الممـر

المائى . فى مواقع مؤقتة على نحو او آخر . فلما أعلن المصريون حرب الاستنزاف، وعرضوا الضفة الشرقية للقناة لنيران مستمرة من مدفعيتهم حسنت القوات الاسرائيلية مواقعها ، وراحت تشيد بعض الحصون الصغيرة لتكفل لها الحماية . وكان الأمر عند ذلك مجرد حرب ثابتة ، تعيد الى الذاكرة من نواح كثيرة حرب (الخنادق) الشهير فى الحرب العالمية الأولى .

ومنذ اللحظة الأولى التى ادركت فيها اركان الحرب الاسرائيلية ان المصريين ليس فى نيتهم على الاطلاق وقف هذه الحرب ، حرب الاستنزاف فانها انتهجت تكتيكا جديدا وكان السؤال الذى طرحته على نفسها هو: هل يتعين أن نعد انفسنا لاحتمال وقوع حرب عامة ، أم أن ننظم انفسنا وفقا لهذه الحرب التى فرضها العدو ؟ ولقد ظلت المبادرة فى أيدى المصريين ، طالما أن اركان الحرب الاسرائيلية ارتكزت فى ردود فعلها على ما يقوم به المصريون ، بغير أن تتصور ان هذه الحرب الاستنزافية قد تؤدى سريعا الى حرب أخرى ومن نوع مختلف تماما .

ولعله من الظلم القول بأن هيئة الأركان الاسرائيلية لم تكن فى حسابها ، قد فكرت على الاطلاق فى هذا الاحتمال . ولكننا نقول أنها بدلا من أن تستعد لاشتباك شامل ، فان القيادة العليا قد ركزت كل جهودها وكل مصادرها ، من أجل حل المشكلات التى كانت تطرحها عليها حرب (الخنادق) هذه .

ومن اجل دعم هذه الحرب المستترة التي راح ضحيتها مئات من جنود الوحدات الرابضة فى الخنادق على طول ضفة قناة السويس، فقد أصبح ضروريا توفير حماية عاجلة لهذه القوات وكان اول من وضع خططا لخط من المواقع الحصينة ، هو الجنرال ابراهام آدان (برين) كان أحد رجال (البالماخ) ، أى قوات الصدام التى كانت تابعة للهاجاناه التى كانت نواة للجيش الاسرائيلى ، وكان قد عين عام ١٩٤٨ ، قائدا لمنطقة الحدود فى صحراء النقب ومسئولا عن بناء مواقع حصينة صغيرة مهمتها احتواء غزو مصرى محتمل . ولقد أطلق على تلك المواقع اسم اسرائيلى هو (دانجور) ، ومن وحى هذه (الدانجورات) خرج الجنرال آدان بمفهوم نقاط الارتكاز التى تكون منها خط بارليف .

غير أن الجنرال آدان عندما وضع هذه الخطط ، انما كان يتوقع أن تجهز هذه المواقع بالأجهزة الألكترونية التى من شأنها اعطاء الانذار الى قوات المؤخرة ، وبذلك يقضى على كل محاولة مصرية لعبور القناة.

ان الصور الأولى، التى التقطت عام ١٩٦٧ على خط قناة السويس تبين ان الأمر كان مجرد خنادق مبعثرة أخفيت بالشبكات المعدنية التى عثر عليها فى المكان . وقد غطيت هذه الشبكات المعدنية بدورها بأكياس الرمل وبقطع من الأحجار. وأخذت هذه الخنادق تزداد تحصينا بالتدريج، الى درجة انها أصبحت دشما ، تحميها أستار من الأتربة . وفيما بعد، دعمت هذه الأستار واقيمت لها حواجز من قضبان السكك الحديدية المصرية التى عثر عليها ايضا فى سيناء .

وعندما اصبح واضحا أن مصر عازمة تماما على الاستمرار فى حرب الاستنزاف ــ وقد أعلن الرئيس جمال عبد الناصر صراحة هذه النية ــ فان خط قناة السويس قد أصبح بدوره خطا دفاعيا حصينا .

كان المشروع يقضى ببناء دشم قوية حول المحاور الأربعة التى تبدأ من عند القناة ثم تتغلغل داخل سيناء فى اتجاه الممرات الاستراتيجية فى شبه الجزيرة . وقد بنيت المواقع واغلبيتها فى مجموعات متقاربة، بهدف أن يقوم كل منها بتغطية الأخرى فى حالة تعرضها للهجوم وكانت المواقع الأربعة الرئيسية هى التى اقيمت فى كل من بورتوفيق ــ فى مواجهة السويس ــ وفى الوسط فى مواجهة الاسماعيلية ، وفى محور القنطرة ، وعلى بعد عشرة كيلو مترات من بور فؤاد .

ولم تكن شبكة هذه الحصون ــ وقد بلغت فى مجموعها ستة وثلاثين ــ تمثل سوى جزء من مجموع الخط الذى كانت تدخل عليه التحسينات عاما بعد عام ، فيزداد قوة وتدعيما . واستمر البناء فيه، شهورا طويلة ، وغالبا ما كان ذلك يجرى تحت نيران المدفعية المصرية. وقد استخدمت فى البناء عشرات الجرارات والبولدوزرات ، وجاء آلاف من سيارات النقل محملة بالأحجار من الشمال لكى تفرغ حمولاتها من اجل انشاء (المصطبة) المضادة للقنابل . ولاختبار صلابة هذه الحماية فان الجيش الاسرائيلى عمد الى ضربها بقذائف المدافع السوفيتية التى غنمها من المصريين فى حرب الايام الستة .

وسرعان ما أصبحت هذه المواقع ، التى لم تكن تكاليف انشائها قد بلغت فى ذلك الوقت سوى بضع عشرات من آلاف الليرات ، أماكن اقامة حقيقية ، بها كل وسائل الراحة ، من أجهزة اتصال محسنة ، وأجهزة لتكييف الهواء ، ومراوح ، ومياه جارية ، وخزائن لحفظ الطعام ، وكان كل موقع منها يشبه من انخارج احدى قلاع العصور الوسطى ، وقد بدا كالدبابة العملاقة القادرة على أن تقاتل بوسائلها الخاصة وان تتحمل الحصار الطويل . ولقد زود شاغلوا هذه المواقع بقوة نيران كبيرة نسبيا ولا تستدعى الا حفنة صغيرة من الذين يطلقونها . وكان يتعين ان يحتل كلا منها ما بين ثلاثين أو خمسة وثلاثين رجلا ، لضمان توفر استقلال ذاتى لها فى القتال وتحمل أى هجوم من قوات تفوقهم عددا . وتبعا للحسابات التى أجراها الخبراء ، فان هذه المواقع كانت قادرة على أن تقاوم لمدة أسبوع لواء من المدرعات ولكن مهمة مواجهة المدرعات المعادية فى حالة حدوث عبور للقناة ، تركت للدبابات الاسرائيلية . وكانت المواقع من جانبها مزودة بمدافع للميدان ، وبالرشاشات الثقيلة والخفيفة ، ولكنها لم تزود عمليا بالأسلحة المضادة للدبابات .

ومع مضى الشهور ، تحولت المواقع الحصينة لكى تصبح أعلى (الشقق) فى اسرائيل . فلقد استنفد كل منها عشرات الملايين من الليرات الاسرائيلية واستخدم فيها آلاف من العمال والخبراء لبنائها . ولم يكن أى جيش عصرى فى العالم ليستحق كل هذه الظروف المرفهة للحياة فى أى موقع متقدم ، فيه كافة الأجهزة اللازمة . وفى خلال حرب الاستنزاف ، كانت أسرة الجنود فى القدس وتل أبيب وحيفا ، كثيرا ما تسمع فى التليفونات أصوات المبارزة بالمدفعية ، وتبادل اطلاق النار عبر ضفتى القناة . وكانت هناك مواقع كثيرة فى كل منها النادى الخاص به ، والفرق الرياضية التى تتبعه ، بكل ما يلزمها من موائد تنس الطاولة وملاعب كرة السلة وغير ذلك . كانت الفرق التمثيلية والمحاضرون يأتون كل أسبوع ، لكى يرفهوا عن جنود تلك الخطوط الأمامية .. أو يزيدوهم تثقيفا .

وكانت غرف الجنود فى الدشم مزودة بحماية كاملة . وكان هناك عدد كبير من مخازن الأطعمة المزودة بالمطابخ الكهربائية الحديثة ،

التى تتيح للجنود الذين يعملون بها قضاء خدمتهم فى أفضل الظروف. ولما كانت الوحدات التى تخدم فى المواقع المتقدمة يتم استبدالها وفقا لجدول يعد مقدما ، فان الكثيرين كانوا ينتظرون على أحر من الجمر حلول دورهم للذهاب اليها . لقد كانوا يقولون : « انها بمثابة أماكن الراحة واللهو » ، وكان صفاء الجو وجمال الطبيعة فى المكان يبرران بالفعل هذا التشبيه .

لقد انجز بناء خط بارليف على ثلاث مراحل. ففى المرحلة الأولى، وحتى القصف الكبير فى عام ١٩٦٨ ، فان الضرب المستمر قد أثبت أن المواقع لا تصمد لقوة تلك النيران ، وان الابقاء على الجنود فى تلك الظروف كان يعادل تعريضهم للانتحار . واستغرقت المرحلة الثانية كل الفترة التى دارت فيها حرب الاستنزاف اى الى أغسطس ١٩٧٠ . وفى أول وقف اطلاق النار الذى استمر ثلاثة أشهر ، كان هناك سباق حقيقى ضد الزمن ، فلقد كانوا يخشون أن تعود المدافع لكى تدوى بعد تلك الشهور الثلاثة ، فأخذوا يعملون فى اعادة ترميم المواقع المدمرة التى أصبح عدد كبير منها خرائب وحطاما ، وفى خلال هذه الشهور الثلاثة من وقف اطلاق النار وحدها ، انفقت على الخط ثلاثون مليونا من الليرات .

وطال وقف اطلاق النار ، فأخذوا يشيدون خطا ثانيا ، على بعد سبعة أو ثمانية كيلو مترات من الخط الأول . وكان هذا الخط الثانى مقررا للوحدات المدرعة التى كان يجب أن تجيء ، فى حالة حدوث عبور لقناة السويس ، لكى تستقبل العدو من مواقع أعدت مقدما .. وكان على هذه القوات المدرعة اذن ، فى حالة الهجوم ، أن تهب لمساعدة مواقع الخط الأول ، وتحول دون اقامة رءوس جسور مصرية . فضلا عن ذلك ، فان وحدات للدبابات أقل عددا ، كانت موجودة بصفة دائمة تحت تصرف وحدات الخط الأول . وخلف خط الحماية ، تم بناء معسكرات أطلق عليها اسم (معسكرات المؤخرة) ، وتبعد عن القناة بحوالى ثلاثين كيلو مترا ، وتقع بين (طاسة) و (بالوظة) وأخيرا ، فان الخط قد زود بمدفعية قوية .

ولقد اعترضت نظرية بارليف التكتيكية ، نظرية كل من الجنرال

شارون والجنرال طال اللذين كانا يقولان بضرورة السيطرة على المجال الذى يتصل ببناء خط دفاعى متحرك ، وكان شارون وطال ومجموعة من الجنرالات يأخذون على خط بارليف نقاط الضعف التالية :

١ ـ ان مواقعه الحصينة كانت فى متناول المدافع المصرية ، علما بأن المدفعية هى أقوى سلاح لدى المصريين .

٢ ـ ان وجود خط بارليف نفسه يشكل بالنسبة للمصريين اغراء دائما للعودة الى فتح النيران ، وتوجيه عمليات الفدائيين ضده.

٣ ـ انه لاسكات نيران المدفعية المصرية ، كان ينبغى استخدام الطيران مما يمكن أن يؤدى الى تصاعد القتال ، ومن ذلك قصف العمق المصرى ، وظهور الصواريخ المضادة للطائرات ، وتواجد القوات السوفيتية العاملة كالطيارين والخبراء العسكريين وغيرهم .

ويقول الجنرال (بيليد) :

« ان المسئولين السياسيين فى اسرائيل ، بدلا من أن يضعوا أمن البلاد فى قدرة الجيش على الحركة وفى التاكتيك الدفاعى ، فانهم قد نقلوا الى الحدود البعيدة ما كانوا قد رفضوه للحدود القريبة . الا وهى الخنادق والتحصينات ، وخط دفاعى ثابت يتعارض مع روح الجيش الاسرائيلى . ولقد كان فى استطاعتنا بالمبالغ الطائلة التى استخدمت فى بناء خط بارليف ، أن نشترى خمسمائة دبابة مزودة بكل ما يلزمها من عتاد ، أو أن نحصل على مائة طائرة للخطوط الأولى ، أو على الأقل أن تكون لدينا بها ذخائر اضافية لبضعة أيام تكفى جميع القوات الاسرائيلية .. وكان يمكن كذلك أن نبث الألغام فى شريط عريض من الأرض من عند ضفة القناة ثم نحدها بحزام من الأسلاك الشائكة . لقد تعرضنا لتجربة مريرة برهنت على أن بناء خط بارليف ، كان من أسوأ ما استثمرنا فيه أموالنا » .

الخدعة الكبرى

فى يوم ١٤ مايو ١٩٦٧ ، وفى نهاية اجتماع للقيادة العسكرية العامة ومجلس الوزراء المصرى ، أصدر عبد الحكيم عامر نائب رئيس الجمهورية الأمر اليومى رقم ١ ، وكان مصاغا على الوجه التالى :

(ا) ابتداء من الساعة ١٤ر٣٠ من يوم ١٥ مايو ، تستبدل حالة اليقظة بحالة التأهب .

(ب) تغادر الفرق والتشكيلات الأخرى المبينة فى خطة المعركة مواقعها الحالية وتتجه الى قطاعات القتال .

(جـ) تكون القوات المسلحة على اهبة الاستعداد للدخول فى المعارك على الجبهة الاسرائيلية ، تبعا لتطور الموقف .

وفى ذلك الوقت ، كانت المخابرات الاسرائيلية ترى أن تركيز قوات مصرية فى سيناء ليس الا عملية استعراضية ، ومظاهرة قوى ارادها جمال عبد الناصر ، بل انها أكثر من ذلك كانت موجهة للتأثير على العالم العربى ، أكثر من تأثيرها على اسرائيل .

وفى يوم ١٦ مايو ، أصدر ليفى أشكول ـ الذى كان يومها رئيسا

الوزراء — ووزير دفاعه أمرا باعلان تعبئة مخففة لقوات الاحتياط ، بهدف مواجهة الفرقتين المصريتين اللتين حشدتا على الحدود الاسرائيلية

وعندما رات الحكومة أن الموقف أصبح لا رجعة فيه ، فانها مالت الى القيام بعملية وقائية . وقرر موشيه ديان، الذى كان قد عين مؤخرا وزيرا للدفاع ، أن يتخذ اجراءات من شأنها تضليل المصريين . فلقد أصدر ، قبل يوم ٥ يونيه بعدة أيام ، أمرا الى رؤساء فرق الحدود لكى يمنحوا تصاريح بأجازات لأكبر عدد ممكن من الجنود . ووقعت المخابرات المصرية فى الشرك ، ورفعت الى هيئة أركان الحرب تقريرا ، قالت فيه ان الجيش الاسرائيلى قد عدل عن حالة اليقظة .

وفى شهر أكتوبر ١٩٧٣ ، استخدم المصريون والسوريون نفس الأسلوب .

ان هناك وقائع كثيرة تثبت أن هناك مجموعة من الترتيبات ، أعدت بطريقة رائعة شملت أدق التفاصيل ، أتاحت للمصريين والسوريين أن يستغلوا أثر المفاجأة المطلقة ، فى يوم عيد الغفران . وبالرغم من أن القاهرة أو موسكو ليستا على استعداد للاعتراف بذلك ، فان هذا الترتيب قد فكر فيه ودبره ونفذه الجواسيس السوفييت . ان الكريملين ينكر أنه تدخل بصفة مباشرة فى استراتيجية هذه الحرب ، ونسبت مصر لنفسها وحدها الفضل فى هذا النصر . ومع ذلك فان مدى اتساع الخدعة المصرية ، ودقتها، وهو ما يدعو حقا الى الاعجاب بحسن تنفيذها وكذلك وضعها ، كل ذلك يدل على أنه كانت هناك مشاركة عملية من جانب السوفييت .

ففى يوم ١٨ نوفمبر ١٩٧٣ ، قال أحمد اسماعيل على، فى حديث صحفى لرئيس تحرير صحيفة الأهرام ما يلى :

« لقد وقع الاختيار على يوم ٦ أكتوبر نتيجة لحسابات دقيقة قائمة على العلم ، كانت كفيلة بأن تجعل هذه العملية شيئا مثاليا ، من حيث دقة وضعها وتنفيذها ، وتحولها أنى نموذج فى تاريخ الحرب الحديثة»

ويمكن الافتراض هنا ، أن وزير الحربية المصرى وهو يستخدم كلمة (العلم) ، انما كان يقصد ذلك العتاد القوى الذى وضعه الاتحاد

السوفيتى فى خدمة مصر ، استعدادا للحرب القادمة ، وهى حرب سيكولوجية ، ونشر أنباء زائفة ، وشائعات تحمل الطمأنينة حول اتفاقيات سلام مزعومة .. بل أقمار للتجسس تتابع كافة تحركات القوات الاسرائيلية على الأرض .

أما ذلك النزاع - سواء كان حقيقيا أم مزيفا - بين السادات وموسكو خلال صيف عام ١٩٧٢ ، فانه لم تثبت صحته حتى اليوم . وتبعا لأقوال أحمد اسماعيل على · فان الأمر لم يكن سوى خدعة مقصودة فى خطة التضليل المصرية . ان لدينا من الأسباب ما يجعلنا نعتقد أن الخلاف كان جادا ، ولكن حتى مع احتمال ذلك ، فانه فى أعقاب هذه الأزمة التى عرضت نفوذ الكريملين فى العالم العربى للخطر ، تعهد السوفييت بزيادة مساعداتهم العسكرية والسياسية للسادات . وبمعنى آخر ، اذا كان الاتحاد السوفييتى قد شعر بالارتياح لأنه اثبت بعملية استدعاء خبرائه وطياريه أنه لايريد أن يتورط برجاله فى حرب محتملة مع اسرائيل ، فانه من ناحية أخرى زاد بصفة غير رسمية من العتاد العسكرى الضخم الذى وضعه تحت تصرف مصر .

ولقد اذاعت وكالة (يونايتد بريس) يوم ١١ ديسمبر ١٩٧٢ من بروكسل خبرا يقول :

« ان أربعين فى المائة فقط من الأسلحة المصرية ، وستين فى المائة من طيرانها هى التى تعمل · ويقولون فى بعض الدوائر الدبلوماسية البلجيكية ان ذلك راجع بصفة رئيسية الى سوء صيانة العتاد العسكرى، والى نقص قطع الغيار المصنوعة فى الاتحاد السوفييتى · وهناك تقرير سرى يكشف عن أنه فى خلال التدريبات التى قامت بها مصر منذ حرب الاستنزاف ، فانها فقدت على الأقل خمسين طائرة من الطائرات المقاتلة » ·

وفى عشية حرب عيد الغفران ، كانت ثلثمائة وخمسون طائرة مصرية - من أربعمائة طائرة - على أهبة الاستعداد للصعود الى الجو ·

ولقد كانت الصحف الاسرائيلية تعيد ترديد مثل هذه المعلومات ، معتمدة على ثقتها فى مقالات صحف مثل (الموند) و (التايمز) ، وكما

لو كان مخبر صحفى فى لنـــدن ، أكثر اطلاعا من أحد المتخصصين فى الشئون العربية فى احدى صحف تل أبيب ٠

ففى يوم ٢٦ ديسمبر ١٩٧٢ ، نشر لمراسل صحيفة (فايننانشيال تايمز) البريطانية من القاهرة مقال يقول :

« ان الجيش العربى ليس مستعدا على الاطلاق للقتال ، حتى وان كان جانب من هذا الجيش ينشد خوض حرب ضد اسرائيل ٠ ومنذ أن غادر الخبراء السوفييت مصر ، فانهم أخذوا معهم جزءا لا يستهان به من أسلحتهم الحديثة ، ففقد الجيش المصرى ليس فقط قدرته الهجومية ، بل فقد أيضا قدرته على الدفاع » ٠

ومن القاهرة أيضا كتب (ايجورمان) مبعوث صحيفة (لاستامبا) الايطالية الخاص يقول :

« ان الفساد ينتشر فى مصر ٠٠ والجيش المصرى لم يعد لديه ذخائر تكفيه ، الا لأسبوع واحد » ٠

ومثل ذلك كتبه كل من (دينوفرسكو بالدى) فى صحيفة (كوريرى دلاسيرا) و (تييرى ديجاردان) فى صحيفة (الفيجارو) الفرنسية ، و (جيم هوكلند) فى صحيفة (واشنطون بوست) ، وما ورد فى مجله (اكسبريس) ، الفرنسية ، وما قاله (رولان دلكور) فى (الموند) ، حيث جاء :

« إن جانبا كبيرا من الخمسمائة أو الستمائة ألف جنـدى مصرى مرابطون عند القناة ، ولا يعرفون شيئا عن القتال ٠ انهم يستخدمون فى الخدمات المعاونة ، وأما الذين استدعوا مؤخرا الى الخـدمة العسكرية ، فانهم عاجزون تماما عن استخدام العتاد السوفييتى » ٠

ان هــذا التكتيك الذى يكمن فى نشر أنباء ومعلومات زائفــة فى الصحافة الدولية ، هو أمر معروف ومستخدم فى البلاد المتقدمة والعصرية٠ انه تطبيق لنوع من الاســتراتيجية الدقيقـــة التى تعتمد على وسائل مختلفة ، ويسمونه بالحرب النفسية ٠ ان الصحفيين غالبا ما يجهلون أن المعلومات التى يحصلون عليها من (خبراء) ، أو من (مصادر موثوق بها)

انما هى معلومات زائفة ، صنعت عمدا ، ولها أهداف معينة • انهم اذن يخدمون ، بغير علمهم ، أولئك الذين يريدون تنويم العدو وجعله يغفل عن يقظته •

ولقد اعترف أحمـد اسماعيل على نفسه بانتهاج هـذه الأساليب ، وأشار الى الخبر الذى نشروه عن زيارة يقوم بها وزير الدفاع فى رومانيا يوم ٨ أكتوبر ، ومانشر عن السماح للضباط والجنود بتأدية فريضة الحج•

ان وزير الحربية المصرى يؤكد ان مصر قد لجأت الى سياسة تضليل العدو ، وأن الأنبـاء التى تعطى للصحف كانت جميعها متعمدة ، وأن مستوى الروح القتالية فى الجيش المصرى قد صور على أنه منخفض ، وكل ذلك كان مناورة لها أثرها ، اذ أضيفت الى مفاجأة شن الحرب ، الأمر الذى أتاح لمصر وسوريا فى مواجهتهما لاسرائيل أفضل الظروف للتفوق الأولى•

فكيف يمكن تصور أن هناك ادارة مخابرات ، يمكن أن تترك نفسها تنخدع من جراء نبأ زائف ينشر فى صحيفة من الصحف ؟

ان أحدا لا يجهل أن المعـلومات التى تنشر عن طـريق الصحف ـ وبصفة خاصة الصحف التى تهتم بالشئون العسكرية ـ قد جمعت بعنـاية فائقة ، ثم فرزت وبوبت بوساطة ادارات المخـابرات ، قبل أن تقارن بالمعلومات الواردة من مصادر مختلفة : والعناصر التى تحصـل عليها ادارات الجاسوسية ، تشبه البناء الدقيق • فكل تفصيل حتى وان كان تافها، أو مجردا من الأهمية ، يدخل فى الحسبان، لأنه باضافته الى غيره من التفاصيل، يكون الصورة الاجمالية فاذا كانت المعلومات العامة التى تنشرها الصحف متناقضـة مع المعـلومات السرية ، فانه تجرى دراستها عن طريق المقارنة ، وبمراجعة دقيقة للمصادر • وحتى اذا بدا أن المعلومات ذات الطابع العام خاطئة وأن المعلومات السرية صحيحة ، فانه يستحيل تجاهل التناقض الواضح فى التحليل •

ان تحوير هذه المعلومات يؤدى بعد وقت طويل الى أن يتشكل منه نوع من غسـيل المخ ، يجب أن تتنبه له كل ادارة من ادارات مكافحة الجاسوسية • ومن بين الأساليب التى تتبع لتجنب الوقوع فى هـذه

(الخدعة الكبرى) ، تكمن فى التحقق عدة مرات من كل معلومة ، فكل مخابرات لديها ادارة موازية مهمتها استخراج النتائج ، بغير استشارة مسبقة لزميلتها الادارة الأخرى • وهذا الأسلوب يقضى على أخطاء الترجمة والتفسير •

ولقد يجوز أن نفترض أن السادات والمسئولين السوريين كانوا يعرفون القيمة الحقيقية لقواتهم العسكرية ، وانهم بالتالى اختاروا وسائل أخرى للعمل لتضليل اسرائيل وصرفها عن اليقظة ، من أجل عبور القناة وغزو مرتفعات الجولان •

وعندما يجرى الكلام عن علاقة القوى ، فانه يتعين أن تدخل فى الحساب تلك الصورة التى كانت لدى المصريين عن الجيش الاسرائيلى ، وكذلك الصورة لدى السوريين والسوفييت : أنه جيش لا يقهر ، ذو فعالية مذهلة . ولقد كتب بعض المراسلين العسكريين يقولون ان الوهم الذى يمثله الجيش الاسرائيلى ، كان أكثر عمقا لدى المصريين عما كان عليه لدى الاسرائيليين أنفسهم •

ولقد صدق الرئيس السادات ذلك ، فأعلن يقول :

« اننى على استعداد لكى أضحى بمليون جندى ، لأضمن انتصارا فى سيناء » •

وكذلك الفريق أحمد اسماعيل على ، فانه قدر من جانبه خسائره المحتملة فى عبور قناة السويس فقط ، بثلاثين أو خمسة وثلاثين الف جندى •

وبمعنى آخر ، فان أركان الحرب المصرية التى كانت بادية القلق عشية عيد الغفران ، لم تكن تستطيع أن تدعم آمالها فى النجاح ، الا وهى على ثقة من احداث مفاجأة كاملة • وتدل جميع الوثائق التى وقعت فى أيدى الاسرائيليين خلال حرب عيد الغفران ، على أن العدو كان لا يأمل اطلاقا أنه قادر على أن يجعل فرقه الخمس تعبر القناة . فقد كانت أقصى أحلام القيادة العامة المصرية ، هى أن تتمكن من اقامة عدة رءوس جسور فوق الضفة الشرقية •

وقبل الحرب بثلاثة أيام ، وبهدف دعم أثر المفاجأة ، أعلن السوفييت أنهم يغادرون دمشق مع عائلاتهم • كانوا يقولون أنهم يخشون وقوع حرب ، ولا يريدون أن يجروا اليها جرا•وفى كل من القدس وواشنطون ، كان الأثر قد حدث اذ توصلت الدولتان الى أن « السوريين لن يجسروا على خوض حرب بعد رحيل الخبراء السوفييت ، لأنهم عاجزون وحدهم عن القيام بمثل هذا العمل والوصول به الى نهاية طيبة » •

كانت المصيدة السوفييتية منصوبة باحكام ، الى حد أنه حتى يوم السبت ٦ أكتوبر وفى الساعة الخامسة بعد الظهر ، أى بعد ثلاث ساعات من بدء القتال ، كان موشيه ديان لا يزال مقتنعا بأن رحيل الخبراء السوفييت كان معناه الواضح أن الاتحاد السوفييتى لا يريد الحرب وبالتالى فان الفرص المتاحة للسوريين معدومة ، وفرص الاسرائيليين متاحة بالكامل •

كان وزير الدفاع الاسرائيلى يجهل فى تلك اللحظة ، أن الموقف فى الجولان قد أصبح بالفعل كارثة ، وان العتاد العسكرى الاسرائيلى الضعيف قد استسلم عمليا أمام الضربات العنيفة التى كالتها مئات الدبابات السورية ، وأن الطوابير المعادية المدرعة كانت تجوب أنحاء هضبة الجولان •

وعندما وقع الحصار حول الجيش المصرى الثالث بوساطة الجيش الاسرائيلى فان نفس التفسير ـ ويمكن القول أنه نفس رفض الحقيقة البديهية ـ كان أساس ثقة ديان بأن السوفييت لن يتدخلوا بصورة مباشرة بأية حال من الأحوال • وبمعنى آخر ، فان الكرملين ربما بغير أن يدرى ، كان قد أكد لنفسه بفضل مناورة التضليل ميزة استراتيجية واضحة ، هى أن ديان والمسئولين الاسرائيليين كانوا خلال الأيام الثلاثة الأولى من الحرب مقتنعين ، بفضل تقييمهم للموقف ، بأن الاتحاد السوفييتى قد قرر بملء ارادته أن يقف بعيدا عن النزاع • وحتى عندما أصبحت الحرب فى أقصى عنفوانها ، فانهم ظلوا يرفضون الاعتقاد بأن موسكو كانت قد التزمت أمام السادات بالدفاع عن مصر ، وبقوا مقتنعين بأن الوحدات الاسرائيلية سوف يكون لديها كل ما يلزمها من الوقت اللازم للقيام بعملياتها على الضفة الغربية للقناة • وقد اهتزت ثقة وزير الدفاع

الاسرائيلى بعض الشىء ، عندما جاء التهديد السوفييتى بالتدخل ، وهو التهديد الذى حمل الرئيس الأمريكى نيكسون على أن يعلن حالة الطوارىء فى الجيش الأمريكى ٠

لقد كانت حكومة الدولة اليهودية بعيدة عن التصديق باحتمال حدوث تدخل سوفييتى ، الى حد أنه فى عشية وقف اطلاق النار يوم ٢٢ أكتوبر ، كان ايجال آلون نائب رئيسة الوزراء يجتمع بالجنرال شارون على الضفة الغربية للقناة وقال له :

ــ ايريك .. لا تتعجل فى احتلال الاسماعيلية .. افعل ذلك ببطء .. ولكن بكل ثقة ٠٠ ان لديك كل الوقت اللازم لذلك ٠٠

وعندما استردت القوات الاسرائيلية ، متحملة فى ذلك خسائر فادحة ، هضبة الجولان والقطاع الحصين فى جبل الشيخ ، فان الحكومة الاسرائيلية قد أدركت أخيرا أنها كانت واقعة حقيقة فى الشرك ٠ ذلك أن الجنود الاسرائيليين قد اكتشفوا فى مقر القيادة السورية فى الجولان الدليل القاطع على وجود خبراء سوفييت خلال القتال ٠ وبعد أن استولى الجيش السورى على جبل الشيخ بقليل ، وصلت عدة طائرات هليوكوبتر لكى تفك جهازا ألكترونيا معقدا ركبه الاسرائيليون ٠ وقد اتخذ هذا الجهاز طريقه الى موسكو كما أنه بعد بضعة أشهر من الحرب ، نفى ديان الشائعات التى كانت تقول ان عددا من الجنود الاسرائيليين من موقع جبل الشيخ سيقوا الى الاتحاد السوفييتى فى نفس الوقت ٠ وكما أن اسقاط سبع من طائرات الميج السورية قد عجل بوقوع حرب الأيام الستة ، فانه يمكن القول ان اسقاط طائرات الميج الثلاث عشرة فى شهر سبتمبر ١٩٧٣ ، هو الذى عجل بوقوع الهجوم العربى يوم ٦ أكتوبر ٠

وقد عرف بعد وقف اطلاق النار يوم ٢٢ أكتوبر ، أن الجنرال السوفييتى فيودور بوندرينكو قائد عام وحدات الصواريخ المضادة للطائرات السوفييتية ، قد قتل يوم ١٣ أكتوبر فى الأراضى السورية ، أى فى وقت كان فيه القوم فى اسرائيل مقتنعين بأن الشعلة تحترق بين دمشق وموسكو ٠

ووفقا لما قالته مجلة (نوفيل أوبزرفاتير) الفرنسية فان الجنرال

السوفيتى فاسيل فاسيليفتش أوكونيف هو الذى أشار بيوم عيد الغفران ، بوصفه أنسب يوم .. لمفاجأة اسرائيل . كان يعلم أن الاذاعة الاسرائيلية لا تعمل فى هذا اليوم ، ومن هنا قدر أن ذلك عنصر لا يجب اغفاله . وحتى اذا لم تثبت صحة هذه القصة ، فان أحدا لا يشك اليوم فى العلاقات الوثيقة التى كانت ومازالت تربط بين السوريين والسوفييت.
فمن الواضح اذن ، أن الاتحاد السوفييتى ، ان لم يكن هو الذى وضع تاريخ بدء الحرب ، فانه كان فى جميع الأحوال على علم بهذا التاريخ . ومنذ بداية الهجوم المزدوج على اسرائيل ، بدأ جسر جوى سوفييتى ذو أبعاد لم يسبق لها مثيل . كان هذا الجسر ينقل بصفة أساسية صواريخ أرض ـ جو ودبابات . وفى نفس الوقت كانت هناك سفن شحن سوفييتية محملة بالأسلحة والمعدات العسكرية تتجه الى الموانىء المصرية والسورية. وكان من شأن ما نشرته الصحف عن مواعيد وصول هذه السفن الى الموانىء العربية ، أن أمكن التأكد بأنها غادرت موانىء البحر الأسود ـ مثل ميناء أوديسا ـ فى نفس تاريخ بدء الأعمال العسكرية . أى أنها كانت محملة مقدما بالأسلحة السوفييتية ، ولم تكن تنتظر سوى الأمر بالابحار .

ويمكن أن نختتم بالقول أن السوفييت قد تصرفوا بالاتفاق الكامل مع حلفائهم العرب .

ولا يجب أن ننسى أن الاتحاد السوفييتى يتابع بغير كلل نفس أهدافه ، وهى عزل الشرق الأوسط عن النفوذ الأمريكى ، والسيطرة على المحيط الهندى ، وفصل أوروبا عن الولايات المتحدة . انه يرى أن هذه السياسة الثلاثية متوقفة على أمنه . وعلى ذلك لا يجوز أن نندهش ، أنه من وجهة نظر الاستراتيجية الشمولية ، فان موسكو قد حاولت منذ مطلع عام ١٩٧٣ أن تروج لفكرة ضعف وجودها فى البحر المتوسط . وابتداء من صيف ١٩٧٢ ، فان الاتحاد السوفييتى اذا كان له فى شرق البحر الأبيض المتوسط نفس عدد السفن الحربية التى كانت له فى الماضى ، فانه قد قلل بشكل ملموس من قوتها وعلى سبيل المثال باستبدال السفن حاملات الصواريخ بمدمرات قديمة . وقد نجحت هذه السياسة فى خداع القيادة العامة لحلف الأطلنطى فى بروكسل .

وفى يوم ٢٨ يناير ١٩٧٣ ، فان هذه القيادة المكلفة بالدفاع عن أوروبا الغربية نشرت تقريرا عن وضع الأسطول السوفييتى فى البحر المتوسط جاء فيه :

« ان نشاط الأسطول السوفييتى فى الحوض الشرقى للبحر الأبيض المتوسط قد خفض بعض الشىء ، ذلك أن السفن الخمسين الحربية التى كانت جميعها فيه خلال الشتاء الماضى ، أصبحت أربعين فقط . وكان عدد هذه السفن قبل عامين أو ثلاثة أعوام ثمانين سفينة ، وكان ذلك قبل وقف اطلاق النار بين مصر واسرائيل وخلال أزمة مالطة . على أن هـذا التخفيض الخفيف لا يجب أن يؤخـذ على أنه دليل على حدوث تغيير فى سياسـة موسكو ، التى تريد أن تحتفظ لنفسها باسطول تتزايد قوته باسـتمرار ويتكون ليس فقط من حاملات طائرات هليوكوبتر ، وانما أيضا من حاملات طائرات » .

ومن هذا التحذير الذى وزع على جميع وكالات الأنباء ، فان الصحف لم تأخذ سوى .. « ان الأسطول السوفيتى قد خفض نشاطه فى البحر المتوسط » .

وبهـذا التقرير تمكنت موسكو ليس فقط من تضليل اسرائيـل وصرفها عن يقظتها ، وانما فعلت نفس الأمر مع أوروبا الغربية . وخلال حرب عيد الغفران كانت تسعون سفينة حربية سوفييتية تمخر عباب البحر المتوسط .

ان الحرب النفسية العربية السوفيتية التى وسع من نطاقها الاعلام الاسرائيلى بوسائله الخاصة بتحوير المعلومات ، قد وجدت لدى اسرائيل صدى كبيرا وأرضا صالحة .

ذلك أنهـا زادت من جو الطمأنينة الذى كان يعيش فيـه الفريق الحاكم الاسرائيلى وبالتالى الشعب الاسرائيلى ، وكانت هذه المعلومات التى زيفها العرب والسوفييت ، هى بالضبط المعلومات التى كان المسئولون السياسيون والعسكريون فى اسرائيل يحبون تصديقها . كانت كل من جولدا مائير ، وموشيه ديان ، وأبا ايبان ، وجميع رؤساء أركان الحرب وغيرهم ، كانوا جميعـا مقتنعين أن فى الامكان أن يعيشـوا سنوات فى

اللاسلم واللاحرب . ولقد تحدث موشيه ديان قبل حرب عيد الغفران ببضعة أسابيع فقال فى اجتماع للعاملين فى وزارته : « اننى لا أتوقع حربا خلال السنوات العشر القادمة ، ولكن اذا اندلعت حرب قبل عشرة أعوام ، فاننى سوف أشرح لكم سبب ذلك » وضحك الحاضرون ، وقدروا فى الوزير هذه الروح المرحة .

وهكذا وجد عيد الغفران اسرائيل غارقة فى سبات عميق .

أما فيما يتعلق بأجهزة اطلاق الصواريخ أرض ـ جو ، التى بنيت فى مصر وسوريا وجرى فيهما تحسينها ، فان العالم بأسره قد وقع فى شرك (النوادر) التى كانت تروى عن (شللها) و (عدم فعاليتها) . وكان الخبراء الاسرائيليون يردون على كل من يسألهم عنها بأن يرووا له (نكتة) ، أو يقولون :

« سوف نصفيها فى غمضة عين . ان هناك حقا مشكلة ، ولكننا سوف نتغلب عليها .. فلا تقلقوا من جراء هذه الصواريخ » .

وفى نفس هذه الفترة ، أى ابتداء من يناير ١٩٧٣ ، كان السوفييت يعملون بغير انقطاع فى بناء شبكة ضخمة من صواريخ سام ٢ وسام ٣ وسام ٦ على مرتفعات الجولان ـ بين الدواخلة ودمشق . وقد انتهى العمل فى هذه الشبكة فيما بين شهرى سبتمبر وأغسطس ، وكانت شبيهة بتلك التى أقيمت فى شهر يوليه ١٩٧٠ على الضفة الغربية لقناة السويس ، وكانت الاثنتان على نمط المنشآت الدفاعية الحيوية فى الاتحاد السوفيتى . وكانت شبكتا الصواريخ السوفيتية فى كل من مصر وسوريا تفوقان فى أهميتهما الشبكة التى أقيمت فى فيتنام ، وقطعت الطريق أمام السلاح الجوى الأمريكى .

وقد بلغ الرقم القياسى فى عمليات بناء هذه الشبكات فى مطلع عام ١٩٧٣ ، بعد أن قامت طائرات الفانتوم الاسرائيلية بقصف العمق السورى ، ردا على أعمال الارهابيين الفلسطينيين فى خريف عام ١٩٧٢ . على أن وجود هذه الصواريخ ، التى بدأت تهدد حرية الطيران الاسرائيلى فى منطقتى طبرية والروشة قبل شهرين من الهجوم المصرى ـ السورى ، هذا الوجود لم يكن يشكل أى باعث على القلق لدى الحكومة وهيئة الأركان الاسرائيليتين .

ومن اجل دواعى الأمن فان هذا النبأ لم ينشر فى اسرائيل .

واذا كنا هنا نشير الى أهمية الدور الذى قام به السوفييت فى مناورة التضليل وغيرها من الاستعدادات للحرب ، فليس ذلك بنية التقليل من قدر السوريين والمصريين أو التخفيف من مسئولية أولئك الذين وقعوا فى الشرك . غير أن العالم كله يدرك تماما ، أن اسرائيل بوضعها فى المدار العربى وفى ظل الظروف السياسية الحالية ، لابد لها أن تصطدم بالاتحاد السوفيتى .

فلقد أحيطت اسرائيل علما أن الاتحاد السوفيتى يعمل منذ شتاء عام ١٩٦٨ فى نشاط كبير للاعداد لحرب ضد اسرائيل ، وأن النزاع يمكن أن يذهب الى حد التدخل المباشر للقوات المسلحة السوفيتية . ومن أجل الاقتناع بذلك ، تكفى اعادة قراءة التصريحات التى أدلى بها الوزراء وبعض الضباط العظام فى اسرائيل خلال الشهور التى سبقت حرب الاستنزاف . كان حكام الدولة اليهودية يعلمون أنه عند الحاجة فان الكريملين كان عازما على ارسال قواته الى منطقة قناة السويس وفى قلب سيناء . ولقد أثارت الحكومة الاسرائيلية علنا هذا الاحتمال، وحللت جميع مظاهره . وفى عامى ١٩٧١ ، ١٩٧٢ ، قامت بعض الطائرات من طراز ميج ٢٣ بغارات استطلاع سوفيتية ، مما جدد امكانية الخطر . وكان رد الفعل من جانب الرؤساء العسكريين الاسرائيليين هو مجرد قولهم : « لن يصعب علينا اسقاط طائرة ميج ٢٣ » .

ولم تكن المشكلة هنا ، اذ كان يجدر بهؤلاء الرؤساء أن يعكفوا على ما تخفيه هذه الغارات الاستطلاعية .

ولقد نشرت جميع المجلات العلمية الأمريكية مقالات عن رحلات التجسس التى تقوم بها الأقمار السوفيتية من طراز (كوزموس) ، التى تدور بانتظام حول الكرة الأرضية ، وتحلق فوق الشرق الأوسط واسرائيل عدة مرات فى اليوم . انها قد لا تكون فى مثل دقة الأقمار الأمريكية ، من حيث انها لا ترسل معلوماتها بطريقة مباشرة الى شاشة التليفزيون الذى يتلقى النتائج فورا عن كل ما تلتقطه ، وانما يتعين انتظار هبوطها لمعرفة ما فى الأفلام التى صورتها . الا أن تكنيك وتجهيز هذه الأقمار

كانت كافية لكى تقدم للعرب الدليل عشية عيد الغفران ، على أن الهدوء المطلق يسود اسرائيل ، وأنه ليست هنـاك أية حشود فى شبه جزيرة سيناء . ولا فى مرتفعات الجولان • وكل شىء يدل على أن هذه المعلومات قد نقلها السوفييت الى العرب ، بكل السرية المطلوبة .

وفى يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣ : وفى أثنـــاء زيارة هنرى كيسنجر لاسرائيل . قال وزير الخارجية الأمريكى للسفير كينيت كيتنج : « كان السوفييت يعرفون خلال الحرب قبل السادات ، أن الموقف العسـكرى المصرى كان معرضا لكى يصبح حرجا • ولقد كان السادات لايزال مقتنعا أن وحـدة اسرائيلية صغيرة هى التى عبرت قناة السويس فى اتجـاه مصر ، فى حين أن الصور التى التقطتها أقمار التجسس كانت قد نقلت الى السوفييت الأدلة على عكس ذلك • وهذا هو السبب فى أن الاتحاد السوفيتى قد سارع بطلب وقف اطلاق النار ، حتى قبل أن يقرر السادات التقدم بهذا الطلب » •

ولقد ناور السوفييت كذلك على المستوى السياسى • ففى القدس تمتلىء ملفات أبا ايبان وزير الخارجية الاسرائيلى ببرقيات وردية اللون صادرة من السفارات الإسرائيلية فى أوروبا وأفريقيا (قبل أن تقطع هذه الدول علاقاتها الدبلوماسية باسرائيل) ومن بقية أنحاء العالم • انهـا برقيات وردية اللون ، فى مضمونها وفى شكلها •• طالما أن هــذا اللون هو الســـائد عامة فى البرقيـــات السرية التى تتلقاها وزارة الخارجية الاسرائيلية • وفى هذه البرقيات يردد الدبلوماسيون صدى محادثاتهم السرية مع مستشار أو سكرتير فى سفارة سوفيتية ، ومن ذلك : « انه خلال حفل كوكتيل دبلوماسى ــ مثلا ــ قال محدثهم ان الاتحاد السوفيتى يرغب رغبة حارة فى اعادة علاقاته باسرائيل » مثل هذا التصريح ، الذى يتجدد بصفة استمرار ، كان يتبعه تعليق يوضح أنه يتعين على اسرائيل أن تبادر أولا بطبيعة الحال الى قبول مبدأ الحل السياسى وفقا للقرار رقم ٢٤٢ الصادر عن مجلس الأمن ، وأن تنسحب انسحابا كليا من الأراضى المحتلة • وهنا تسارع المقدس ، بغير أن تذكر أى مصدر ، الى الاعلان فى كل أنحـــاء الدنيا عن حسن نوايا السوفييت بشــأن اعادة العـلاقات الدبلوماسية بين الدولتين ، وبدون أن تشير أيضا الى الشروط المسبقة •

مثل هـــذا النبأ لم يكن يعطى الرأى العام العالمى فكرة زائفة عن نوايا السوفييت فحسب ، بل انه كان يقــدم الى السيدة جولدا مائير وأبا ايبان شعورا بالثقة ، ويسمح لهما فى نفس الوقت أن يدخلا الطمانينة على قلوب سكان اسرائيل ٠

ولقد كان لابد لهذا الخداع التكتيكى ان يؤدى ، منذ الأيام الأولى من شهر أكتوبر ، الى التحركات « الظاهرية » للقوات العربية ، التى تمت تحت سمع وبصر الجيش الاسرائيلى ٠

وفى عام ١٩٧١ ، وهو عام الحسم كما سماه الرئيس السادات ، كانت قد بدأت المناورات الكبرى لعبور قناة السويس باشتراك الفرق المدرعة فيها ، وبمساعدة المدفعية وبحماية الصواريخ ٠ وفى ذلك الوقت، كانت اسرائيل لا تزال يقظة ، وكانت ويلات حرب الاستنزاف ـ التى شهدت مصرع أكثر من أربعمائة جندى اسرائيلى واصابة بضعة آلاف منهم بجراح ـ لا تزال عالقة بالأذهان ٠ وهكذا ، فانه فى خريف عام ١٩٧١ ، عندما ذهب السادات سرا الى موسكو ، أحست حكومة الدولة اليهودية بشىء من القلق كانوا يقولون : « وماذا اذا عاد السادات ٠٠ ومعه وعد رسمى بمساعدة الجيش السوفيتى فى الحرب المحتملة ضد اسرائيل ؟ » ٠

لقد اثبتت الأحداث التى تعاقبت بعد ذلك أن هذا التقدير كان يقوم على أساس : فبعد أن عاد السادات ، ألغى من طرف واحد وقف اطلاق النار الذى وقع فى أغسطس ١٩٧٠ بناء على اقتراح أمريكى ٠ وفى نفس الوقت وقع اتفاقية الدفاع المشترك مع الاتحاد السوفيتى ٠

وعند ذلك خشيت الحكومة الاسرائيلية استئناف الأعمال الحربية ، وأعلن ديان أنه على استعداد لأن يقدم الى مصر تنازلات هامة ، فى اطار (تسوية مؤقتة) ٠ وعندما زار وليام روجرز اسرائيل ، ألمح موشيه ديان لجوزيف سيسكو مساعد وزير الخارجية الأمريكى لشئون الشرق الأوسط، بأن اسرائيل مستعدة فى اطار (تسوية مؤقتة) الى الانسحاب حتى ممر (متلا) ٠

وراود الأمل السادات فى أن يحصل ، بمعاونة الولايات المتحدة ، على أول انسحاب اسرائيلى . ومن هنا فانه تخلى عن أن يقوم ، فى وقت قصير ، بمغامرة عسكرية . ومع ذلك ، فان الجو قد ازداد توترا فى ديسمبر ١٩٧١ ، اذ أصبح الرئيس المصرى مقتنعا بأنه لم يعد ينتظر شيئا من واشنطون ، فبدأ يعد أسلحته . كان يستعد للحرب بصورة واضحة ، فزاد الجيش المصرى من عدد قاذفات القنابل من طراز (ت ى ١٦) المزودة بالصواريخ جو ـ أرض (كيلت) التى يمكنها أن تحدث تدميرا رهيبا فى الأرض ، وخاصة فى المناطق المزدحمة بالسكان . وفى اسرائيل كان الجنرال حاييم بارليف ، رئيس الأركان العامة فى ذلك الوقت ، يتهيأ لكى يترك زيه العسكرى ويشغل وزارة التجارة والصناعة . وقد أصبح التوتر على درجة عالية جعلته يؤجل ذلك . وكان موشيه ديان بدوره متشائما ، فى حين كان الجيش الاسرائيلى فى حالة طوارىء ، ويجرى استعدادات هامة . كانت البلاد كلها تشعر أنها قريبة من الحرب . واذا كانت مصر لم تعلن الحرب وقتها ، فان ذلك ربما كان على وجه التحديد لأن مصر أدركت أن اسرائيل تستعد لها ..

وفى عام ١٩٧١ ، وجه السادات الى الشعب المصرى خطابا . اتهم فيه الاتحاد السوفيتى بأنه حمله على تأجيل الحرب . وشرح أنه كان عازما، حسب وعده، على مهاجمةاسرائيل، ولكن موسكولم تقدم لهالدعم الكافى.ووفقا لما قاله الرئيس المصرى،فان الاتحاد السوفيتى قد تذرع بالحرب بين الهند وباكستان للاعتراض على خططه العربية ، وذلك ما يفسر أن فترة التوتر الحقيقية التى سادت على طول القناة قبل حرب عيد الغفران، انما كانت على وجه التحديد الفترة الواقعة فى شهر ديسمبر ١٩٧١ . ان الواحد والعشرين شهرا التى مرت بعد ذلك فى هدوء ، قد أساء الاسرائيليون فهمها ، ذلك أنه ابتداء من ديسمبر ١٩٧١ ، كان الرئيس السادات قد أعد الشرك الذى نصبه ، بمناوراته الكبرى التى خدرت تماما كل حذر لدى اسرائيل .

وطوال صيف عام ١٩٧٢ ، كانت القوات المصرية تتدرب على عبور القناة ، تحت سمع الاسرائيليين وبصرهم . ففى مواجهة أجهزة تصوير الدولة اليهودية ، أعد المصريون شواطىء للنزول عليها ، وبنوا الجسور ،

ولقد عرضت الأفلام التى التقطت عن ذلك فى التليفزيون الاسرائيلى .
وقد قام المصريون مرة واحدة على الأقل فى عام ١٩٧٣ بتمثيل عملية عبور للقناة . بأقل تفاصيل ممكنة . ونقلت الصحف المصرية بتوسع سير هذه العملية . التى شهدها الجنود الاسرائيليون فى خنادقهم على الضفة الشرقية للممر المائى . حقا ان اسرائيل قد أعلنت حالة الطوارىء ازاء تحركات القوات المصرية ، ولكن هذا التكرار لعملية (العبور) لم يثر سوى الضحك من جانب الخبراء العسكريين فى القدس وتل أبيب .

ان أكبر عمل تضليلى فى العملية ، هو أن عبور قوات السادات يوم ٦ أكتوبر لقناة السويس ، كان بالضبط نفس ما حدث قبل ذلك ، بكل تفاصيله الدقيقة ، وما كان يعتقد أنه (تدريب) يقع أمام عيون الاسرائيليين . فلقد كان فى استطاعة كل الدولة اليهودية أن تتابع سير العمليات المفجعة التى تقع على قناة السويس ، لو أنهم نظروا الى شاشات التليفزيون عندما عرض فى العام السابق فيلم ذلك التدريب .

وفى أواخر شهر مايو ١٩٧٣ أجريت مناورات كبرى أخرى ، وفجأة أصبح التوتر دراميا على الحدود المصرية والسورية ، الى درجة أن الصحف الاسرائيلية خشيت أن يكون العرب قد اختاروا موعد الذكرى الخامسة والعشرين لقيام دولة اسرائيل للقيام بهجوم عليها . وقد أعلنت أقصى حالات التأهب فى الجيش . وهو اجراء ربما يكون سببا ، حمل العرب على تأجيل مشروعاتهم الحربية .

لقد نوقشت فى اسرائيل كثيرا ، وكذلك فى بقية أنحاء العالم ، ضرورة إقامة العرض العسكرى الضخم الذى جرى فى القدس خلال الذكرى الخامسة والعشرين لقيام الدولة اليهودية . وفى رأى موشيه ديان ودافيد العازر، فان هذه المظاهرة العامة للقوة العسكرية الاسرائيلية ، كان يجب أن تؤدى فى الدرجة الثانية ، مهمة تحذير للعرب ، اذا كانت لديهم أية نية للقيام بعمل حربى .

وبعد « المناورات الكبرى » التى دارت فى مصر عام ١٩٧٢ ، ثم تلك التى جرت فى مايو ١٩٧٣ ، عمد السادات فى شهر سبتمبر الى جعل

قواته تقوم بالتدريب على تحركات جديدة . وقد اعتبرت الدولة اليهودية ومعها العالم بأسره أن عملية « صلاح الدين » ـ وهو البطل العربى الذى هزم الصليبيين ـ بمثابة تدريب جديد . والواقع أن الفرق المصرية الخمس . المرابطة فى الخطوط الأولى ، انما كانت تكرر تدريبها العام .

من هنا فان الجيش الاسرائيلى لم يكن مستعدا للحرب ، ولو أنه كان كذلك ، لأمكنه أن يتجنب الكثير من خسائره ، التى تعود الى أثر المفاجأة ، وفى الدرجة الثانية الى ما بذله من جهود لاستعادة المواقع التى وقعت كالثمرة الناضجة فى أيدى السوريين والمصريين . وفضلا عن ذلك ، فانه يمكن القول أنه لو أن الاسرائيليين قد استعدوا لاحتمال حدوث حرب ، لعطل ذلك بدء الأعمال العسكرية .

ولتكملة صورة المصيدة السوفيتية العربية ، فان من المناسب الاشارة الى الأحاديث التى أدلى بها للصحافة وزير الحربية المصرى ورئيس أركان حربه ، ومنها يتضح كيف اختار العرب يوم ٦ أكتوبر لبداية الحرب .

وهكذا ، عندما وقع المسئولون عن الأمن الاسرائيلى فى « الخدعة الكبرى » المصرية وفى الشرك الذى انساقوا اليه بأوهامهم ، فانهم راحوا يفسرونه بأن اقتصاد البلاد لم يكن يسمح باعلان حالة التعبئة العامة ، فى كل مرة يقوم المصريون فيها بتدريبات من نوع « المناورات الكبرى » . وهم يقولون : « ما الذى كان يحدث ، لو أن المصريين قد أبقوا قواتهم فى وضع القتال .. ستة أشهر ؟ » .

ان هذه الذريعة يمكن الاعتراض عليها بسهولة ، بالقول ان شهرا كاملا من التعبئة العامة لوحدات الاحتياطى ، كان سيتكلف أقل مما يتكلفه الاقتصاد الاسرائيلى فى يوم واحد من الحرب ، بصرف النظر عن الدم الانسانى ، الذى لم يعد له ثمن .

ولقد قام بنحاس سابير الى جانب ذلك بدراسة بوصفه وزيرا للمالية ، ليرد على الأسئلة الخاصة بما تكلفته الحرب . وتكشف هذه

الدراسة عن أن أيام القتال فيما بين يوم ٦ ، ويوم ٢٤ أكتوبر ، قد كلفت الدولة ماليا - بطريقة مباشرة وغير مباشرة - اثنين وعشرين مليارا من الليرات الاسرائيلية ، أى حوالى اثنين وعشرين مليارا من الفرنكات الفرنسية الثقيلة ٠

وكان من شأن هذا النزيف المروع ، أن اضطرت اسرائيل فى نهاية الأسبوع الثالث من الحرب الى طبع أوراق مالية بمعدل وكميات لم يسبق لها مثيل فى تاريخها ٠

العجل الذهبي

في يوم ٢٥ أكتوبر ، وبعد أربع وعشرين ساعة من بدء العمل الفعلى باتفاق وقف اطلاق النار على الجبهة الجنوبية ، وبالقرب من الخيمة الضخمة التى أقيمت عند الكيلو ١٠١ على طريق القاهرة ـ السويس ، كان رجل قصير القامة ، ذو حركات نشطة ، يسير جيئة وذهابا . انه الجنرال أهارون باريف وقد غرق فى أفكاره .

كان الطريق لايزال مملوءا بحطام سيارات النقل المصرية ، وقد تفحمت عجلاتها ، ومن الحفر التى على جانبيه تبرز فوهات بعض المدافع : لقد ترك المصريون فى انسحابهم ، بطاريات ضخمة من وسائل الدفاع الجوى .

وفى الليلة الماضية ، وللمرة الأولى منذ خمسة وعشرين عاما ، اجتمع ضباط مصريون واسرائيليون ، لمناقشة الاجراءات التى يتعين اتخاذها ، لدعم اتفاقية وقف اطلاق النار ، وكان اللقاء الثانى بينهم سيتم فى هذا اليوم . وقد وصل الجنرال باريف بطائرة هليكوبتر ومعه عدد من الضباط هم أعضاء الوفد الاسرائيلى . ولقد تأخر مجئ الضباط المصريين ، ولقتل الوقت راح باريف يتمشى وهو يتطلع الى

الريف الافريقى . وأدى التحيـــة لباريف رئيس الوحدة الاسرائيلية ، المكلفة بالدفاع عن هذه المنطقة .

وبدأ باريف يسأل عما اذا كان المصريون سيجيئون الى الموعـد ، ثم طلب أن يقـــدم اليه رجال الوحـــدة المدرعة ، وراح يتطلع اليهم فى صمت . انهم مجموعة من الرجال الأشداء ، أطلقوا لحاهم ، ولازالت تقاطيعهم تحمل علامات الرعب الذى رأوه فى المعـارك . ان الجنرال يريد أن يعرف نوع الحرب التى عاشتها هذه المجموعة ، فراح رجالها يروون له فى بساطة ، وكلهم الم . وبطريقة مؤثرة ، اخـــذ الجنود يتحدثون عما فعلوه وماتحملوه .

وعنـــدما كان باريف يتأهب للعودة ، فانـــه قال لرئيس هـــذه المجموعة المدرعة بالقرب من الخيمة الواقعة عند الكيلو ١٠١ :

ـ لقد شعرت بالخجل وأنا انظر فى عيونهم .. كيف وبأى شىء ارسلناهم الى النار .

ومن مرتفعـــات الجولان ، حتى الضـــفة الغربية لخليج السويس ، كان الجنود يعيشون الساعات الاولى من وقف اطلاق النار . لقـد كانت تسيطر عليهم نفس الأسـئلة . انهم لم يكونوا يتســـاءلون عن المشكلات السياسية ، ولا لماذا اشـتعلت الحـرب ، ولا حتى كيف استطاع العرب أن ينجحوا فى شن هذا الهجوم المفاجىء . كلا .. كان السؤال الوحيد الذى احتل جميع مناقشاتهم ، السـؤال الذى انطبع بالقلق والمرارة والحيرة هو : «لماذا دفعوا بنا الى هذه الحرب .. ولماذا أرسلونا الى خطوط النار ؟ »

ان الظروف السكانية فى اسرائيل ، هى التى أملت نوعية رجال هذا الجيش الشعبى للدفاع ، الذى ليس له مثيل فى العالم . اننـا اذا أخذنا بما يجىء فى النشرات العسكرية المتخصصة ، فان هـــذا الجيش يمكنه أن يعبىء فى زمن الحرب لثمانمائة الف رجل ، أى عشرة فى المائة من مجموع السكان . وهذه النســـبة لا وجود لها فى أى مكان من العالم . ولكى يمكن تعبئة مثل هذا الجيش فى بضع ساعات ، فان اسرائيل قد أعدت منذ اعلان قيام الدولة ، نظاما يقوم على الوحدات

الاحتياطية التى يمكن جمعها على وجه السرعة وتحويلها الى جيش مقاتل . وقد حـــذت بلاد كثيرة حذو هذا النظـــام ، واتخذته كنموذج لقواتها المسلحة .

ان نواة الجيش الاسرائيلى نفسه تتكون من عسكريين محترفين، واول احتياطى له يجىء من الجنود العاملين ، الذين يقضون ثـلاث سنوات فى الخدمة العسكرية . لكن القوة الرئيسية للجيش ، هى جنود الاحتياط ، فهم جميعا يؤدون خدمة مدتها شـــهر واحـــد كل عام ، للتدريب على الأساليب الحديثة .

هذه القدرة على التعبئة لقوات الاحتياط فى زمن قياسى ، هـو أربع وعشرون ساعة بين صدور الأمر بالتعبئة ودخول الوحـــدات المعركة ، قد أتاح للرؤساء العسكريين الاسرائيليين الابقاء على حـــالة التأهب فى القوات العاملة ذات العـــدد المنخفض الذى يبعث فى بعض الأحيان على الضحك ، اذا هى قورنت باعـــداد القوات الســـورية أو المصرية . وقيام خمسمائة جندى فقط بالاحتفاظ بالمائة والثمـــانين كيلو مترا التى يمتد عليها خط بارليف ، فى مواجهة مائتين وخمســـين ألف جندى مصرى ، انما يدل على النسبة العددية القائمة بين الوحدات المقاتلة العاملة ، ورجال الاحتياطى فى الجيش الاسرائيلى .

ان كل جندى اسرائيلى يعلم أنه ، عندما يرتدى ثوبه العسكرى ، أن دوره فى حالة الهجوم ، هو احتواء العدو الى أن تتم تعبئة وحدات الاحتياطى ، ودخولهم المعركة . وكل جندى احتياطى اسرائيلى يعرف ، أنه منذ اللحظة التى يسمع فيها اسمه أو منذ اللحظة التى سيجىء فيها رسول خاص لكى يسلمه أمر التعبئة ، فانه سيكون خلال الأربع والعشرين ساعة قد تحول الى مقاتل مزود بكل المعدات ، ومســـتعد للحرب . وهذا هو مايعطى الاسرائيليين الشعور ، بأنه ما من جيش عربى ، كائنة ماكانت ضخامته العددية أو قوته ، لايستطيع هزيمـــة الجيش الاسرائيلى .

على أن الساعات الأولى من حرب عيد الغفران ، قد هزت بعنف هذا الشعور الذى كان غير قابل للاهتزاز . كانت وحدات الاحتياطى

الاولى ، قد تمت تعبئتها فى بداية الاسبوع الذى سبق الحرب . كانت حالة التأهب تطلب وحدات من الاحتياط وتعزيز القوات العاملة المرابطة على الجبهتين . ولما كانوا لايعتقدون أن حربا عامة سوف تقع، فانهم لم يعبئوا الا بضع وحدات للخطوط الأولى . وبعد يومين سرحت هذه الوحدات ، وعاد جانب منها الى بيوتهم .

وعندما ارتفع التوتر مرة أخرى على الحدود ، فان حالة التأهب قد اعلنت مرة أخرى . وفى يوم الجمعة السابق على الحرب . صدر الأمر بتعبئة العديد من وحدات الاحتياط التى لم تكن قد استدعيت ، وكانت هذه وحدات الطليعة والخدمات المعاونة المكلفة أساسا باعداد معدات الطوارىء ومساعدة الوحدات فى حالة التعبئة العامة . كانت كل من هذه الوحدات الاحتياطية لها اختصاصها ، ابتداء من اربطة الأحذية حتى الدبابة (باتون) بذخيرتها .

والجيش الاسرائيلى الاحتياطى يقوم بنقل عشرات الألوف من الجنود من منازلهم الى الجبهة ، وهو الجيش الوحيد الذى يستخدم الاتوبيسات للوصول الى ساحات القتال ، وذلك مايفسر انه عند كل تعبئة عامة فى اسرائيل ، تختفى جميع الاتوبيسات الخضراء والزرقاء من المدن ومن طرق البلاد .

وفى الصباح صودرت سيارات النقل المشترك ، وكان سائقوها قد أبلغوا بأن يكونوا على أهبة الاستعداد صباح الجمعة ، ولكنهم حتى هذه الساعة ، كانوا يتولون نقل عشرات الألوف من الاشخاص الذين كانوا يسرعون للعودة الى بيوتهم ، من أجل الاحتفال بعيد الغفران . وفى هذا اليوم نفسه ، الجمعة ، وبعد الساعة الثانية عشرة ظهرا بقليل خفت حركة المرور ، وتلقى السائقون أمرا بالبقاء فى أماكنهم ، بعد أن ذهبوا بالسيارات الى الجاراجات . وفى الساعة الرابعة بعد الظهر ، بينما كانت الاحتفالات بالعيد قد بدأت بالفعل ، وأصبحت الشوارع خالية ، اذا بحالة التأهب تلغى ، وسمح للمئات من سائقى السيارات بالعودة الى بيوتهم ، مع التنبيه عليهم بعدم مغادرتها . وقد ملأوا سياراتهم بالبنزين وأخذوا ينتظرون فى بيوتهم تصاريح المرور .

وبالرغم من ذلك ، وبينما كانت التعبئة الجزئية قد صدر المرسوم الخاص بها فى اليوم التالى ، فان جهاز نقل الجنود لم يعمل بطريقة مثلى كما كان متوقعا . وقد أكد بعض الضباط فيما بعد ، أن رجالهم الذين تجمعوا فى مراكز الترحيل قد انتظروا بغير جدوى السيارات عدة ساعات ثمينة . ويقول المسئولون عن شركات النقل ، ان السيارات والسائقين كانوا مستعدين منذ الصباح ، بعد أن تلقوا تصاريح المرور بأقل من ساعتين ويبدو أنه قد حدث فى مكان ما خلل ، وأن جميع أولئك الذين كلفوا بعملية التنظيم لم يكونوا على المستوى المطلوب .

وعلى أية حال ، فان عدة وحدات قد تواجدت على الجبهة قبل اقل من اثنتى عشرة ساعة من استدعائها . الا أن عملية نقل الاحتياطى فى مجموعها ، لم تكن بالدقة المنتظرة .

وكان هناك كذلك عطل فى نقل الدبابات . كانت المخازن ، كما قلنا ، فيها مئات الدبابات الجاهزة للانطلاق . وهذه المخازن بصفة عامة تقع على بعد مئات الكيلومترات من الجبهة .ومن هنا فان الدبابات تحمل على سيارات من (حاملات الدبابات) مما يوفر لها عدة ساعات . كما قد يجنبها العطب . والدبابة عادة تستهلك كميات ضخمة من الوقود ، الأمر الذى يحتم نقلها بقدر المستطاع الى قرب الجبهة . ومن أجل هذا الغرض ، فان كل سلاح يمتلك مجموعة كبيرة من حاملات الدبابات أو عربات النقل الضخمة . الا أنه حدث قبل حرب عيد الغفران أن كلفت هذه الحاملات بنقل بعض المدرعات من مكان الى آخر ، فحدث تأخير فى تحميلها بالدبابات الذاهبة الى الجبهة .

ورأى بعض الضباط الا ينتظروا مجىء الحاملات ، فأمروا بتسيير الدبابات توقعا لخطورة الموقف ، ولكن بعض الدبابات تعطل فى الطريق وسدت المرور أمام الطوابير الآتية خلفها .

ومن حسن الحظ أنه أمكن ، بفضل الورش المتنقلة الملحقة بالوحدات المدرعة ، أن تم اصلاحها ، ولكن بعد وقت كبير ضائع .

واذا كان الجيش الاسرائيلى لم تعد له ، بالنسبة للرأى العام ، نفس الصـــورة القديمة التى كونها خلال الحروب الماضية ، فان ذلك يرجع الى أن المجتمع الاسرائيلى كله قد تغير بعد حرب الايام الستة ، ان الجيش ليس قلعـة معزولة ، لا تدخله المؤثرات والنفوذ . انه جيش شعبى ، ورجاله ورؤساؤه ينتمون الى المجتمع الاسرائيلى . وفترة الهدوء الطويلة التى سادت اسرائيل ، ومعها فترة من الرخاء ، قــد تركت اثرها على الجيش .

فبعد حملة سيناء فى عام ١٩٥٦ ، اهتز الجيش الاسرائيلى برمنه. ولم يكن ذلك نتيجة للحرب ، وانما لأشياء أخرى ، ففى خلال احدى القضايا العسكرية التى نظرت فى ذلك العام ، اعترف أحد المتهمين فيها بانه كان شريكا فى سرقة جوالين من السكر ، من ممتلكات الجيش . وقد تبين بعد ذلك أن ضابطا عظيما كان يعرف بأمر هذه السرقة ، ولكنه لم يتخذ اى اجراء ضد الجناة . وتلقت اذن بن جوريون ــ الذى كان رئيسا للوزراء ووزيرا للدفاع ــ هذه الانباء ، ولم يتردد لحظــة واحدة وهو يقرر فصل ذلك الضابط العظيم . بل انه أخطر الكنيست الاسرائيلى بالأمر ، وابدى أسفه فى التقرير الذى قدمــه اليه . وكان لهذا القرار وقع الصاعقة فى الجيش ، اذ كان الضابط العظيم الذى فصل وجـرد من رتبته من ألمع ضــباط الجيش الاسرائيلى ، وكان كثيرون يتوقعون له مستقبلا لامعا . وكان القرار ضربة شديدة للضابط نفسه ، وللمقربين منه ، وللذين خدموا تحت أمرته ، ولم يعد اليه اعتباره الا بعد حرب الايام الستة ، فاستعاد شرفه ورتبته ، وكانت خدمته خلال حرب عيد الغفران ممتازة .

وعندما سئل بن جوريون عن السبب الذى حمله على فصل ذلك الضابط بينما هو متورط بطريق غير مباشر فى احدى قضايا السرقة، فانه أجاب :

ــ يتعين علينا أن نعمل على أن يظل جيشنا طاهرا ..

ان بن جوريون ، بحكمته العميقة ، وصف هكذا المصلحة العليا للجيش الاسرائيلى ، اذ بنى حكمه على الناحية الاخلاقية فيه .

وفى غداة حرب الايام الستة ، وكان الجيش الاسرائيلى منتشيا بخمرة النصر ، اذا به يستيقظ بعد نوم طويل . كانت الصحافة العالمية تستعمل الألفاظ الضخمة لوصف العمليات العسكرية التى قام بها ، وتتحدث عن شجاعة جنوده وضباطه • وقد قيل ان الانتصار الذى احرزه كان «أكبر نصر فى التاريخ الحديث» . وقد تحول ضباطه الكبار فجأة الى (نجوم) ، سواء فى التليفزيون أو فى حفلات التكريم . واذا كان الجيش الاسرائيلى قد ظل حتى حرب الايام الستة عزيزا وموضع الاعجاب من جانب الشعب ، فان هذا الاعزاز وذلك الاعجاب قد تحولا بعد شهر يونيو ١٩٦٧ الي عبادة حقيقة .

ان انتصار يونيه ١٩٦٧ ،والمديح الذى كالوه عنه. قد غيرا بدون شك بعض الضباط . فهل يثير ذلك الدهشة ؟ ان ذلك الضابط ، الذى كان قبل ذلك مجهولا ، اذا به بعد ستة أيام من الحرب قد أصبح معبودا ، يحتفى به ، ويدلل ، وتؤخذ منه الاحاديث الصحفية . انه يدخل فى روعه ، حينئذ ، وكله فخر ، انه أصبح مشهورا فى اسرائيل وفى العالم . ولقد شوهد فى بعض الحالات سباق على المجد — ساعد على ظهوره كذلك الناشرون والصحفيون — مما ترتب عليه تصرفات مؤسفة أساءت الى انتصار حرب الايام الستة .

ومن المقطوع به أن هذا السلوك لم يكن عاما لدى جميع الضباط الاسرائيليين ، فان عددا كبيرا منهم يحتقرون هذا الشكل من الدعاية ، ويقومون بعملهم فى صمت • غير أن تصرفات الأقلية تحدث مع ذلك اثرها .

لقد كان لهذا السلوك أثره الخطير على النظام فى الجيش . وقد كتب الجنرال حاييم هرتزوج مقالين فى هذا الصدد ، تناول فيهما حالات التسيب وانعدام النظام ، وذهب الى حد القول بأن ترك الجنود اشعورهم تنمو بهذه الصورة ، هو علامة مؤسفة على الفوضى والتسيب فى الجيش الاسرائيلي .

ولسوف يتعين الانتظار الى أن يعين الجنرال صمويل جونين على راس المؤسسة العسكرية ، لاتخاذ الاجراءات الرادعة ..

احتفال ملك بابل

عندما اقام (بالزاثاد) ملك بابل حفلا ضخما لوزرائه الألف ، ثم راح ندماؤه يقرعون الكئوس الذهبية التى نهبت من معبد (نابو شود ونصور) ، ظهرت يد خفية ، وخطت أمام أولئك الأعيـان الذين استولت عليهم الدهشة ، بضع كلمات على أحد الجـدران تقـول : «معدود .. موزون .. محكوم» .

ولم يتمكن أحـد من جميع حكماء بابل من فك طلاسـم هـذه الكلمات . ثم كان دانيال هو الذى تنبأ أمام الحاضرين بالتحذير من المصير الذى ينتظر بابل .

وابتداء من ٣١ مايو ١٩٧٢ ، كان يمكن العثور فى اسرائيل على مايشبه الرمز لاحتفال ملك بابل ، والتحذير الذى تلقاه . فبينما كانت البلاد كلها تعيش على مستوى من الحياة لايتوقف عن النمو ويدعمه هدوء على الحدود ، بدأت تظهر على الجدران علامات غامضة ، لم يستطع أقل عالم فى اسرائيل فك رموزها .

كانت اسرائيل تقدم للعالم صورة لقلعة حصينة لايمكن اقتحامها ولقـد كانوا يحسدون القوات الاسرائيلية على قوتها وجسارتها ، وعلى

قدرتها المذهلة فى الحركة . وكان موشيه ديان هو الصـورة الأصلية للقائد العسكرى الذى لايقهر ، وكان الجنود الاسرائيليون ، بالنسبة للرأى العام العالمى الذى تابع جميع العمليات الدفاعية التى قامت بها اسرائيل ، مجموعة من (السوبرمان) ، أو طبعات أخرى من جيمس بوند .

وفى شهر ابريل ١٩٧٣ ، وفى قلب بيروت ، ذبحت بعض الوحدات الاسرائيلية عددا كبيرا من زعماء المنظمات الارهابية ، ونسفت القيادة العامة لاحدى هذه المنظمات ، ثم غادرت العاصمة اللبنانية . راكبة سيارات التاكسى .

وصفق العالم اجمع لهذه العملية الرائعة .

بيد أن الظلال التى خلفتها هذه العمليات العسكرية الرائعة ، التى كان لها دوى ضخم ، والتى نجحت فى جميع تفاصيلها ، انما كانت تخفى فى طياتها سلسلة من العيوب الوظيفية ـ سواء على مستوى هيئة الأركان أو على مستوى المخابرات ـ ربما كانت هى تلك الكتابة الغامضة التى ظهرت فى احتفال ملك بابل .

وفى يوم ٣١ مايو ١٩٧٢ ، هبط ثلاثة شبان يابانيون فى مطـار اللد من احدى طائرات شركة (اير فرانس) قادمة من روما . لم يكن فيهم أى شىء يفرق بينهم وبين أى سياح آخرين ، ومع ذلك فانهم كانوا ثلاثة من أعضاء (النجم الأحمر) ، وهى المنظمة اليابانية المتطرفة . ولقد انتظر الثلاثة فى هدوء تام دورهم أمام نوافذ المراجعة ، ودخلوا الى القاعة الكبرى بالمطار وتسلموا حقائبهم ، ثم أخرجوا منها قنابل يـدوية وبنادق حديثـة من طراز (كلاشنكوف) وفتحوا النيران على الجمهور . ولم يستطع اى من أولئك الرجال المكلفين بالأمن السيطرة عليهم . وفى خلال بضع دقائق تمت المذبحة ، وكانت أربع وعشرون جثة ترقد على الارض ، وعشرات من الجرحى أكثرهم من الحجاج المسيحيين القادمين من بورتوريكو يصرخون ويولولون . وقد سقط اثنان من الارهابيين صرعى وهما يحاولان الفرار ، أما الثالث وهو ـ كوزو أوكاموتو ـ فقد اعتقل ، وحكمت عليه محكمة عسكرية بالسجن المؤبد .

وزمجر الرأى العام الاسرائيلى . لم تكن مذبحة اللد جريمة بشعة فحسب ، ارتكبها المتعصبون اليابانيون لحساب العرب ، وانما كانت فشلا ذريعا لادارات الأمن فى اسرائيل .

وراح المسئولون عن الأمن الاسرائيلى يبررون ما حدث بقولهم :

« ان هذه ظاهرة جديدة ، وأسلوب جديد لم نكن مستعدين له : ولم نكن على حذر منه . ولم يكن فى استطاعتنا توقع مثل هذا العمل المروع .. لقد كنا نعلم بالتأكيد أن المنظمات الفلسطينية لها علاقات وثيقة بالحركات اليسارية فى العالم أجمع ، وانها تتعاون معها بانتظام .. ولكن لم نتصور ماحدث .. »

لقد اعتقل الكثيرون من الأوربيين فى اسرائيل ، لانهم حاولوا القيام بعمليات تخريبية لحساب الفلسطينيين .

وقد اعترف دافيد اليعازر رئيس هيئة أركان الحرب الاسرائيلية انه كان لدى الجيش معلومات تقول ان عددا من المتطوعين اليابانيين من منظمة (النجم الأحمر) ، يتدربون فى لبنان ، داخل المعسكرات الارهابية الفلسطينية .

كانت مأساة اللد تبرهن على أن أى انسان يستطيع الهبوط فى اسرائيل ، ومعه حقائب مليئة بالسلاح . والى هنا ، فان الشركات الجوية لاتعتبر مسئولة الا عن أعمال القرصنة فى الجو ، وهى تكتفى بتفتيش حقائب اليد ، وتغفل الحقائب الكبيرة .

وهذه الواقعة الدرامية كانت تكشف عن عدم كفاية اجراءات الأمن ، التى تتخذ فى مطار اللد . أن هناك عددا من رجال البوليس والحراس المسلحين الذين يرتدون الثياب المدنية ، يتجولون بصفة دائمة فى قاعات أغلب مطارات العالم . ولقد كان هناك عدد منهم فى مطار اللد فى ذلك اليوم ، ولكن عندما بدأ اليابانيون الثلاثة يطلقون النار ، فقتلوا وجرحوا حوالى المائة شخص ، لم يكن هناك أحد لاطلاق النار عليهم .

١٩٧٢ ، اليوم الحادى عشر فى الألعاب الأوليمبية فى ميونيخ .

مجموعة من رجال (أيلول الأسود) التى تنتمى الى منظمة فتح ، تدلف الى المبنى الذى يشغله الوفد الاسرائيلى فى القرية الأوليمبية . لقد قتلت على الفور أحد الرياضيين الاسرائيليين حاول المقاومة ، وأخذت أحد عشر عضوا من الوفد كرهائن من بين الرياضيين والمدربين ، ثم هددت بقتلهم اذا رفضت الحكومة الاسرائيلية اطلاق سراح مائتين وخمسين ارهابيا مسجونين فى اسرائيل .

وبعد عدة ساعات من المفاوضات المضنية ، سمحت حكومة بافاريا للارهابيين بمغادرة القرية الأوليمبية مع رهائنهم ، وجاءت طائرة هليكوبتر فنقلتهم الى المطار العسكرى القريب ، حيث كان ينتظر مجىء طائرة أخرى توضع تحت تصرفهم .

وحاول بوليس ميونيخ تخليص الرهائن وفشل ، ولقى عشرة من الاسرائيليين مصرعهم .

ان الحرب بين ادارات المخابرات الاسرائيلية والمنظمات الارهابية الفلسطينية ليست دليلا على القوة فحسب ، ولكنها ارتقت الآن الى مستوى الذكاء والخداع لقد أعدت المنظمات الفلسطينية أساليب جديدة فى صراعها ضد أسرائيل ، ولكن المخابرات الاسرائيلية لم تتوصل الى أية صيغة جديدة لمواجهتها .

وبالرغم من المعلومات السرية التى وصلت الى المخابرات الاسرائيلية وكانت تقول باحتمال وقوع محاولة للاعتداء على الوفد الاسرائيلى ، فانها قالت : « انهم لن يجرءوا على ذلك » . ولماذا ؟ .. يقولون : « لأن الألعاب الأوليمبية هى رمز الاخوة بين الشعوب ، ومحورها الرياضة» . ويقولون أيضا : «ان الجانب الأكبر من دول العالم قد اشتركوا فيها .. وأى عمل من أعمال العنف ضد الوفد الاسرائيلى .. سوف ينظر اليه على اعتبار انه اعتداء على مبدأ الألعاب الأوليمبية نفسها» .

لكن ارهابيى (أيلول الأسود) لم يعبأوا بهذه الاعتبارات . كانوا يريدون أن توضع طائرة تحت تصرفهم ، حتى يمكنهم الذهاب برهائنهم

الى دولة عربية . ولم تستجب الحكومة الألمانية لمطالبهم ، بغير اتفاق رسمى مع السلطات الاسرائيلية . ثم رفضت حكومة جولدا مائير نقل الرهائن الى احدى الدول العربية ، الأمر الذى ترتب عليه قطع أى حديث مع الارهابيين ، ولكن ذلك كان أيضا حكما بالاعدام على جميع الرهائن الاسرائيليين .

وبعد ذلك بثلاثة أشهر ، جاءت عملية أخرى اضطرب لها الرأى العام فى اسرائيل . ففى بانجكوك ، احتلت مجموعة من (أيلول الأسود) سفارة اسرائيل فى كمبوديا ، واعتقلت السفير وعددا من موظفى السفارة . وكانت المفاجأة كاملة . ومع ذلك ، ومنذ مذبحة ميونيخ ، كانت المخابرات الاسرائيلية تعلم جيدا أن جميع دور التمثيل الدبلوماسى الاسرائيلى معرضة لهجوم المنظمات الارهابية . ولكى يمكن تجنب كل هذه الهجمات فان اجراءات الأمن قد عززت فى السفارات الاسرائيلية فى العالم بأسره . لقد أعد كل شىء حتى لاتقع ميونيخ جديدة ، ومع ذلك فان اعضاء (أيلول الأسود) لم يتوقفوا عن العمل بسهولة تبعث على الذهول فى مبنى سفارة اسرائيل بانجكوك .

وبمعجزة أمكن تجنب حدوث مأساة جديدة .

وفى مؤتمر عقده الجنرال باريف أمام مجموعة من الضباط المسرحين واعضاء حزب العمل الاسرائيلى قال بعد أن قام بالتحقيق فى بانجكوك :

«لقد اثبت التحقيق الذى جرى فى بانجكوك انه كان هناك اهمال فى السفارة ، اذ لم تقفل احد أبوابها ، فدخل الارهابيون المبنى من هذا الباب» .

وحتى أواخر عام ١٩٧٢ ، كان الجنرال باريف الذى يسميه اصدقاؤه (أريليه) ، أو (رابيت) وهو الاسم الذى لصق به منذ الحرب العالمية الثانية أيام كان يعمل فى خدمة الجيش البريطانى ، كان قد تولى رئاسة ادارات الجاسوسية الاسرائيلية . وكان قد خلع الزى العسكرى لكى يخلف جنرال الاحتياط (زفى تسور) كمستشار خاص لموشيه ديان وزير الدفاع . وبعد مذبحة ميونيخ عينته جولدا مائير مستشارا خاصا مكلفا بمكافحة الارهاب الفلسطينى .

وليس هناك جدال فى أن باريف جندى له معارف واسعة ، وهو رجل لامع ، ذو عقل منظم ، وشخصية نشـطة . ولكن ما فائـدة مستشار خاص فى الحرب ضد الارهاب ، رهل يمكن أن يكون أكثر فائدة من ادارة المخابرات فى الجيش ؟ ان سطوة أى مستشار مهمـا كانت سلطته لاتعادل سطوة أحد رؤساء المخابرات .

وعندما صعدت المنظمات الارهاربيـة الفلسـطينية التى كانت لاتزال فى مهدها نشاطها فى أعقاب حرب الأيام الستة ، كان باريف جزءا من الجهاز « الرئيسى » الموجه للمخابرات . كما كان باريف عضوا بهيئـة الأركان العامة عندما قررت ، كاجراء انتقامى ضد الاعمال الارهابية التى تعرضت لها بعض الشخصيات والمؤسسات الاسرائيلية فى أوروبا، قصف سوريا وارسال طابور مدرع الى لبنان . لقد كانت الحكومة الاسرائيلية ترمى من وراء ذلك الى ارغام هـذه البلاد على كبح جماح المقاومة .

وفى يوم ٢١ فبراير ١٩٧٣ ، وفى الوقت الذى كانت تهب فيـه عاصفة رملية على صحراء سيناء ، رصدت أجهزة الرادار الاسرائيلية طائرة مصرية كانت تعبر الحدود الجنوبية وتتجه الى قلب اسرائيل . وعندئذ انطلقت طائرتان اسرائيليتان لاعتراضها . وعنـدما أصبحت الطائرة المصرية على مرأى من الطيارين الاسرائيليين ، ندت منهما صيحة استغراب وتعجب . لقد كانت الطائرة من طراز بوينج ٧٠٧ وهى تابعة لشركة الطيران الليبية . فقد كان من الممكن أن يشاهد المرأ بوضـوح على جانبيها اسم الشركة التابعة لها . وعندئذ دنت منهـا الطائرتان الاسرائيليتان وطلبا منها بالاشارات المتعارف عليها بأن تهبط فى مطار فيديم العسكرى (بير جفجافة) ولاسباب لم تعرف الا فيما بعد ، لم تستجيب الطـائرة الليبية للتعليمات الاسرائيلية فقد انخفضت الطـائرة ثم عادت لتحلق عاليا مغيرة فى الوقت نفسه خط سيرها صـوب مصر . وهنا طاردها الطياران الاسرائيليان وأطلقا أمامها عـدة دفعـات من الطلقات النارية للتحذير غير أن الطائرة البوينج استمرت منطلقة فى طريقها . وعندما استبد بالطيارين اليأس من أن تنصاع الطائرة ، وفى محاولة لارغامها على الهبوط فوق الأراضى الاسرائيلية ، أطلقا النار على

جناحى الطـائرة وعندئذ بدأت الطـائرة الليبية الهبوط ثم فجأة وقع انفجار هائل وتحطمت الطائرة وهوت على الأرض .

لقد أدت هذه المأساة الرهيبة وعلى الفور لحدوث تحول كامل فى اتجاهات الرأى العام العالمى بالنسبة لاسرائيل .

وقد أوضح الجنرال أليعازر أن المخابرات الاسرائيلية ابلغت بان الارهابيين يعتزمون ارسال طائرة انتحارية الى اسرائيل .. وكان لهذا الافتراض مايبرره اذ ليس هناك أدنى شك فى أن المنظمات الارهابيـة المتطرفة كانت قد أعدت العدة لتحويل مسار احدى طائرات الركاب ثم تحملها على التحليق فوق احدى المراكز السـكنية فى اسرائيل . وكان فى خطة هذه المنظمات تهديد اسرائيـل بتفجير الطـائرة فوق رؤوس السـكان الاسرائيليين اذا لم تفـرج عن المعتقلين من الارهـابيين الفلسطينيين .

وقد قام الدليـل بعد خمسـة شهور على صحة هـذا الافتراض عندما حول بعض الارهابيين طائرة جامبو يابانية كانت قد أقلعت من مطار باريس . وكان هدفهم هو تحويل الطـائرة العملاقة الى قنبلة طائرة تحلق فوق اسرائيل . ولكن حدثت معجزة فقد لقيت الفتـاة الفلسطينية المسيحية التى كانت تراس مجموعة الفدائيين مصرعهـا عرضا أثنـاء تحليق الطائرة مما جعل زملاءها يقفون فى حيرة من أمرهم لايدرون ماذا يفعلون . وقد هبطوا بعد ذلك بأربعة أيام فى بنغازى . ونسفوا الطائرة بعد أن غادرها الركاب .

وبطبيعة الحال فان هذه العملية الانتحارية كانت ماثلة فى اذهان ضباط الجيش الاسرائيلى عندما علموا أن احدى الطائرات الليبية كانت قادمة من مصر وانها توغلت داخل المجال الجوى الاسرائيلى . وعندئذ تصوروا أن هذه هى الطائرة الانتحارية التى حدثوهم عنهـا ومن ثم حاولوا أن يمنعونها من مواصلة السير صوب المراكز الاسرائيلية الآهلة بالسكان . لذلك أصدر رئيس الأركان تعليماته بأن تهبط الطـائرة فى مطار رفيديم أو تسقط اذا رفضت الامتثال .

ولم تدرك السلطات الاسرائيلية الخطأ الذى ارتكب الا بعد تدمير

الطائرة بركابها • فلو ثبت يقينا بعد ذلك أن هذه البوينج كانت طائرة انتحارية بالفعل فما عساه سيكون العمل حينئذ ؟

فى يوم ٢١ يوليه ١٩٧٣ ـ وكان ذلك مساء سبت ـ كانت قرية ليهمر النيرويجية مسرحا لعملية نظمتها المخابرات الاسرائيلية من أجل تصفية أحد قادة منظمة أيلول الأسود البارزين • لقد وقع خطأ مؤسف أدى الى احباط العملية .. وقد تناولت مجلة التايم الامريكية هذا الموضوع فكتبت تقول :

« لقد قتل مواطن نرويجى من أصل مغربى يدعى أحمد يوشيفى وهو على عتبة منزله فى ليهمر ولم تتضح الحقيقة الا بعد مقتله .. لقد علم أنه ليس له أى صلة بالمنظمات الارهابية الفلسطينية لقد أعتقدت السلطات الاسرائيلية خطأ أن يوشيفى هذا ليس سوى أحمد سلامة احد قادة منظمة أيلول الأسود .

وفى ذات يوم من الأسبوع الأول من شهر اغسطس ١٩٧٣ اخترقت مجموعة من المقاتلات الاسرائيلية الأجواء اللبنانية وحلقت فوق مطار بيروت الدولى وانقضت على احدى طائرات الركاب التى اقلعت منذ قليل متجهة صوب العراق وارغمتها على التوجه ناحية الأراضى الاسرائيلية وأرغمتها على الهبوط فى احدى المطارات العسكرية . وبعد تفتيش دقيق لجميع ركابها سمح لها باستئناف رحلتها قافلة الى بيروت •

وقد شرحت الحكومة الاسرائيلية بعد ذلك الموقف فأوضحت انها تلقت معلومات مفادها أن جورج حبش رئيس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين كان من بين ركاب الطائرة غير أن هذه المعلومات كانت خاطئة .

ربما كانت كافة هذه العمليات الخاطئة فى حساباتها بمثابة تحذيرات اضافية بالنسبة للمستقبل .

وعندما نجح النبى دانيال فى حل رموز الجملة
وأدرك أن معناها هو أن الوقت قد غدا متأخرا . كان فالتهزار قد فارق الحياة فى الليلة ذاتها واقتحم الفرس امبراطوريته .
ولحسن الحظ أفلتت اسرائيل من هذا المصير .

وادى الموت

« الخطر سيأتينا من الشمال »

چيرمى ١ ، ١٤

في ليلة الثامن من أكتوبر سمع الملازم تزافيكا من جهـاز اللاسلكى الموجود بدبابته قائد احدى وحدات الكتيبة المدرعة يصيح قائلا « الدبابات السورية تحاصر اليكا » ٠

وأخذ تزافيكا وهو شاب أشقر مديد القامة أخضر العينين يتقدم على «طريق البترول» على رأس وحدة صغيرة من المدرعات ٠ لقـد كان الوقت ليلا وكان الضابط الشاب ينفذ التعليمات التى صدرت اليه بالبحث عن دبابة فقد الاتصال بها مع نزول الليل ٠ وبعد ساعات عثر الضابط على الدبابة .نتى كان يبحث عنها ولكنها كانت مقلوبة بالقرب من أحد الوديان فى مرتفعات الجولان ٠ ولم يكن يعرف شيئا عما آل اليه مصير طاقمها ٠٠ ولكنه شاهد جنودا يهيمون على طول الطريق ٠٠ انهم بقايا الجنود الذين كتبت لهم الحياة من أطقم الدبابات التى اشتعلت فيها النيران وربما كانوا أيضا من عناصر المشاة الذين فقدوا الاتصال بوحداتهم وربما أيضا بعض الناجين الذين ظلوا يخوضون طوال الســاعات الثـلاثين الماضية حربا ضروسا لوقف سيل الدبابات السورية المتدفق على الجولان ٠ وربما كان تزافيكا لا يتصور مطلقا أن يشاهد جنودا اسرائيليين فى مثل هذه الحالة٠ وهنا أخذ الضابط الشاب يصيح ويصدر تعليماته. وفى دقائق قليلة عاد

الجنود المبعثرون الى انضباطهم العسكرى واعاد الضابط تنظيمهم وضمهم الى وحدته المدرعة ٠

وعندما وصل الملازم أمام اليكا الى وسط الجولان لمح ثلاث دبابات اسرائيلية مهجورة بعد أن تركها أطقمها ٠ وعندئذ هبط الضابط الشاب المغطى بالضمادات فى أماكن كثيرة من جسده وجروحه تدمى وغادر مدرعته يغمره احساس رهيب بالانهاك والتعب ٠٠ لقد روى ذلك فيما بعد وقال:

« لقد كنت جريحا ٠٠ وربما كان فى وسعى من حيث قدرة الاحتمال البدنى ، أن أواصل القتال ولكننى كنت معنويا فى حالة انهيار تام ٠ لقد هبطت من دبابتى واحساس يغمرنى بأن الجيش الاسرائيلى يقف على حافة الهاوية وأن الجولان لن تصمد ٠ وفى هذه اللحظة غمرنى احساس بالعجز والتخاذل ٠ وعلى جهاز اللاسلكى كنت أسمع الجنرال قائد المنطقة يقول ان علينا أن نواجه الموقف بمفردنا الى أن تصل التعزيزات لقد كنت وحيدا بحق » ٠

وفى خلال الساعات الست والثلاثين الاولى من الحرب فى الجولان كان هناك عدد كبير من أطقم الدبابات الستين التى تتكون منها كتيبة تزافيكا ولكن كانوا يشعرون بوحدة قاتلة ٠ وقد كانت هناك وحدات صغيرة مبعثرة هنا وهناك فى أماكن متفرقة من الجولان فضلا على بعض الدبابات القليلة تحاول احتواء التقدم السورى ٠ وفى القطاع الجنوبى من الجولان كان لقوات العدو ما يقرب من ستمائة مدرعة ٠ وفى يوم الأحد ٧ أكتوبر أصبح لا يفصلهم سوى بضع كيلو مترات قليلة عن الخط الأخضر (أى حدود اسرائيل عشية حرب الأيام الستة ، وبالنسبة لكافة المقاتلين فى الجولان فان قصة تزافيكا سوف تصبح أسطورة ورمزا ٠

لقد كان تزافيكا يوم ٦ أكتوبر يقيم فى مستعمرة لوشامى هاجوتيوت التى تقع بين نهاريا وعكا ٠ ومنذ أيام قليلة انفصل عن بقية رفاقه وحصل على أجازة يستحقها بحق ٠ وفى الساعة الثانية ظهرا مرق تشكيل جوى فوق المستعمرة ثم تبعه تشكيل آخر ثم ثالث ، وعندئذ اندفع تزافيكا نحو المذياع حيث علم من موجز الأنباء أن الحرب قد اندلعت ٠ ولكنه لم يكن منضما لأى وحدة عسكرية معينة ٠ ولعل ذلك

يوضح السبب الذى لم يستدع من أجله حتى الآن .. وعلى أية حال فهو يعلم أن مكانه بين رجال وحدته المدرعة الذين تركهم فى الجولان .

عندئذ خف الى سترته العسكرية فارتداها وجرى نحو الطريق ورفع أصبعه حيث التقطته سيارة قادته الى الثكنة العسكرية مقر كتيبته ولم يجد من يتوجه اليه أو من يصدر التعليمات . لقد مضى تزافيكا يقول : «لقد شاهدت كثيرين فى مثل حالتى لقد اقتربنا من سيارة نصف مجنزرة وأدرت جهاز اللاسلكى وهنا علمت أن قائد الجماعة الذى حل محلى قد قتل لذلك اقترحت خلال حديثى بجهاز اللاسلكى أن أحل محله فى قيادة الجماعة .

لقد أقرت القيادة تعيين تزافيكا لقيادة الجماعة غير أنه مازالت هناك مشكلة ينبغى ايجاد حل لها : أين توجد الوحدة المدرعة التى كان يقودها الملازم القتيل ؟ غير أنه نمى الى علمه أن هناك بعض العناصر المتفرقة التى كانت فى ذلك الحين لا تزال تقاتل ولكنها لم تكن تتلقى على ما يبدو أية تعزيزات .

وأمام مركز القيادة المتقدم فى نهاريا كانت تقف أربع دبابات محطمة . وكانت جثث أطقمها لا تزال بداخلها . ومن ثم يتعين العمل على اخراجها وتنظيف المدرعات وهنا بادر تزافيكا وعدد من الجنود بالاضطلاع بهذه المهمة . وكانت هذه الدبابات الأربع تمثل قوة الاحتياطى المتاحة . لذلك بذلت المحاولات لاعدادها للعمل . غير أن ساعتين انقضت قبل أن تنجح الجهود فى جعل احداها تنطلق من المكان الذى كانت تقبع فيه . وتسلق تزافيكا برج الدبابة وهنا انطلقت دبابة ثانية وأمسك الضابط الشاب بمكرفون واتصل بقائد الكتيبة وأبلغه أنه أعد قوة جاهزة للعمل. وأطلق قائد الكتيبة على هذه الوحدة « وحدة تزافيكا » .

وعند ذلك تقدمت الدبابتان اللتان يقودهما تزافيكا صوب الجبهة . وقد أخطرت كافة المدرعات التى كانت تعمل فى هذا القطاع عبر شبكة اللاسلكى بأن وحدة تزافيكا أنضمت للعمل . وقد روى فيما بعد أحد الجنود فقال : « عندما أبلغنا بالنبأ كان ذلك شيئا هاما بالنسبة لنا فقد اعتقدنا أن الامدادات فى سبيلها الينا » .

ان هذا الجندى كعشرات آخرين من رفاقه لم يكن يعرف أن وحدة تزافيكا تتكون من مدرعتين ألحقت بهما أعطاب شديدة تجعلهما صالحتين بالكاد للعمل .

وذكر تزافيكا « أنه ينبغى الآن أن يصل بأقصى سرعة ممكنة الى مكان المعركة وكنا نعتقد أن رفاقنا قد نجحوا فى احتواء التقدم السورى وانهم سيتمكنون خلال الليل من تطهير القطاع . وبكل تأكيد ستنتهى الحرب فى اليوم التالى . وكان على أن أنطلق من موقع على طول «طريق البترول» وأن أتقدم بعد ذلك على محور الخشينية . وكانت توجد هناك على مايبدو قوة سورية صغيرة وكان هدفى هو بلوغ الخطوط الأمامية لتأمين الطريق الذى يؤدى اليها .

وفى هذه اللحظة كانت مئات من الدبابات السورية قد توغلت على محور الخشينية بين المواقع الاسرائيلية ثم تقدمت دون أن تصطدم بأية عقبات وتحت أمرة تزافيكا كانت الدبابتان تتقدمان جنبا الى جنب لكى تؤمن كلا منهما الأخرى . كان الظلام دامسا غير أن الملازم الشاب كان يعرف طريقه تماما .

وبعد ساعة واحدة لمح تزافيكا أول دبابة سورية ويروى الضابط الشاب قصة هذا اللقاء فيقول :

« كانت الدبابة السورية على بعد عشرة أمتار منى وقد تمكنا من اشعال النيران بها منذ الضربة الأولى . وكان ذلك كافيا لاضاءة المكان . وهنا استدرت وقفلت عائدا بأقصى سرعة . وأدركت فى هذه اللحظة أن جهاز الارسال بالدبابة كان معطلا فصحت مناديا على هجايا الذى كان يقود المدرعة الثانية وقلت له :

« ان جهاز اللاسلكى لدى معطل .. لنتبادل الأمكنة فتأخذ دبابتى وآخذ أنا دبابتك . فقط أرجو أن تتابعنى بنظرك .. أليس كذلك . سوف تفعل كل ما أطلبه منك على وجه التحديد » .

« وهنا وصلت دبابة سورية أخرى الى المنطقة فتمكنا من اصابتها . ثم أدركت فى ذعر أن دبابة هجاى قد اختفت وانني محاصر بارتال من

مدرعات العدو • فأطلقت النار فى كل اتجاه وفى الهواء أيضا • لقد كنت مضطرا للتراجع • ولجأ السوريون الى اطلاق الصورايخ المضيئة لمعرفة مكانى • غير أن ذلك كان كفيلا بأن يتيح لى الفرصة لاشعال النيران فى المزيد من دبابات العدو • وفى هذه اللحظة اتصل بى القائد وسألنى عما بقى معى من الدبابات فأجبته قائلا :

« لم يبق معى الكثير •• اننى لا أستطيع أن أحدد ذلك الرقم •• أخشى أن تفقد روحك المعنوية » •

وعلى جهاز اللاسلكى استمع تزافيكا الى أصوات تستغيث • انها عناصر من اللواء الذى تتبعه ظلوا يقاتلون دون توقف فترة اندلاع القتال• لقد أصيبت سيارتهم النصف مجنزرة ولكنهم نجحوا فى أن يخرجوا منها وأن يتحصنوا خلفها • وبطبيعة الحال سيأخذهم السوريون فى الصباح أسرى بعد أن يقيدوا أيديهم وأرجلهم وينقلونهم فى احدى مجنزراتهم • وبعد يومين عثر فى احدى المجنزرات السورية على اثنى عشر جنديا قتلى وكان واضحا أن العدو قد بادر بقتلهم وهم مشدودى الوثاق قبل أن يلوذ هاربا •

وعلى شبكة اللاسلكى كان بوسع الانسان أن يسمع ما يدور فى كل مدرعة من مدرعات اللواء وكانت التقارير التى تنهال على مقر القيادة محزنة • لقد نفد الوقود كما نفدت الذخيرة • وعند منتصف الليل أدرك تزافيكا انه لم يعد بمفرده • فقد التقى بهاجى وبعدد آخر من المدرعات التابعة للواء آخر حضرت خصيصا لمعاونته • ولكنها على أية حال قوة ضئيلة اذا ما قورنت بما كان يتوافر للسوريين • الا أن تزافيكا واصل التقدم مع ما وصله من تعزيزات على طول طريق البترول وكانت الدبابات الاسرائيلية تكون فى تقدمها طابورين أحدهما يحمى الآخر • ومضى الضابط الشاب يروى قصته قائلا :

« وبعد قليل اشتعلت النيران فى دبابة المقدمة : لقد أصيبت بطلقة بازوكا وكان الطريق مسدودا بدبابات سورية مجهزة بالكشافات • ثم أصيبت لنا ثلاث دبابات أخرى واشتعلت فيها النيران كما أصيبت دبابتى وجرح جندى التنشين فأصبت بصدمة وبادرت بالقفز من برج المدرعة

بعيدا عن النيران المتصاعدة منها · وعندما انطرحت أرضا دار بخاطرى ما كان سيحل بى عندما تنفجر الدبابة · وهنا بدأت أعدو بعيدا لقد أصبت ولكن ليس الى الحد الذى يحتم اخلائى · وصعدت فى حركة بهلوانية على حافة احدى مدرعاتنا وطلبت من قائدها أن يقفل عائدا · لقد فقدت الدبابات الست الأخيرة التى تبقت لنا وطلبت الاتصال بالقيادة وعدت لأجد نفسى وجيدا من جديد · وهنا شاهدت طوابير الدبابات السورية تتقدم ومن خلفها سيارات الامداد والتموين ولكنها سلكت طريقا آخر بخلاف الطريق الذى كنا نسير عليه مما وفر على مؤونة الاشتباك خاصة واننى لم أكن أعرف شيئا عن حجم القوات السورية غير أننى علمت الآن أن فرقة كاملة كانت تعمل فى المنطقة وانها أقامت لها موقعا بالقرب من الخشينية ·

لقد احتلت الدبابة الوحيدة التى كان يقودها تزافيكا موقعا لها على طريق البترول · ولكنها كانت تخرج من وقت لآخر لتطلق النار على احدى الدبابات السورية وتدمرها ثم تعود لتختفى من جديد · وفى الثالثة صباحا عاد الهدوء الى القطاع وكف تزافيكا عن اطلاق النار · فقد طلب اليه القائد عبر اللاسلكى ألا يستنزف قوته وأن ينتظر الى حين وصول الامدادات صباح اليوم التالى · وعند الفجر انضم الى تزافيكا رتل من الدبابات وهنا قام بتوزيع دباباته فى تشكيل قتال تحسبا لما قد يتعرض له من هجوم ولكن نظرا لما كان يشعر به من انهاك فضل ألا يتصدى لقادة هذه المجموعة · وطلب باللاسلكى اخلاءه وبينما كان قائده يعده بأنه سيصل بنفسه قطع الاتصال اللاسلكى فجأة وابل من القذف المدفعى السورى · وأثر هذا القذف تقدمت موجة من الدبابات السورية فى تشكيل هجومى ·· ويقص تزافيكا هذا المشهد قائلا :

« لقد بدأ القتال ولم يكن يفصل بين الطرفين سوى ألف وخمسمائة متر · كان عددهم كبيرا ولكنهم لم يكونوا يعرفون كيف يقاتلون · وخلال ساعات النهار تمكنت أنا وهاجى وقائد آخر من تدمير عشرات من دبابات العدو · لقد كانت الأمور تسير بالنسبة لنا على خير وجه · وعند الظهر كان الموقف فى صالحنا تماما » ·

غير أن ذلك لم يكن سوى وهم من الأوهام وبينما كان تشكيل مدرع

سورى ينعطف جانبا وهو يسحق قوة تزافيكا قام تشيكل آخر بحركة التفاف وصب نيرانا كثيفة على نقطة الربط فى نفاع وعلى مقر القيـادة الاسرائيلية بها٠وفى هذه اللحظات العصيبة وفى الوقت الذى كان الموقف يوشك فيه أن يتحول لصالح العدو ، وصلت بعض التعزيزات : انهـا مدرعات اسرائيلية كانت قد قاتلت فى القطاع الشمالى ونجحت فى وقف التقدم السورى ؛ وهنا تخلى العدو عن نفاع وانسحب منها ٠

وعنـدئذ صعد الملازم تزافيكا الى دبابة أخرى وتقـدم على طريق البترول غير أنه كان مرهقا الى أبعد حد خاصة بعد قتال استمر ثلاثين ساعة دون توقف ٠ وقد تم ارساله الى احدى المستشفيات ٠ ويؤكد قادته أنه تمكن بمفرده من تدمير حوالى ستين مدرعة سورية ٠ غير أن الضابط الشاب لا ينسب لنفسه ــ تواضعا ــ سوى تدمير عشرين فقط ٠ ويتحدث تزافيكا عن هذه النقطة الى المراسلين الحربيين يوناشيمش وأهارون لاهاف فيقول : « هناك رجال بقوا على قيد الحياة وهناك للأسف من قتل وجميعهم حقق أعمالا رائعة لا نعرف عنها شيئا ٠ اننى أعلم أن شعب اسرائيل عقب هذه الحرب يبحث عن الأبطال ٠ لقد اراد البعض أن يصورونى كواحد من هؤلاء الأبطال ولكننى أعتقد أن جميع الرجال الذين كانوا فى الصفوف الأولى أنجزوا أعمالا خارقة واننى أشعر بضآلتى الى جوارهم » ٠

وفى الوقت الذى اجتاحت فيه الدبابات السورية القطاع الجنوبى من الجولان متجهة صوب وادى الحولة والأردن الا أنهم لم يتمكنوا بعد من دعم الخطوط الدفاعية أسفل جبل الخليل أو فى قطاع القنيطرة ٠ وفى الوقت الذى اندلعت فيه الحرب بدأت الوحـدة المدرعة الاسرائيلية التى تحتل هذه المنطقة تتحرك ٠ وخلال الليل اشتبكت المدرعات الاسرائيلية مع مدرعات العدو المجهزة بالاشعة تحت الحمراء ٠ ورغم هذا التفوق الا أن العدو لم يتمكن من التقدم ولكنه عاود مع فجر اليوم التالى الهجوم ورغم أنه تم تدمير لواء سورى بصورة كاملة تقريبا ، غير أن القيادة السورية العليا لم تتخل رغم ذلك عن المبادرة فقد كانت تلقى ارتالا من الدبابات فى موجات متتالية٠ وبطبيعة الحال فان احتلال القنيطرة وهى مدينة مهجورة مدمرة تقع على بعد بضع كيلومترات من خط وقف اطلاق النار أمر له

أهميته الحيوية بالنسبة للقوات السورية وللشعب السورى أيضا ٠ فالقنيطرة بالنسبة لهم رمز للجولان بأسرها ٠

وفى اليوم التالى من الحرب صدت كافة المحاولات السورية ٠ وفى المساء كانت الدبابات الاسرائيلية تعانى من نقص الوقود والذخائر ٠٠ وكان الاسرائيليون يعرفون أن ليلة قتال أخرى تنتظرهم ٠ وتحت قصف مركز من مدفعية العدو ٠ تمكنت قافلة امداد من الانضمام للوحدات الاسرائيلية وبذلك أمكن تزويد هذه الوحدات بحاجتها مباشرة قبيل الهجوم السورى الذى أمكن صده شانه فى ذلك شأن الهجمات السورية الأخرى التى شنها السوريون فيما بعد ٠ وفى نفس الوقت انقض سلاح الطيران على دبابات العدو وأسهم فى وقف تقدمها ٠

وكان موشى ديان وزير الدفاع مهتم بصورة خاصة بسير العمليات على الجبهة السورية وخلال حرب « الاستقلال » عندما اجتاحت دبابات العدو سفح الجولان ، واحتلت قرى ماسادا وشناعار وهاجولان وطريق نسيماح ، تمكنت منطلقا من هذه النقاط أن تندفع حتى أسوار مستعمرة دجانيا اليب ، عندئذ بادر بن جوريون بايفاد ديان لتنظيم الدفاع عن وادى الأردن ٠ ولم يستخدم فى ذلك الحين سوى وحدات من المدفعية ٠ وبعد ٢٥ عاما لاحظ ديان أن نفس المشكلات تطرح من جديد وفى نفس القطاع ٠

حقا نجح الطيران الاسرائيلى فى تدمير عدد كبير من مدرعات العدو ولكنه لم يتمكن من ايقاف تدافع الدبابات السورية التى بلغ عددها ألفا ومائتى دبابة وفضلا على ذلك فان الطيران السورى نشط بصورة ظاهرة فى هذا القطاع ٠ وحتى نستطيع العمل بصورة فعالة كان يتعين ضرب الخطوط الخلفية للقوات السورية وتحييد الطيران وبالتالى تدمير النقط الاستراتيجية والمطارات والمنشآت العسكرية للعدو ٠ وفى هذا الصدد يروى أحد طيارى الفانتوم ما يلى :

« انطلقنا فى تشكيلين وحلقنا فوق دمشق فاشتبكت المدفعية السورية المضادة للطائرات معنا ولكننا نجحنا فى التقدم دون خسائر كثيرة خاصة وان العدو كان يستخدم الصواريخ أرض ـ جو على نطاق

ضيق • وبطبيعة الحال فان تحديد مبنى معين فى مدينة كبيرة مثل دمشق لم يكن بالأمر الميسـور • واندفع كل من التشكيلين نحـو هدفه يهاجمه وألقينا عشرات الأطنان من القنابل وألقى أحد طيارينا واحدة من قنابله فى الطابق الثانى وتم ذلك باحكام تام •

وكان هـذا المبنى هو مقر قيادة السلاح الجوى السـورى ويقع فى قلب العـاصمة • وكذلك تم قصف مبنى وزارة الدفاع • وفى الأيام التالية هاجم الطيران المطارات ومعامل تكرير البترول والكبارى وصهاريج الوقود • وقد انفجرت معامل تكرير حمص واندلعت بها نيران رهيبة •

وقد اعترف زكريا اسماعيل نائب وزير الخارجية السورى بفاعلية الغـارات وأوضح فى هذا الصـدد : « لقد دمر معمل لتكرير البترول وكذلك ٨٩٪ من محطاتنا المولدة للطاقة الكهربائية » •

غير أن أجهزة الدفاع الجوى التى أقامها السوفييت كانت عقبـة لا يستهان بها •

فقد روى أحد الطيارين مشهدا من مشاهد هذه المقاومة فقال : منذ الطلعات الأولى فقدنا الكثير من رفاقنا •• وعندما أسقطت طائراتهم أدركنا أنها الحرب فعلا بويلاتها وفى ميز الضـباط كنا نحصى الأماكن الشاغرة على الموائد •

لقد كان السوريون يطلقون صواريخهم بصورة هوجاء دون أدنى حساب فكانوا يطلقون العشرات منها على الطائرة الواحدة • وكان كثيرا ما يحدث أن يفقد الطرفان خلال معركة جوية نحو الخمسين طائرة •

وفى هذا الصدد ذكر أحد طيارى الجولان : « عنـدما تجلس فى مقعد طائرتك لا يكون أمامك وقت للخوف فتنتابك رعشة عندما تقلع ثم بعد ذلك تنسى نفسك • ثم عندما تعبر الحدود تنتابك رعشة أخرى ولكنك تقول لنفسك عندئذ • على أن أفعل كل ما فى وسعى • فاذا لم تكتشف الهدف أو اذا أخطأته بعد أن تكتشفه فان طلعتك يكون لا معنى لها • أنه لأمر بغيض أن تعود الى قاعدتك وطائرتك لا تزال محملة بالقنابل كذلك فانه لبغيض أن تتخلص منها فوق البحر » •

وبينما كان الطيران الاسرائيلي يفعل كل ما في وسعه في الجولان بدأت وحدات الاحتياطي تصعد الجولان في نظام · انهم في وضع أدنى ما قورنوا بالسوريين الذين يحتلون المرتفعات · وبطبيعة الحال فانه من الصعب الاشتباك في قتال خلال عملية الصعود ·

لقد تلقى ران الذى كان يقود احدى الوحدات أمرا بالتحرك فى الساعة العاشرة من يوم السبت · وفى طول البلاد وعرضها قامت السلطات بتجميع أطقم الدبابات التابعة لوحدته بل أن بعض هذه الأطقم نقل مباشرة الى الشمال بالطائرة ·

وفى الخامسة من صباح الأحد ٧ من أكتوبر اجتازت دبابات ران نهر الأردن ·

« لا تستطيع أن تقول النا كنا على استعداد للحرب بل اننا توجهنا لملاقاة العدو بأقصى سرعة ·· ومررنا خلال ذلك بكاتشا : وهناك وقع أول اشتباك لنا مع العدو · ولو قدر لنا أن نصل الى هناك بعد ذلك بساعة واحدة لكان السوريون قد بلغوا عين جويف وربما عبروا نهر الأردن · وتلقيت تعليمات بأن أطوق العال وان احتوى التقدم السورى بأى ثمن كان وفعلا نجحنا فى مهمتنا وأوقفناه هناك على بعد خمسة كيلومترات من بحيرة الجليل · غير أننى أصبت بشظايا قنبلة وتم نقلى الى المستشفى للعلاج حيث مكثت ثلاثة أيام · وفجر اليوم الرابع عدت الى وحدتى » ·

أما بواز كوهين وهو من جنود الاحتياطى ويبلغ من العمر ستة وعشرين عاما ومن سكان مستعمرة كريات حاييم من ضواحى حيفا فقد قرر أن يمضى اليوم الأول من عيد الغفران على شاطىء البحر · كان متمددا على بلاج كارمل يستمع الى موسيقى بوب التى تذيعها محطة اذاعة أبى نتان · المعروف أن أبى نتان كان يرسو فوق سفينة السلام فى ميناء أشدود وكانت محطته هى المحطة الوحيدة التى تبث برامجها فى هذا العيد · وفى الساعة الثانية ظهرا التقط أبى نتان من اذاعة القاهرة نبأ اندلاع الحرب وعندئذ أوقف برنامجه الموسيقى لاذاعة النبأ · غير أن بواز كوهين كان مقتنعا أن أبى نتان كان يمزح وعندئذ أخذ عدد من الاسرائيليين يعدو فوق الشاطىء مرددين « انها الحرب » انها الحرب وعندئذ عاد بواز

الى منزله على عجل حيث وجد أمرا بالتعبئة ينتظره هناك • ويحدثنا بواز عن هذا اليوم فيقول : « استقليت السيارة فى الطريق الى الجولان وكنت مقتنعا بأن ثمة شيئا جللا يحدث هناك ولكننى لم أكن أتصور انها الحرب .. لو كان الأمر كذلك لتم استدعائى قبل ذلك » •

وعندما وصل الى وحدته لم يجد هناك دبابة واحدة فصعد الى احدى المجنزرات المتجهة صوب طريق البترول • ويحدثنا بواز عما حدث اذ ذاك فيقول : وخلال تقدمنا على الطريق علمنا أن المعارك تشمل الجولان بأسره وان القتال يدور فى كل مكان وكانت دباباتنا تحكم قصفها على ضوء النيران المتصاعدة ومضينا فى طريقنا وشاهدنا مدرعات اسرائيلية والنيران مشتعلة فيها وظللنا يقظين طوال الليل حتى الصباح • ولقد وصل السوريون الى ميمنتنا ولم يكن هناك من يرد على نيرانهم • ولم يتوقف السوريون عن اطلاق النار • لقد كان فى مواجهتنا ثلثمائة دبابة للعدو • وهنا بدأنا الانسحاب وعدنا الى طريق نفاع دون أن ندرى أى سبيل نسلك • وأعدنا تنظيم دباباتنا الثلاثة حتى نصبح فى وضع يمكننا من الدفاع عن أنفسنا • وكانت هناك عشر مدرعات سورية تطلق النار علينا طوال الليل • وعندما بدأنا ننام فى أبراج دباباتنا كانت جميع مدرعات العدو قد أصبحت غير قادرة على القتال ولم تمض خمس عشرة دقيقة حتى كنا نستسلم جميعا للنوم داخل مدرعاتنا بلغنا احساس مخادع بالأمن •

وبينما كانت دبابات وحدات الاحتياطى تحاول احتواء طوابير المدرعات السورية واصلت بعض الوحدات المنعزلة أو المحاصرة قتالها اليائس • لقد غادر بواز دبابته المحطمة وعاون هو ورجاله الذين نجو من الموت فى اخلاء الجرحى وانتقل معهم سيرا على الأقدام ليحتمى بأحد المواقع الاسرائيلية بالقرب من رافيد • ويروى لنا بواز بعض التفاصيل الأخرى فيقول :

« يوم ٧ أكتوبر كان طابور سورى يتقدم فى الجولان وكان يسير على محور قطنة ـ الخشينة ثم لم يلبث أن تقدم طابوران ويخيل لى أننى رأيت هذا المشهد منذ سنوات مضت فى الأفلام السينمائية التى كانت تتناول أحداث الحرب العالمية الثانية عندما اجتاحت جحافل الجيوش الألمانية أوربا • لقد كانت الطوابير المدرعة الثلاثة تتقدم يفصل بين كل

منها الآخر خمسون مترا • وكان يسير بين الدبابات بعض عناصر المشاة ومن خلف الطوابير سيارات الامداد والتموين الخاصة بكل طابور • وفى بطء تقدم هذا الجيش الهائل داخل أرضنا • ليس هناك ما هو أكثر ايلاما من أن يكون الانسان هناك لا يقدر على أن يفعل شيئا ازاء قوات العدو • وهنا بادرت بتقديم تقريرى الى رئاسة الفرقة وقلت فيه « ماذا عسى الطيران أن ينتظر حتى لا يضرب هذه الكتل المتراصة » • ولم تمض دقائق حتى ظهرت طائرتان وهاجمت فى انقضاض عمودى الدبابات السورية غير أن العدو واصل تقدمه كأن شيئا لم يحدث بل انه لم يطلق الصواريخ تجاهنا بل اكتفى باطلاق بعض الصواريخ المضادة للطائرات • وبعد خمس دقائق أصيبت طائرة فانتوم واختفت أخرى وعند هذا الحد توقف نشاط الطيران الاسرائيلى طوال اليوم وواصلت المدرعات السورية تقدمها • وكان معنا بعض الجرحى الذين يعانون من بعض الحروق • وصدرت الينا التعليمات بأن نتجه الى طريق رافيد للانضمام لوحدتنا ، وهنا أدركنا بسرعة أن اخلاء الجرحى لن يتم بسرعة وعلينا أن نضطلع مرة أخرى بالدفاع عن موقعنا •

ومضى الضابط الشاب يسرد فصول هذه الأيام الأولى فقال : لم يتبق معنا سوى اثنتى عشرة دبابة • فقط اثنتى عشرة دبابة لكل القطاع الجنوبى من الجولان • وظللت هناك حتى الظهر • كنت أعلم أن وحدتنا قد تحصنت فى تل فارس وفى المناطق المحيطة بها • غير أن المدفعية السورية بدأت تقصف رافد ولم يكن هناك تقريبا أثر لسياراتنا المتوسطة بما فى ذلك سيارات الاسعاف وفجأة ساد السكون • وبعد قليل بدأت طائرات الهليوكوبتر السورية تنزل رجال الكوماندوز • وكنا نخشى أن تشن هذه الوحدات الهابطة من السماء هجومها على المعقل الذى اختفينا داخله • لم يكن الموقف بالغ السوء فقد كان عدد كبير من الجرحى متمددا على الأرض • وفتحنا نيران مدافعنا الرشاشة على طائرات الهليوكوبتر وانضمت مدرعاتنا الينا فى اطلاق النار على العدو • لقد هبطت الطائرة الأولى وأصيبت الثانية وتحطمت على الأرض ولكن ها هى ذخيرتى تنفد ولم يتبق معى سوى مسدس ولكنه كان فارغا •

« وكنت أسمع عبر اللاسلكى أحد نقط التعزيز التابعة لنا فى جنوب القطاع تستغيث • ولكننا لا نستطيع أن نقدم لها شيئا • فنادى

على قائد الموقع فى اللاسلكى وقال : « ينبغى أن ترسلوا مساعدات » ولكن بماذا عساى أن أجيب على هذا الشاب التعيس • كنا لا نكاد نعرف كيف نستطيع أن نتقدم مترين الى الأمام فكيف فى ظل هذه الظروف أن نقدم له المعونة • وفى لحظة قطع الاتصال اللاسلكى بنا فهناك مدرعتان سوريتان تحاولان اقتحام موقعه وقد علمت فيما بعد أنه نجح فى أن يدمر الدبابتين قبل أن يصاب • ولم أكن أتصور أن العالم صغير الى هذا الحد فقد عرفت أن هذا القائد أحد أبناء قريتى •

« كان هناك موضوع يقلقنى • لقد كنت أقول لنفسى : ان السوريين لا يقاتلون بصورة سيئة ولكنهم يقاتلون تماما وفقا للأسلوب الذى تدربوا عليه وعندما كانوا يتعرضون لحادث مفاجىء أو يتحتم عليهم تغيير خططهم فانهم كانوا يصبحون فى منتهى السوء • وعندما كنت أفكر فى هذا السورى القصير المكتنز الذى قتله دانى بيركوفيتش أحد قادة دباباتنا كنت أدرك لماذا كنا نتمكن من الخروج من المآزق • التى نواجهها فنحن قادرون فى غضون ثوان قليلة أن نقوم العمل الذى ينبغى » •

وباختصار توقف السوريون عند منتصف الطريق فى الجولان ولم يواصلوا تقدمهم لماذا ؟ هذا ما ينبغى أن نستفسر منهم عنه وأتعشم أن تتاح لنا فرصة فى المستقبل •

ويوم الاثنين ٨ أكتوبر نجحت الوحدة المدرعة بقيادة بواز فى أن تشق طريقها فى صفوف العدو : لقد تمكنت من الانضمام الى وحدات الاحتياطى التى كانت تتقدم فى خطوط منتظمة لوقف تدفق الدبابات السورية • وبسرعة تحول الموقع السورى المتقدم عند الخشنية الى « جيب » وعندما أحكم تطويق هذا الجيب أصبح مقبرة هائلة لمئات من الدبابات ولأطقمها •

كان تل فارس يرتفع بين الخشنية ورافد فقد كان هذا التل جزءا من الشبكة الجبلية التى تطوق الجولان وكان تشكيل من الدبابات قد تمركز أسفل هذا التل بعد أن تقدم فى اليوم الأول من القتال لنجدة بعض وحدات الخطوط الأولى وكان هذا التشكيل يتكون من أربع دبابات وأربع مجنزرات تحمل وحدة مشاة ويوم ٩ أكتوبر تلقى تعليمات

باستعادة تل فارس من السوريين • كانت تقف على الطريق المفضى الى مدخل التل مدرعة ســورية واحــدة غير أن التل كان مكتظا بالمشــاة السوريين •

وعندما ظهرت الوحدة الاسرائيلية استقبلها وابل من النار أطلقه السوريون من فوق التل فاصيب أحد قادة الدبابات وعندئذ أمر أمير وهو قائد الوحدة رجاله بأن يتقهقروا وأن يحتموا بسفح التل •

ومن جديد بدأ الهجوم • فى المقدمة الدبابة الوحيدة التى بقيت لى ومن خلفها المجنزرات الأربع وأطلقت الدبابة ثلاثا من قذائفها صوب التل فلاذ المشاة السوريون بالهرب غير أن الدبابة الســورية التى أجيــد تمويهها لم تنسحب من موقعها • وفجأة أصيبت المدرعة الاسرائيلية وكذلك ثلاث من المجنزرات الأربع • وكانت الوسيلة الوحيدة لاجلاء العدو هو اللجوء لأساليب حرب المشاة • لقد قفز الرجال من مجنزراتهم المشتعلة وطوقوا الدبابة السورية واستخدموا كل ما كان فى أيديهم من رشاشات وقنابل يدوية غير أن العدو رد باطلاق النار فى كل حدب وصوب فسقطت قنبلة يدوية اسرائيلية على برج الدبابة غير أن قائد الدبابة نجح فى أن يقذف بها مرة أخرى على المهاجمين وعندما فرغت الذخيرة من طاقم الدبابة قفزوا خارجها محاولين الهرب ولكن رجالنـــا كانوا لهم بالمرصاد على الفور •

وعندئذ بدا التل مهجورا فقامت الوحدة الاسرائيلية بتطويقه لاحكام السيطرة عليه • وهنا ظهر أعلى قمة التل ثلاثة رجال ففتح الاسرائيليون النار عليهم فاختفت الأشباح الثلاثة • غير أن أحد رجال القوة الاسرائيلية سمعهم وهم يتحدثون بالعبرية فقال أنها خدعة انهم يحاولون تضليلنا • ولكن عنــدما ظهرت الأشباح الثلاثة مرة أخرى أمكننا التعرف عليهم على الفور انهم اسرائيليون أفراد وحدة قاتلت يوم السبت فى تل فارس ثم تمكنوا من الافلات لقد ظلوا مختبئين طوال الأيام الثلاثة الماضية دون أن يتمكن السوريون من كشف امرهم • وعلى أية حال لن يكونوا وحــدهم فى هذه الحالة وقد تمكنت وحدة من بينهم من أن تلوذ بالهرب عبر نقطة الدعم السورية الحصينة فى جبل الشيخ التى تمكنت وحدات الكوماندوز السورية من الاستيلاء عليها •

وعندما شن السوريون هجومهم على هـذا الموقع والتلال المجـاورة تحصن الاسرائيليون فى دشمة ذات جدران خرسانية . وفى هذا المعقل الحصين المكون من ثلاثة طوابق تحت سطح الأرض قسم الاسرائيليون أنفسهم الى ثلاثة أقسام فقد احتلت كل مجموعة احدى القاعات والمجهزة بالمعدات الالكترونية الحديثة بعد أن أغلقت الأبواب الداخلية باحكام . ومع هبوط الليل فتح القائد ومجموعته احد الأبواب الخارجية للنقطـة الحصينة وتوغلوا فى صفوف العدو الذين كانوا يطوقون الحصن . وحتى تتفادى هذه المجموعة أى صدام مع العدو اتجهوا فى بادىء الأمر الى سوريا وبعد مسيرة طويلة على الأقدام تمكنوا من الوصول الى قطـاع يسيطر عليه الاسرائيليون .

وفى اليـوم التالى تمكن السوريون من دخول النقطة الحصينة عبر الباب الذى تركه القائد مفتوحا . وفى أحد الطوابق الآخرى قاوم الجنود الاسرائيليون المتحصنون خلف الأبواب الفولاذية خمسة أيام قبـل أن تأسرهم القوات السورية .

وفى يوم الثلاثاء ٩ اكتوبر تمكنت القوات الاسرائيلية فى الساعات الاولى من المساء من تطهير جيب الخشينة ورغم خسائر العدو التى تقدر بمئات الدبابات وآلاف الصواريخ واصلت القيادة العليا السورية الحرب فى الجولان واخذت القوات السورية تطلق من داخل سوريا عشرات من صواريخ أرض ارض من طراز فروج. ولم تكن هذه الصواريخ تستهدف المواقع العسكرية فقط بل انها كانت موجهة ايضا ضد بعض المواقـع المدنية على بعد ٧٠ كيلو مترا من الجبهة . وقد سقطت بعض هـذه الصواريخ فوق بعض قرى وادى جيزيل التى أصبحت منذ حرب ١٩٤٨ فى مامن من أهوال الحرب . وسقط بعضها الآخر على مستعمرة بتسمار ها اميك ونهالال وكفار باروخ وساريد وايفات وجفات . وقد قـام الطيران الاسرائيلى كاجراء انتقامى بقصف دمشق .

وبينما أمكن صد القوات السورية أو تدميرها فى القطاع الجنوبى من الجولان حاول السوريون التقدم فى مواجهة القنيطرة .

وخلال أيام القتال الثلاثة الأولى كان السوريون يشنون هجـومين او ثلاثة يوميا أو هجوم واحد كبير على الأقل خلال الليل وقد تمـكن

تشكيل اسرائيلى مدرع واحد من ان يصد كل هذه الهجمات وكان ذلك من حسن طالع الاسرائيليين لأنهم لم يكونوا يحتفظون بأى خطوط دفاعية خلف هذا الخط . فلو قدر للسوريين أن ينجحوا فى التقدم لكانوا قد اجتاحوا وادى الحولة والجليل الأعلى وما كانت لتوقفهم أى قوة كانت وربما كان هذا الاحساس هو الذى أعطى للجنود والضباط الشجاعة والقوة لأن يقاتلوا دون توقف اربعة ايام وثلاث ليال .

ومنذ حرب الأيام الستة وبوسى معروف بأنه أحد جنود الجيش الاسرائيلى المشهورين الى حد أن مجلة ليف الأمريكية نشرت له على غلافها صورة وهو يداعب برجليه مياهقناة السويس . غير أن بوسى كان غائبا عشية حرب عيد الغفران فقد كان يمضي بعد زواجه شهر عسل فى الخارج . ولدى اعلان نبأ الحرب عاد بوسى الى اسرائيل فى أول طائرة ومنذ اليوم الأول لعودته قاد احدى وحدات المدرعات فى الجولان وكانت مهمته أن يخف لنجدة تشكيل من المدرعات بقيادة احد رفاقه كان السوريون يحاصرونه .

ولو قدر له أن يتوانى دقائق معدودة فانه ما كان ليمكن انقاذ هذا التشكيل . فقد تمكن بالدبابات القليلة التى كانت تحت امرته فى أن يوقف المدرعات السورية التى لم يكن يفصلها عن مواقعنا سوى ثلاثين مترا ثم ما لبثت وحدة أخرى معادية اتت من الشمال من صد السوريين وقد أصيب بوسى فى هذه المعركة التى استمرت ساعة ونصف . لقد خلف العدو وراءه على ساحة المعركة مائة وثلاثين دبابة كان معظمها من أحدث طراز صنع فى الاتحاد السوفييتى .

وفى يوم الأربعاء ١٠ أكتوبر تجمعت الوحدة الاسرائيلية من جديد بفضل التعزيزات التى وصلتها مما مكنها من الانتقال الى الهجوم وكانت هذه هى أول وحدة اسرائيلية تعبر خط وقف اطلاق النار جهة الشرق على طريق القنيطرة دمشق ومنذ اللحظات الأولى للهجوم الاسرائيلى المضاد تمكنت المدرعات الاسرائيلية من اقتحام التحصينات الدفاعية السورية . ويمضى الضابط الشاب يقول :

« ومنذ اللحظة التى انطلقنا فيها الى الهجوم لم يعد هناك ما يوقفنا وفى يومين وجدت نفسى على بعد خمسين كيلو مترا من دمشق .

وبنـــاء على قرار اتخذته القيادة صدرت الى تعليمات بأن أوقف أى تقدم وأن اتمركز على خط أصبح بعد عشرة أيام يعرف بخط وقف اطـــلاق النـــار » .

« وخلال هذه الأيام العشرة تمكنا من تطهير الأرض التى استولينا عليها وصد بعض الهجمات المضادة للعدو والآن ها هى الأمور تنقلب رأسا على عقب . فها هم السوريون ينتقلون الى الدفاع وها هى الحرب تنتقل الى داخل أراضيهم » .

« ان السوريين لا يعرفون بعد أن قوات الهجوم الاسرائيلية تلقت تعليمات بأن توقف تقدمها صوب دمشق . لقد أرسلوا كل ما لديهم من قوات احتياطى الى الجبهة . وكانت الفرقة المدرعة الثالثة برئاســة شقيق الرئيس حافظ الأســد من بين الامدادات التى تلقاها السوريون فى هذا القطاع ومن الشرق والجنوب وصلت فصائل مدرعة عراقيــة وسعودية . ومن الأردن جاء دعم الملك حســين فى صـــورة لواء مدرع مزود بدبابات من طراز « باتون » .

ولم يكن حسين فى عجلة من أمره لدخول الحرب ولعل ذكـرى حرب ١٩٦٧ الأليمة لاتزال ماثلة فى ذهنه ويكفى التهديد بشن هجـوم جوى على الأردن كى يجعل الملك حسين يعدل عن الهجوم . ولكن الملك حسين مقيد بميثاق شرف تجاه العرب ولكنه وجد مخرجا لذلك بأن يرسل لواءه المدرع رقم ٤٠ ان أحدا فى اسرائيـــل لا يريد الانتقام من الملك حسين وعندما تم تحطيم الدبابات الأردنية الأولى داخل ســوريا ظلت اسرائيل تحتفظ بالسر عدة أيام حتى لاتنال من هيبة الملك ونفوذه .

لقـد كان الضابط الاسرائيلى الذى كلف بمهمة مواجهــة المدرعات الأردنية ومنعها من معاونة سوريا عائدا لتوه من الولايات المتحدة قبيل الحـرب مباشرة . وهنـاك تلقى فى فورت كنوكس دورة تدريبية لضباط المدرعات . وفى هذه القاعدة نفسها التى تعرف باسم باتون كان العـديد من الضباط الاسرائيليين والأردنيين يتلقون تدريباتهم جنبا الى جنب . وعندما بدأ الأردنيون الموجات الأولى من هجومهم أخرج القـائد الاسرائيلى من جيبه صورة بالألوان : انها صورة له مع ضابط أردنى وعلى الفـور

تمنى ان يكون خصمه فى هذه المعركة ذلك الضابط الأردنى ؛ خلال المعركة كان الضابط الاسرائيلى يتمتم بينه وبين نفسه قائلا :

« اننى اتساءل ماذا عساه ذهب ليفعل فى فورت كنوكس » ومن بين الألف ومائة دبابة التى دمرت لسوريين فى الجولان فان الوحدة التى يتصدى لها تضم ثلثمائة وخمسين دبابة وعندما وضعت الحـــرب أوزارها وعاد الهدوء النسبى الى المنطقة ووجدنا جنــود المدرعات الاسرائيليين يتوافدون على المنطقة يتجولون بين حطام الدبابات المحترقة يحصونها ويحصرونها ويرددون :

« هذا أمر مستحيل ما فعلناه » انهم يطلقون على هذا المكان اسم « وادى الموت » .

وفى يوم ١١ اكتوبر لم يعد وجود دولة اسرائيل معرضا للتهديد .



وثيقة .. باللغة السرية

فيما يلى النص الكامل للمؤتمر الصحفى الذى عقده موشى ديان وزير الدفاع الاسرائيلى مساء ٩ أكتوبر - رابع أيام القتال - امام مجموعة من المحررين ورؤساء تحرير الصحف الاسرائيلية .

وقد احتفظت اسرائيل بامر هذا المؤتمر سرا حتى منتصف فبراير ١٩٧٤ . وكان التصريح بنشر هذا المؤتمر فى هذا التاريخ يستهدف تكذيب ما تردد من أن وزير الدفاع كان منهارا من الناحية المعنوية خلال الاجتماع .

ديان : بموافقتى سيتم تغيير جدول أعمال المؤتمر لأن قائد سلاح الجو سيلحق بمقر قيادته . وسأقدم لتصريحه بما يلى :

كنا ننوى أن نحشد كل جهودنا من أجل تحييد سوريا وأنا لا أعرف ما اذا كان فى وسعنا أن نرغمها على طلب وقف اطلاق النار . ولكننى أعتقد وآمل أن نتمكن من اسكات مدافعهم والحد من قوتهم الى أقصى حد ممكن . ولتحقيق ذلك سوف نضرب على جبهتين : او سنحاول تدمير قوات العدو على الخطوط الأولى ونحن الآن قريبون من تحقيق هذا الهدف وفى هذه الساعة فانهم لم يبدأوا بعد معارك الارتداد ، ولكن

اذا ما أقدموا على ذلك فان هـــذا لا يعنى أنه قد تم تدميرهم لأن ذلك سيكلفنا الكثير : ان تدمير دبابة ليس كسحق زهرة ٠

ان السوريين يقاومون ، وعلينا أن نضع ذلك فى حسابنا ، ولكننا نوشك على الحـد من قوتهم ولكن ليس فى وسعى أن أذكر أمامكم عـدد المدرعات السـورية التى لا تزال داخل أراضـينا ٠ غير أن ذلك ليس سوى النقطة الأولى التى أريد ايضاحها أما النقطة الثـانية فهى ان عملنا سيمتد الى داخل سـوريا نفسها أن السوريين سيشـعرّون بخيبة أمل عندما لا يبلغون الأهداف التى حددوها وستكبدهم الحرب الكثير الى حد انهم سيندمون على ما فعلوا . سنضرب قلب سوريا بالطائرات .

والآن يحـــدثكم قائد الطيران عن الماضى والمستقبل وعن دمشق بصورة خاصة ٠

وهنا أدلى بنيامين بليد قائد ســلاح الجو بتصريح غير أن الرقابة منعت نشر هذا التصريح ولكنه أنهى تصريحه على النحو التالى :

(تسلم بليد خلال ادلائه بتصريحه مذكرة مطوية) .

لقد تلقيت أنباء هامة . ان الطيار والملاح اللذين قفذا بالمظلة فوق سيناء لم يصابا بسوء وقد أمكن اعادتهما الى قاعدتهما .

ديان : هذا الطيار هو ابن بليد .

بليد : لقد أرسلا مرة أخرى فى مهمة قتالية هذه الليلة ٠

ديان : شكرا يا سيد بليد .

قبل أن أتناول الموضوعات الأساسية التى طلبت أن التقى بكم من أجلها لدى ملاحظات ثلاث أريد أن احدثكم فيها بشأن الرادار اللبنـانى الذى أضيب بأعطال كمـا أخبركم بليد فقد تلقينا تأكيدا رسميا بذلك من لبنان ٠ اننى أخبركم بذلك وأرجو ألا تنشروا شيئا عن هذا الموضوع لقد وعدنا اللبنانيون بألا يضعوا هذا الرادار فى خدمة السوريين خـلال الحـرب ٠ وقد علمنا أن بعض الطائرات السورية قد هبطت فى لبنـان ولكنهم أكدوا هنا أن ذلك الهبوط كان اضطراريا والآن أصبحنا على يقين من أن هذا الرادار وضع فى خدمة السوريين . ولما كانت الوعود لم تحترم

فاننا سننطلق نحو تدمير هذا الرادار . واننا لانريد أن نجر لبنان الى الصدام ولكننا لا نستطيع أن نقبل أن يقدموا معونتهم للسوريين ، فاذا ما أصر اللبنانيون على معاونة السوريين فاننا سنبادر الى العمل ، أما الملاحظة الثانية فهى بخصوص الصواريخ أرض - أرض من طراز فروج التى استخدمها السوريون ثلاث مرات خلال الأيام الثلاثة الماضية : أمس ويوم ٧ أكتوبر واليوم . لقد أطلقوا ستة صواريخ . لقد استهدفت الصواريخ الثلاثة التى أطلقت يوم الأحد رمات دافيد . لكن طاش أحدها عن هدفه أما الثانى فقد انفجر فى حديقة للأطفال فى جوفات حيث لم يكن هناك لحسن الحظ أحد . أما الثالث فقد سقط على منزل خاص فى رمات دافيد . ومنذ أن أذيع النبأ بادر المتحدث السورى ليؤكد أن السوريين لا يقصدون أهدافا مدنية . وهذه هى المرة الأولى التى تظهر فيها صواريخ أرض - أرض فى منطقة الشرق الأوسط . فلم يسبق لأى طرف من المتقاتلين أن استخدمها خلال الحروب السابقة ، ولم يحدث ذلك مطلقا، ولم يقدم عليه أحد. ولم يحدث أن تعرضت المراكز المدنية للقصف وعندما حدث ذلك فى أبو زعبل بصفة خاصة - فان ذلك كان فعلا من باب الخطأ . حتى فى هذه الحرب لم يقدم العرب على ذلك ولكن عندما يقع ذلك فانهم يبادرون بتوضيح أن ما وقع كان من باب الخطأ .

اننا نعتقد أن الصواريخ أرض - أرض القادرة على بلوغ أهدافها على بعد ٧٠ كيلو مترا أمر ينطوى على نتائج خطيرة - فاذا ما أطلقت من داخل الأراضى السورية فانها تستطيع أن تصيب نازاريت ومجدل هايك أو رامات دافيد فضلا على كريات شيمونه أو طبرية .

هذه هى الأسباب التى جعلتنا نقرر ضرب دمشق ، ان استخدام هذه الصواريخ هو أحد الأسباب التى جعلتنا نقرر العمل ضد دمشق . لقد قصفنا لأول مرة أهدافا داخل دمشق نفسها . ففى وسط المدينة تتمركز المبانى الحكومية : هيئة أركان القوات الجوية ، ووزارة الدفاع ، والقصر الجمهورى . ومن حيث المبدأ لا توجد مساكن مدنية حول هذه الأبنية ، ولكننى لا أستطيع بطبيعة الحال أن أؤكد انه لم يصب خلال ذلك مدنى واحد أو أى من الموظفين الذين يعملون فى هذه الأبنية . لقد فكرنا طويلا قبل أن نتخذ هذا القرار لأن هذه هى المرة الأولى التى نهاجم فيها دمشق . اننى لا أعرف كيف سيكون رد الفعل الأمريكى وهو أمر

كان يستحوذ دائما على اهتمامنا خاصة فى المواقف الراهنة. ولكن كان هناك استخدام الصواريخ أرض ـ أرض من طراز فروج . وهناك أمر آخر أكثر اهمية دعوتكم من أجل الحديث بشأنه .

لدينا جبهتين : الجبهة المصرية والجبهة السورية اننا نريد تحييد الجبهة السورية فهذا أمر له من وجهة نظرى الأفضلية الأولى . فمن جهة لأنها ملاصقة لبلادنا تماما . لقد نجحنا فى مقاومة الهجمات السورية وفى تحييد وتدمير قوتهم . فلو نجحت القوات السورية فى أن تتمركز على جبال الجولان ، فانه سيكون فى ميسورها قصف سهل الحولة بأكملها داخل أراضينا . اما مع المصريين فان المشكلة مختلفة : انها بطبيعة الحال مشكلة كبيرة ولكنها لن تعرض للهلاك ـ على الأقل على المدى القريب ـ اسرائيل وشعبها . هذا واحد من الأسباب التى تبرر الأفضلية التى توليها للجبهة السورية بكل ما ينطوى عليه ذلك . واننى أعتقد أننا نوشك على تدمير القوات المدرعة المصرية فى سيناء . وبالتالى فان سوريا هى التى ينبغى أن نوليها اهتمامنا . فاذا كانت تخوض غمار حرب فانها ستكلفها الكثير .. فاليوم نهاجم أهدافا اقتصادية وعسكرية: الكهرباء والبترول والمعسكرات والمطارات . ونهاجم غدا ، اذا ما اقتضى الأمر ، هيئة الأركان العامة ووزارة الدفاع ولكننا لا نستطيع أن نفعل ذلك يوميا ليس بسبب الصعوبات العسكرية فحسب لكن لأسباب سياسية أيضا . ونستطيع الآن أن نسمح لأنفسنا بذلك غير أن الاستمرار فى قصف دمشق أمر صعب .

لقد قررنا أن ندرج قصف دمشق فى اطار خطة عامة للحرب . وسنبذل أقصى جهد ممكن لتحييد سوريا . ولعل العائق الأساسى يكمن فى السكان المدنيين وبخلاف ذلك لا توجد مقدسات لا يجوز المساس بها : سوف نهاجم ، ان لم يكن دمشق أو غيرها ، وسنفعل كل ما ينبغى من أجل تحييد سوريا . ولتحقيق هذه الغاية فان طيراننا يواجه ثلاث صعوبات الصواريخ أرض ـ جو ، المدفعية المضادة للطائرات والطيران السورى الذى لا يمثل فى حد ذاته صعوبة ضخمة أمام طيارينا وعندما يلتحم الطيارون السوريون فى قتال جوى فان ذلك يكلفهم الكثير ولعل العقبة الأشد خطورة هى الصواريخ وعلينا أن ندمر جزءا منها أو كلها ان امكن قبل أن تتمكن من الحاق الأذى بنا . لقد فقدنا بالفعل بعض

الطائرات خلال الغارات التى قمنا بها ضد منصات اطلاق الصواريخ . وكان من أبرز العمليات الناجحة تدمير الوحدة المدرعة التى كانت تعمل فى حماية كاملة من جانب الصواريخ والتى توغلت فى الجولان ولكن لم تستطع الصواريخ أن تنطلق : لقد قام العاملون على هذه الصواريخ ، التي نجت من التدمير ، بابعادها بما مكننا من تدمير طابور الدبابات .

وفعلنا نفس الشيء بين دمشق والقنيطرة .. واننى آمل أن يصبح خط دمشق ـ القنيطرة مماثلا لممر متلا عقب حملة السويس عام ١٩٥٦ . ولعلكم تتذكرون صور الطوابير الكاملة من المركبات التى تم تدميرها حسنا ، وهذه المرة أيضا سيتم تدمير مدرعاتهم وسيصبح خط دمشق ـ القنيطرة طريقا للدبابات المحترقة وسيتكفل الطيران بذلك .

حرب ضد العتاد السوفيتى

ان الموقف ليس بهذه الصورة على الجبهة الجنوبية وعلى ان اقول لكم فى بادىء الأمر وبوضوح كامل انه لا تتوافر لنا فى الوقت الراهن امكانية رد المصريين الى ما وراء القناة ان الهجوم فى نفس ألوقت على الجبهة الشمالية وعلى الجبهة الجنوبية أضعف قواتنا بصورة كبيرة .

ان مصر تملك كميات هائلة من المعدات السوفيتية . وينبغى علينا الآن ان نخوض الحرب ضد المعدات السوفيتية بأكثر مما نخوضها ضد الجندى المصرى . واننى لا اعتقد انه يوجد مكان آخر فى العالم تتوافر له مثل هذه الحماية المكثفة وبهذا التركيز من المعدات الحديثة . وهذه المعدات السوفيتية ـ وهى متنوعة بصورة كبيرة ـ فعالة وممتازة فى ظل كافة الظروف وبصفة خاصة فيما يتعلق بالتسليح الفردى ضد الدبابات ان مستخدمى هذه الأسلحة يصمدون خلفها وبمجرد أن تحاول احدى دباباتنا الاقتراب ، فانها تصاب وتصبح غير قادرة على القتال . ومن ناحية أخرى فان عدد الدبابات المصرية حاليا على الضفة الشرقية للقناة يفوق ما يتوافر لنا . وفضلا على ذلك فان لديهم مدفعيتهم وصواريخهم الخ ..

ان الشيء الوحيد الذى نتفوق فيه هو الطيران . ان ما قلته بالنسبة للطيران السورى ينطبق على الطيران المصرى . انه عاجز عن مواجهة

طيراننا الا ان الصواريخ فقط هى التى تشكل صعوبة بالنسبة لنا . لقد لاحظنا فى المرحلة الأولى - ارسال التعزيزات الى منطقة القناة - ان مرحلتنا التالية ينبغى ان تكون محاولة صد المصريين على الضفة الغربية غير أنه اتضح أن ذلك يتطلب منا توافر قوات كبيرة مما قد ينال من قوتنا العسكرية . لقد انصرف اهتمامنا ، بصورة عامة ، الى الجبهة الشمالية، وقد شرحت منذ قليل أسباب ذلك . ان المصريين مجهزون تجهيزا طيبا ويقاومون .. بكميات خرافية من الدبابات والصواريخ التى كرسوها طوال السنوات الست الماضية . ولهذه الأسباب مجتمعة عدلنا عن صد المصريين الى ما وراء القناة ان قواتنا تحتل الآن خطا موازيا للطريق المائى . وقد اتخذت هذه القوات لها خطوطا دفاعية على بعد بضيعة كيلو مترات من القناة فاذا تحسن موقفنا خلال الأيام القادمة ، فاننا سنقرر الهجوم ، وكما نأمل فاننا سنحاول جعل المصريين يعودون الى عبور القناة قريبا .

ليست هناك خطوط حصينة

لقد اخليت كافة التحصينات على طول القناة وتم ذلك بنظام فى بعض الأحيان وفى أحيان اخرى فى انتظام اقل . فلم يعد لها أى فائدة بالنسبة لنا : اننا لا نستطيع فى الوقت الراهن صد المصريين من الجانب الآخر . ولعل لهذه الحقيقة مدلولات كثيرة منها دلالتان واضحتان تمام الوضوح : أولا لقد أدرك العالم كله الآن اننا لسنا بأكثر قوة من المصريين وان الهالة التى كانت تتوجنا - « اذا هاجم العرب فان الاسرائيليين سيحطمونهم » - قد سقطت . وسوف يتحتم أن نقول الحقيقة للشعب الاسرائيلى . وسأفعل ذلك مساء اليوم فى حديثى أمام التليفزيون الاسرائيلى بعد أن نضع ذلك فى اطاره الصحيح . وعلينا أن نعيش ونحن نتطلع الى الحقيقة وأن نواجهها مباشرة وعلينا أن نفعل ذلك بالنسبة لأنفسنا ولشعبنا وللأمريكيين والعرب والعالم أجمع . ان اخفاء الحقيقة لا يؤدى الى أى شىء بناء .

اما الدلالة الثانية وهى انه اذا تعذر علينا دفع المصريين ، فانهم سيواصلون حشد القوات وانى أخشى ، اذا ما انتقلوا الى الهجوم ، ان نضطر لأن نقف على خطوط أخرى .

انني لا أستطيع أن اضمن ما سوف يحدث ومن المحتمل كثيرا أن نفكر في الانسحاب الى خطوط أقل تبعثرا واكثر امنا وتضم عقبات طوبوغرافية تمكننا من تنظيم خطة دفاعية أفضل ، انني أقصد بذلك خطا يمتد من ممر متلا الى قناة السويس يغلق الطريق نحو الجنوب من ناحية شرم الشيخ وذلك كي نتفادى فتح أبو رديس أمام الغزو المصرى .

لقد ابلغنا القائد الأعلى للطيران أن طابورا يضم ٥٠ مركبة من بينها بعض الدبابات ـ يتجه صوب الجنوب . وفي وسع الطيران الاسرائيلي أن يدمره خاصة وأنه لا توجد أية منصات لاطلاق الصواريخ في هذه المنطقة .

لقد ذكر الجنرال بليد منذ قليل أن مدينة بورسعيد مدينة مهجورة واود أن اوضح ان الطيران يستطيع أن ينطلق الى الهجوم دون خوف .. وفي هذه المنطقة أيضا لا توجد أية منصات لاطلاق الصواريخ كما لا توجد وحدات مدفعية مضادة للطائرات . وهذا لا يعني أن هذه المدينة لا تتوافر لها وسائل الدفاع انها ليست مدينة اشباح .

اين وباى وسيلة نوقف العدو ؟

علينا أن نطرح هذا السؤال على أنفسنا كما يتعين علينا أن نطرح سؤالا آخر وهو كيف سنرد لو أن المصريين اتجهوا صوب الجنوب وكيف سنوقفهم ؟

في هذه الحالة علينا أن ننظم أنفسنا على خطوط جديدة وذلك ـ وأود أن اكررها مرة أخرى ـ اننا لا نستطيع ان نصدهم او نقهرهم في الوقت الراهن . وسوف نستفيد من بعض المزايا لو اضطررنا لانسحاب جزئي : ففي الواقع ان الصواريخ والمشاة المصرية على الضفة الأخرى من القناة لن تستطيع هكذا في تحول مباغت أن تنظم صفوفها من أجل مجابهة مع دباباتنا انني لا أقول ان هذا هو الحل الأمثل . واذا ما قرر المصريون نقل منصات صواريخهم فاننا سنشن في هذه الحالة هجوما مضادا .

على أنه لا ينبغي اعتبار أي من التصريحات التي ذكرتها بمثـــابة حل نهائي وذلك لأن دولة اسرائيل تواجه مشكلتين : الأولى هي مشكلة خطوط الدفاع والثانية تتعلق بامكانياتنا العسكرية .

ان ما أقوله لكم هنا يعكس وجهات نظري الشخصية وهي وجهات نظر انا مسئول عنها شخصيا . هذه هي نظرتي للموقف .

الحـــرب بين العـالم العـربي واسرائيل

اذا ما وضح أن العرب قادرون عسكريا على مواصلة الحرب، فانني لا أعتقد أن مجلس الأمن سيتخذ قرارا بوقفها فمن ناحية سيستخدم الصينيون والسوفيت حق الفيتـــو في الاعتراض ، ثم ان العـــرب سيسخرون من ذلك الى أبعد حد . فها هي المغرب تمدهم بالمدافع وليبيا بالأسلحة هذا ناهيك عن الأردن والعراق ، والباكستانيين والطيـــارين الكوريين هذا فضـــلا على وفود المتطوعين التي تصلهم من كل مكان . أما بالنسبة لنا فعلينا أن نعتمد على أنفسنا . ولا أعتقد أن بلدا واحدا ـ يقدم لنا المعونة ثم اننا لن نطلب ذلك ولحسن الطالع فاننا لا نبدأ من الصفر . اننا ندفع كل يوم الضريبة في صورة معدات وقوات وطيـارين وطائرات ودبابات . لقد دمرت المئات من مدرعاتنا في المعركة وربما أمكن اصـلاح الجزء الأكبر منها . أما بالنسـبة للباقي فان الأمر متعذر لأنهـا توجد بين خطوط العدو . وفي ثلاثة أيام فقدنا ٥٠ طائرة . واذا ماقررنا أن نهاجم هدفا فاننا نبلغه فان الحرب هي الحرب . لا بأس أن يسقط جندي في المعركة سواء كان ابن بليد أو ابن أي شخص آخر . ان طيارينا مقاتلون غير عاديين ولا يستطيع أي طيار عربي أن يرقى الى مستواهم . لقد قصفوا مطارات في قلب مصر وسوريا . . واذا كنا ننام في هدوء فالفضل يرجع اليهم . ان الطيارين العرب لا يجرءون عـلى الاقتراب منا ونحن نسيطر على أجوائنا . سوف نحتاج الى طـائرات جديدة والى دبابات وطيارين ومشاة وعلينا الا نعبىء فقط الاحتيـاطي ولكن ربما أيضا المتقدمين في السن الذين أعفوا من الخدمة في الاحتياطي . ان المتطوعين يتدفقون كمـا أن الروح التي تحركهم أمر يفوق الوصف . اننا محتاجون للجميع لأنه ينبغي علينا أن نتكهن بما سيحدث على المدى

البعيد . وربما لا يضطرنا تطور الأمور الى الانسحاب بضعة كيلو مترات .. بعيدا عن القناة .

لنحاول ان نقاوم

لا أعرف كيف ستنتهى هذه الحرب . وما آمله أن ننجز عملنا مع السوريين والا يدخل الأردنيون والعراقيون الحرب . وذلك لاننا اودفعنا السوريين فان العراقيين والأردنيين لن يفتحوا الجبهة الشرقية . وانى آمل أن نتمكن فى غضون الأيام القليلة القادمة من تحقيق هذا الهدف . ان موقفنا قوى ولكن هذا لا يعنى أن الحرب ستنتهى فى خلال أيام .

وهناك عدد كبير من الدول ذات الماضى العسكرى المجيد عجلت أحيانا بانهيار جيشها لأنها لم تضع فى حسابها الانسحاب الى خط دفاع ثان. وعلينا أن نتحاشى نحن أيضا أن نضع أنفسنا فى نفس هذه الحالة . فان المصريين لديهم عتاد عسكرى ضخم قدمه لهم الاتحاد السوفيتى دونما حدود . وانه لأمر مرعب أن يقاتل الانسان فى ظل مثل هذه الظروف . وأود أن أكرر ان هذه وجهة نظر شخصية لى . ولن يكون فى وسع المصريين عبور خط دفاعنا ، وعندما يحدث ذلك فان ذلك لا يعزى لاسباب طوبوغرافية . ان هذا الخط يمتد بين القناة وثلث سيناء الذى يضم القطاع الجنوبى منها . أما مشكلتنا الثانية – على المدى البعيد – فهى الا تستهلك قواتنا .

هناك خطر كبير بالنسبة لبلد صغير مثل بلدنا يضم ثلاثة ملايين نسمة يتمثل فى أن يجد هذا البلد نفسه دون قوات جاهزة للعمل . وعندما نخوض معركة فاننا لا نستطيع أن نقاوم دون معونة الدبابات والطائرات . ان ما يعنينا هو مستقبل دولة اسرائيل . لتذهب الى الشيطان البحيرات المرة أو ما سواها اننا فى حاجة للمدرعات والطائرات القادرة على حماية أمن بلادنا . ورغم كل شىء فان القوات تتآكل وانني لآمل أن يرسل لنا الأمريكيون بعض الطائرات ، لقد وافقوا على أن يزودونا بطائرات فانتوم جديدة .. كما آمل أن يزودنا بالدبابات . ان المجد كل المجد للمدرعات .

ان المشكلة تكمن فى تنظيم قوة قادرة على دفع العدو من الجانب

الآخر . وهنـاك بالطبع وجهـات نظر عديدة ونستطيع أن نبذل جهـدا هائلا ، الا أن العـدو سيعود . ان أريك شارون وبرن وغيرهما من خيرة خبراء حـرب المدرعات مشتركون هناك . وبالنسبة لى فقد عـدت من هناك فى الساعة الخامسة من صباح اليوم . لقد مكثت طوال الليل مع رئيس الاركان .

وهناك مشكلة الامداد والتموين التى تواجهنا . اننا لا نستطيع ان نتغلب عليها اذ ليس لدينا أى اتصال حقيقى بخطوط التعزيزات .

لقد طلبت هذا اللقاء لكى يكون كل شىء واضحا فيما بيننا ، وان الحكومة على علم بكل ما اخبرتكم به ، فقد قدم رئيس الاركان تصـورا عاما للموقف . وينبغى أن نوضح ايضا ان الجيش والقيادة العامة ليسا مجمعان على تقييم الموقف بهذا الشكل . ان القول بأننا اصبنا بصـدمة قول ينطوى على جانب من الحقيقة .

ولكننـا رغم ذلك لم نضعف . ان الجيش وكافة الجنرالات يدركون الموقف .

ديزانتشيك (معاريف) لقد استخلصت من خلال عرضك ، انه منذ عصر بن جوريون ، كنا نصرح دائما بأننا قادرون على مواجهةالجيوش العربية مجتمعة اذا ما شنت هجوما علينا ولكن هذا الراى لم يعد صالحا الآن .

ديان : على العكس . اننى لا أعرف على وجه التحديد التصريحات التى ترددت . ان اقتناعى الراسـخ ليس فى الواقع نوع من الايمـان الدينى . وربما كان بن جوريون يعتقد فى صحة ذلك ، أما فيما يخصنى، فقد نشأت مع الدبابات والطائرات وأعتقد انه فى وسعنا أن نقاوم فى مواجهة كافة الدول العربية . ولكننى لا أعتقد أنه من الضرورى الآن ان ندفع المصريين الى ما وراء القناة . عندما شرحت وجهة نظرى للحكومة ، كنت انظر الى الموقف على النحو التالى : على الجولان لن نتراجع بوصـة واحدة . وعلى العكس من ذلك نستطيع أن نكون أكثر مرونة فيما يتعلق بسيناء ونستطيع أن نسمح لأنفسنا بأن نتراجع نحو عشرة كيلومترات . اننا نستطيع أن نجابه كافة الدول العربية بما لديها من معدات سوفيتية

كما نستطيع أن نجابه الطيارين الكوريين وفى ظل الموقف الراهن ، فاننا لا نستطيع أن ندفعهم كما اننى لست متأكدا بأن القناة تمثل حاليا أفضل خط دفاع بالنسبة لنا ٠

ديزانتشيك : اذا انسحبنا الى الخط الذى ذكرته ، فهل تعتقد أن يفتح المصريون القناة للملاحة ؟

ديان : من الوجهة النظرية نستطيع أن نحول بينهم وبين ذلك ٠ وفى الواقع اننى لا أعرف ٠ اننا نأمل أن يفعلوا ذلك ٠ ان اعادة فتح القناة سيدفع المصريين الى العودة الى الحياة المدنية وأن القلق الأساسى الذى نواجهه هو اقامة خط دفاع ثان ٠

ديزانتشيك : فى هذه الحالة سيمر الخط بثلث سيناء ؟

ديان : اننا نقف فى هذه اللحظة على بعد أربعة أو خمسة كيلومترات من القناة ٠ أما الخط الجديد الذى أتوقعه فيقع على بعد حوالى عشرة كيلومترات من الممر المائى وفى أعماقى أعتقد انه بعد هذه الحرب فان العرب لن يستأنفوا القتال قبل سنوات عديدة وعندما يفقد الانسان جولة على هذا القدر من الأهمية ، فان ذلك يكلفه الكثير ٠

حنا زمير : ألا تعتقد أن نجاح المصريين قد يشجع الأردنيين والعراقيين على دخول الحرب ؟

ديان : اننى لا أعتقد ذلك ٠ أن جميع شركاء مصر يعاونونها باهتمام ٠ فليبيا تفعل ذلك والسودان والجزائر بدرجة أقل أما بالنسبة للسوريين فهم يتلقون المساعدة من لبنان والأردن والعراق ٠ ولكن اذا ما تطورت الأمور على نحو سيء بالنسبة للسوريين ، فانى لا أعتقد أن شركاءها سيشتركون فى القتال ٠

شوكن : ألا يؤدى النجاح الذى أحرزه المصريون الى فتح جبهة شرقية فى الشمال ؟

ديان : اننى مقتنع أن العالم العربى قد استيقظ على هذا المشهد وهو أننا غير قادرين على دفع المصريين والسوريين ٠ ومنذ حرب الأيام

الستة أقام السوريون والمصريون خطا ثابتا بالتعاون مع الروس ومعاونة المال السعودى والسلاح الفرنسى والبريطانى والأمريكى . ويستطيعون اليوم أن يعيدوا بناء الخط لمنعنا من احداث ثغرة فيه . ولكننى لا أعتقد أن فى وسعهم أن ينظموا خطوطا متحركة ديناميكية قادرة على اجتيـــاح اسرائيل .

شوكن : اذا لم يكن للجبهة السورية وجود ، فهل كان فى وسعنا أن ندفع المصريين الى ما وراء القناة ؟

ديان : نعم . ولكن ماذا يريد العرب ؟ انهم يريدون اجتياح دولة اسرائيل . والآن فانه لا يوجد أمامنا جيوش عربية قادرة على أن تتقـدم بأكثر من ١٥٠ كيلومترا لبلوغ أهداف داخل اسرائيل ذاتهـا . واننى لا أعتقد أن الأمر سيصل بنا الى هذا الحد أبدا .

بداتسور (دافار) : هل تعتقد اننا سنوقف القتـال عندما يتم اقامة الخط الثانى هذا سؤال والثانى : متى سنتمكن من صد المصريين الى ما وراء القناة ؟

ديان : اننى لا أعتقد أن القتال سيتوقف لأن ذلك لا يتوقف أولا علينا . اننى لا أتوقع أن يتوقف القتال خلال الأيام القادمة .

ان الحرب مع المصريين وربما مع السوريين أيضا سوف تسير وفقا لخططنا . وفى الواقع لو أننا قاتلنا القوات السورية الى أن يتم تدميرها فان ذلك سيعني شيئا بالنسبة لنا .

بداتسور : هل ستأتى فرص السلام من الجبهة المصرية ؟

ديان : اننى لا أستطيع أن أقول أن مصر ستحاول التوصـل الى تسوية معنا ، اننى أشك فى ذلك . كما اننى لا أؤيد أن نخفف موقفنا .

بداتسور : كم يوما ستستمر الحرب فى رأيك ؟

ديان : اننى لا أعتقد أن كل شىء سينتهى فى غضون عشرة أيام . اننى أنظر للحرب من خلال علاقات القوى . فالعرب لديهم بعض العتاد العسكرى ، كما أن الرغبة كانت تراودهم دائما فى تدميرنا . وستتوقف

الحرب عندما يتم تدمير معداتهم العسكرية وعلينا أن نبنى خطوطا جديدة وعلينا أن نحصل على طائرات أخرى ولن نعد مدرعات أخرى اذا كنا نريد أن نكون فى موقف جيد ٠

صحفى لم يذكر اسمه : هل أنت مقتنع اليوم بأننا كنا على حق عندما امتنعنا عن شن هجوم وقائى ضد العرب ؟

ديان : ليس لى أية رغبة فى الحديث عن ذلك ، لقد تناولنا هذا الموضوع بالأمس ان رأيى اليوم لم يتغير عن البارحة ٠ وسأوصى الجميع بأن نركز جهودنا على القتال ضد العرب بحيث ألا ترتكب أعمال لا جدوى منها ، لأن ذلك لا يفضى الى شيء ٠ وفضلا عن ذلك ، فهل هذه هى حقا أهم المشكلات التى تواجهنا اليوم ؟

برالى : لو نجحنا فى تحييد السوريين ، فهل تعتقد أنه سيكون فى وسعنا أن ندفع المصريين الى ما وراء القناة ؟

ديان : من ناحية الامكانيات : فان الموقف سيتغير ، لأن طيراننا سيتوجه بأكمله الى الجبهة الجنوبية ، كما سنتمكن من تحويل المدرعات الى هناك ٠ ولكننى لا أعتقد أن ذلك أمر مستحب الآن ٠

برالى : اذا ما أصدر مجلس الأمن قرارا بوقف اطلاق النار وقبله المصريون ، فهل سنقبله نحن أيضا رغم أن المصريين يحتلون الضفة الشرقية للقناة ؟

ديان : لا أعرف فى الواقع ، واننى لا أنصح بطلب وقف اطلاق النار ٠ كما اننى لا أعتقد أن المصريين سيحترمونه فانهم سيطلقون النار متى رأوا أنه من المناسب عمل ذلك ٠ وعلى أية حال فان ذلك ليس هو ما يشغلنى حاليا ٠ ان اهتمامى ينصرف الى تقييم العلاقات بين القوى ٠

ه ٠ روزنبلوم : ما هى فائدة هذا اللقاء لأن ما تقوله لنا ستكرره اليوم أمام ٠٠٠٠ التليفزيون ؟

ديان لن أقول إمام التليفزيون ما قلته أمامكم هنا ٠٠ سنطلع الشعب على مجريات الأمور وسيعرف ما حدث بالنسبة لموضوع

التحصينات • وسيمر يومان أو ثلاثة ولن يكون فى وسعنا دائما رد المصريين لقد دخلنا حربا والجميع يتساءل : « اذن ماذا يحدث » ؟ أريد أن أواجه الجمهور • اننى لا أريد أن توجه لى أية تهمة كانت سواء على المستوى الشخصى أو بصفتى وزيرا للدفاع وسأحاول أن أقول كل شئ بقدر ما أستطيع وينبغى أن تسود الثقة بيننا وأن نستطيع رؤية الأمور كما هى فى الواقع •

شور : اذن فأنت ترى أن هذه الحرب ستستمر عدة أيام ؟

ديان : ان وجود الفى دبابة مصرية فى سيناء سواء أطلقت النار أو لا هو والحرب سواء من وجهة نظرنا • ان المصريين يأملون دائما مواصلة القتال •

شوكن : من وجهة نظرك ، كيف سيتم تقييم علاقات القوى بيننا وبين العرب فى الأراضى المحتلة ؟

ديان : ان العرب فى هذه الأراضى أذكياء وعندما التقيت بهم أطلعتهم على وجهة نظرنا من أنه لن يطرأ أى تغيير على عاداتنا • وفى هذه اللحظة فان الأردن أو عرب الأراضى لن ينضموا الى المعركة • واذا ما سارت الأمور كما هو متوقع بالنسبة للجبهة الشمالية فان الجبهة المصرية ستكون الجبهة الوحيدة المتبقية ان عرب الأراضى لا يتوافر لهم السلاح وحتى اذا علموا أن المصريين يحرزون نجاحات ، فانهم لن يقدروا على القتال • انهم يعيشون مع أسرهم ومع أطفالهم ومن ثم فانهم لن يستطيعوا القيام بالكثير ، وان كانت الأعمال الفردية لا سبيل لتحاشيها : الانضمام الى فتح أو بث الألغام ـ وفى هذه الحالات علينا أن نتصرف ولكن ليس بقبضة حديدية •

شوكن : ألا يشبه موقفنا الحالى موقف قرطاجنة ؟

ديان : ماذا تعنى بذلك ؟

شوكن : لقد قرر الرومان بصورة قاطعة تدمير قرطاجنة •

ديان : اننى لا أشك فى رغبة العرب فى تدميرنا •

حنازمير : اننا نهاجم وزير الدفاع كما لو كان مبتهجا بما يحدث •

ديان : اننى لست مبتهجا بالتأكيد لهذا الموقف الراهن ٠٠ ولو أن بادرة ٠٠ ضعف انتابتنى ، لقدمت استقالتى على الفور ٠٠ اننى لا أتحمل المسئولية بمفردى ولقد شرحت وجهة نظرى لرئيسة الوزراء ولجميع أعضاء الحكومة ولهيئة الأركان : والآن لقد قلت ما ينبغى أن نفعل : وهو شراء المزيد من طائرات الفانتوم وتعديل خطوط دفاعنا ٠ اما التشبث بالقناة والا فلا فهذا لا يصح ٠٠ اننى أحب القناة كثيرا ولكنها ليست كوادى جيزيل اننى لا أبتهج مطلقا ولكننى لا أبتئس ٠ ان الموقف يسير على هذا النحو ٠ انه لا يشبه موقف الفرنسيين والألمان عندما انهارت جبهاتهم ٠ اننا لا نواجه نفس الأعداء ولكننا نواجه العرب ٠ وهناك خط القناة وسوف نتكفل به ٠ وأود أن أقول قبل أى شىء اننى راض عن الموقف على الجبهة السورية واننى لم أجمعكم لكى نحتفل بهذا النجاح ، ولكن الخطر السورى قد انتهى من وجهة نظرى ٠

حنازمير : كم من الوقت يلزمنا للقتال فى الشمال ؟

ديان : ليس بالكثير ٠ ولكن اذا ما تفاقمت الأمور فان فى وسعنا أن نستمر وفى رأيى فان الجزء الأكبر من القوة السورية (ألف مدرعة) قد تم تحطيمه ٠

بارت : اذا لم يتم اقرار وقف اطلاق النار فكيف ستستطيع اسرائيل أن تقاوم على الصعيد الاقتصادى ؟

ديان : من هذه الزاوية لا أعرف على وجه التحديد ، ولكن أستطيع أن أقول أننا قاومنا خلال حرب التحرير عاما كاملا ، وسنفعل ذلك ، ولكننى أعتقد أن الأمر لن يتجاوز تعبئة جزئية ٠ ان ذلك يكبدنا بطبيعة الحال مالا كثيرا ، كما أن قائمة المعدات التى طلبناها من الأمريكيين تقدر بملايين الدولارات ٠ وآمل أن يكون الأمريكيون مستعدين لأن يبيعوا لنا هذه المعدات ــ وآمل أيضا أن يتمكن الشعب اليهودى فى الشتات والشعب الاسرائيلى فى التغلب على العقبات الاقتصادية ٠ ان الشعب الاسرائيلى يستطيع ، وبصفة خاصة فى زمن الحرب ، أن يبذل جهدا اقتصاديا وبالنسبة لى شخصيا فان الامتناع عن أكل الشيكولاته لمدة عامين لا يضايقنى ٠

تد لورياه : هل يملك المصريون مثل السوريين طائرات سوخوى ؟

ديان : نعم ٠

لوزياه : كم لديهم منها وما هو مدى قدرة هــذه الطــائرات على العمل ؟

ديان : اننى لا أعرف على وجه التحديد مدى قدرة هذه الطائرات على العمل غير أن سلاحى الجو المصرى والسورى لا يظهران ٠ وبمجرد أن تقلع طائراتهم فان طيراننا ينقض وتلوذ طائراتهم بالفرار ٠

لوزياه : هل تستطيع يا سيدى الوزير أن تشرح لنا كيف أننــا انتصرنا على السوريين رغم غياب المواقع الطبوغرافية بينما نواجه مع وجود مانع مثل قناة السويس مشكلات على الجبهة الجنوبية ؟

ديان : فى الواقع كانت هناك أمور غير متوقعة ٠ فلم نســتطع أن نمنع بناء الجسور على القناة ٠ وكان اعتقادى أنه اذا ما نجح المصريون فى بناء جسورهم ليلا ، فان فى وسع دباباتنا أن تدمرها ٠ ولكنه اتضح أن معداتهم الجديدة ــ وبصفة خاصة صواريخهم المضادة للدبابات التى بلغ مداها ثلاثة كيلومترات ــ كانت فعالة جدا وقد دمر لنا الكثير من المدرعات بهذا السلاح ٠ ان محاولة الاقتراب من القناة وتدمير الجسور كانت أمرا بالغ الصعوبة ٠ وكلفتنا الكثير لقد سارت الأمور على خلاف ما كنا نتوقع ٠ ان المصريين : على عكس السوريين الذين تقــدموا مسافة تتراوح ما بين ١٠ و ١٥ كيلومترا ، كانوا يســتهدفون بلوغ المضــايق ، الا أنهم لم يستطيعوا التقدم سوى ثلاثة كيلومترات٠فقط لم نستطيع منعهم من عبور القناة ٠ لقد بدأوا الآن يتقدمون وهذه مشكلة وبالرغم من أنه لا يتوافر لهم غطاء من الصواريخ ٠

زيت : كان هناك فى عام ١٩٦٧ عدة اقتراحات بوقف اطلاق النار وفى ذلك الوقت قالت اسرائيل «ينبغى أن يشمل ذلك الجميع والا فلا» ٠

ديان : لا ٠ لقد كانت اسرائيل تقول دائما أنها مسـتعدة لتوقيع اتفاق بوقف اطلاق النار ٠ وبعد أن دفعنا السوريين فانه ليس فى نيتنا

الاستيلاء على دمشق فلو قبل السوريون وقف اطلاق النار فاننا سنقبله •

نيسان : هل ستؤثر النتائج التى أحرزناها فى الجبهة الشمالية على الرغبة المصرية فى مواصلة القتال ؟

ديان : لا أعتقد ذلك •

موشيه : هل سيكون من نتائج قصف دمشق أن تتعرض المناطق المدنية فى اسرائيل للقصف ؟

ديان : لا أعرف ، ولكن هذا أمر محتمل وان كنت آمل ألا يحدث • وبطبيعة الحال فان فى وسعهم أن يزعموا أنهم سيردون على قصف دمشق بقصف تل أبيب • ولكن فى هذه الحالة سنعرف كيف نقتص من سلاحهم الجوى •

هـ • روزنبلوم : هل الأمريكيون على علم بمجريات الأمور ؟

ديان : لست متأكدا أنهم يعرفون كل شىء ولكن سياستنا تقوم على ابلاغهم حتى بأدق التفاصيل •

ديزانتشيك : هل سيؤدى النجاح الذى أحرزته مصر الى تشدد فى سياسة السادات ماذا تعتقد ؟

ديان : لا أعتقد ذلك • وأنا أعتقد أن ديزانتشيك يريد ابراز الجانب السلبى للموقف • اننى لا أعتقد أن السادات سيحصل على مزيد من النجاح : انه لن يصل الى المضايق انه لن يستطيع أن يغزو بلادنا ، بل انه أيضا لن يحقق الهدف الذى حدده لنفسه منذ عشرة أعوام ، وسوف يكتفى بحوالى عشرين كيلومترا • ولن أقول ان هذه هى المرة الأولى التى يكسب فيها العرب بعض الأرض ، وربما توافرت لنا امكانية ردهم الى ما وراء القناة • ولكن اذا ما أمعنا التفكير فاننا نجد أن البحيرات المرة أمر لا يستوجب المشقة • وبالأحرى فان الأمر لا يستأهل أن يمنى الانسان بخسائر فادحة من أجل هذه البحيرات • لقد عبر المصريون القناة وكسبوا خمسة كيلومترات من الصحراء ، ولكن الموقف لم يبلغ هذا الحد من

الخطورة التى كان عليها قبل حرب الأيام الستة فى اطار حدودنا اذ ذاك . وعما قليل سننظر الى كل هكتار فى الصحراء كما لو كان يقع فى قلب اسرائيل . ان الموقف سيصبح خطيرا وله نتائج وخيمة لو أن المصريين تجاوزوا خمسين كيلومترا .

لورياه : ألا يصبح لذلك نتائج خطيرة بالنسبة لشرم الشيخ ؟

ديان : اذا ما بلغ الموقف حدا يتعذر علينا معه الابقاء عليه فترة طويلة فان ذلك سيكون أمرا بالغ الخطورة ولكننى آمل أن نتمكن من تخطى الصعاب .

عـودة لأفريقيـا

منتصف ليلة ١٥ أكتوبر

يتقدم قائد وحدة المظليين الاسرائيلية على رأس طابـــور مدرع ثم يقفز من مجنزرته وينظر يمنة ويسرة وهو لا يكاد يصدق عينيه : انه يشاهد فيما وراء السـد الترابى جهة الغرب سطحا لامعا : انها قنـاة السويس ان مياهها هادئة يحولها ضوء القمر المتلألىء الى مرآة هائلة ٠ وهنا يتمتم القائد قائلا :

« اننا على شاطىء القناة ٠٠ نحن على شاطىء القناة » ٠ وهنا يتوقف الطابور بمحاذاة السد الترابى ويسود السكون وهناك بعيدا على أرض سيناء تحتـدم المعركة ٠٠ وها هى دفعات متتـالية من الرصاص تمزق الظلام من كل اتجاه ٠ ومن وقت لآخر ينطلق صاروخ مضىء ليضفى جوا مثيرا للقلق على المشهد ٠ وبطبيعة الحال فان رجال المظلات فى هذا المكان ليس لهم دور فى الحرب ويستطيع المرء أن يشاهد هنا وهناك قنبلة لمدفع هاون تنفجر فى القطـاع محددة بذلك أقصى حد بلغته دائرة العمليـات العسكرية ٠

وبعد عشرة أيام من قيام خمسمائة الف جندى مصرى بعبور القناة

على امتدادها دافعين أمامهم القوات الاسرائيلية الى داخل سيناء . نجد رجال المظلات يعودون الى هناك مرة أخرى • والآن لا يفصلهم عن القارة الأفريقية سوى ١٨٠ مترا • وبسرعة بدأت قوارب مطاط صغيرة سوداء تنقل المركبات • وقد تسلق بعض الجنود من حاملى الرشاشات السد الترابى لحماية الموجات الأولى من العبارات والقوارب التى نزلت الى الماء •

وعبر رجال المظلات القناة •

ليس هناك فى مواجهتهم أى صوت أو حتى مجرد صوت هامس أو حركة أو ما يشير الى وجود حياة من أى نوع وبالرغم من ذلك كيف نعرف ما اذا كان المصريون ليسوا هناك وأصابعهم على الزناد فى انتظار اللحظة التى يضع فيها رجال المظلات أقدامهم على الشاطىء الغربى للقناة •

وقبل أن يصل رجال المظلات الى قطاع القناة قصفت المدفعية الاسرائيلية طويلا المنطقة المراد الانزال فيها • لقد أطلقت هذه المدفعية سبعين طنا من القنابل فى ساعتين فى مساحة قدرها خمسمائة متر مربع• ويبدو أن العملية جعلت القوات المكلفة بحراسة المنطقة تلوذ بالفرار •

لقد وصلت الدفعة الأولى من زوارق المطاط الى الضفة الغربية وبأقصى درجات الحذر وضع بعض رجال المظلات ، ومعهم بعض عناصر سلاح المهندسين أقدامهم على الشاطىء • لقد كانت الأرض منبسطة تغطيها نباتات كثيفة ملفوفة مليئة بعوائق الدبابات المصنوعة من الخرسانة المسلحة على أشكال ثلاثية الأضلاع وعلى بعد بضع عشرات من الأمتار يقف السد الترابى يسد الطريق • كانت قوة سلاح المهندسين الصغيرة تتقدم ببطء وتطهر الممر الضيق الذى سيجتازه رجال المظلات • كما كان السكون كاملا ومطبقا بصورة لا يمكن تصورها •

وبعد أن فرغت عناصر سلاح المهندسين من عملها أبلغ قائد هذه الجماعة باللاسلكى أن « المهمة قد تمت ونحن فى انتظاركم » •

لقد عبرت الدفعة الأخيرة من الزوارق القناة مخلفة وراءها غلالات من الزيت • ولم تمض دقائق حتى كانت وحدة رجال المظلات تندفع فى الطريق الذى تم تطهيره من العوائق والألغام وتحتل مواقعها بامتداد

كيلومتر على طول السد الترابى · غير أن الوحدة اصطدمت خلال ذلك بعدد قليل من الجنود المصريين الذين فوجئوا وتم شل حركتهم بسرعة · وبعد أن تم احتلال السد الترابى بدأت قوة اسرائيلية ثانية تندفع بدورها وعند الفجر كان فى وسع قائد وحدة المظليين أن يعلن للجنرال اريل شارون « اريك » قائد الفرقة التى تولت اقامة رأس جسر على الشاطىء الآخر وفقا لما كان مقررا ويبلغه بما يلى :

« كل شىء على مايرام ياسيدى الجنرال ·· الأمور تسير سيرا طيبا للغاية ·· اننا فى افريقيا ، نعم لقد تم كل شىء على أفضل وجه ·· شكرا ياسيدى الجنرال » ·

واتصل الجنرالان حاييم بارليف وصمويل جونين بدورهما فقد كانا باديا القلق واستفسرا عن الأخبار ·

وعندما ظهرت خيوط الشمس الأولى كشفت النقاب لرجال المظلات عن مدى روعة هذه الأرض الأفريقية التى استقرت أقدامهم فوقها · لقد كان كل شىء هادئا الا أن القائد وقواته كانوا فى حالة تأهب · فقد كانوا يتوقعون أن يشن المصريون هجوما جويا عليهم ، أو يقصفونهم بوابل من نيران المدفعية ولم تكن الوحـــدة الاسرائيلية فى الواقع سوى جزيرة اسرائيلية صغيرة فى قلب قوات العدو المنتشرة على الشاطئين ·

وبعد هذه الليلة التى أمضوها فى قلق وتوتر كان الشىء الوحيد الذى يشغل الرجال هو كيف يمكنهم أن يحتسوا قليلا من الشـــاى الساخن · وببعض الأحجار تمكن بعض الرجال من صنع اناء لاعداد الشاى ولم يمض وقت طويل حتى كانوا يحتسون أقداح الشـــاى على الأرض المصرية ولم يكن ينقصهم سوى بعض أوراق النعناع لاعداد أقداح شاى كما ينبغى ·

وكان القائد يجلس القرفصاء ويخط وهو منهمك فى تفكير عميق خطوطا على الرمال ويقول :

« هذا ليس معقولا ، ولابد أنهم سيوقعون بنا فى كمين » ·

غير أن القيادة المصرية العليا لم تكن قد أدركت بعد أن ثمة حدثا جديدا قد تبلور منذ قليل · لقد لاحظت بعض الوحدات اصرية فى منطقة

البحيرات المرة وجود تشكيل من المشـــاة الاسرائيلية على الضفة الغربية الا أن هيئـــة الأركان اعتقدت على ما يبدو أن هذا التشـــكيل ضئيل الشأن ·

ومن المنطقة التى كان يوجد بها قائد المظليين على بعد بضعة مئات من الأمتار من البحيرات المرة ، شاهد مياه البحيرة ·· وبمنظاره المكبر شاهد السفن المحتجزة هناك منذ حرب الأيام الســـتة · وهنا سأل أحد الجنود قائلا :

من الذى قرر أن نعبر هنا ؟

فابتدره جندى يضع قلنسوة على رأسه فى خشوع متبتل قائلا : انه مسطور فى التوارة ·

ففى هذا المكان عبر أبناء اسرائيل البحر عند خروجهم من مصر منذ اربعة آلاف عام ·

وبدأت البولدزرات تفتح ثغرات فى السد الترابى وأصبح الجميع يحسبون الدقائق التى تمر ويتساءلون : هل ستصل المعدات فى الوقت المناسب ؟

لقـد صادفت القافلة التى تنقل هذه المعـدات فى طريقها عقبات كأداء · وفى هذه الساعة كانت تتعرض القافلة لهجوم المصريين ولم تكن قد تمكنت بعد من أن تتخلص من هذا الهجوم · وأخيرا تمكنت السيارات التى تحمل كبارى العبور من أن تشق لها طريقا الى القطاع الذى خصص للعبور · وقد أنزلت عبارة صغيرة الى الماء حيث استقرت احدى الدبابات وهنا بدأت أمام مئات العيون التى اســـتبد بها القلق عملية العبور الى الشاطىء الغربى · وما هو الا قليل حتى وصلت السفينة الصـغيرة الى مرساها الصغير على الشاطىء الآخر مما جعل الجميع يتنفسون الصعداء ·

ان الشاطىء يشهد الآن نشاطا مكثفا فقد أنزلت العبارات الأولى الى الماء وانها تعبر محملة بالدبابات والقوات · وفى نفس الوقت بدأت قوات سلاح المهندسين تبنى أول جسر عائم وها هو الجنرال أيريل شارون يقود بنفسه الرجال الذين يستخدمون العتاد الثقيل الى الجزء الأقل كثافة من السد الترابى · واذا كان القتال يدور ضاريا فى القطاع الشمالى والجنوبى

من رأس الجسر ، فان هذا القطاع كان هادئا بصورة غير عادية مما جعل جيورا قائد الدبابة الأولى التى عبرت يقول :

« كان ذلك أشبه برحلة صباحية الى أدغال افريقيا . وعلى بعد كنا نسمع أصداء المعركة فى حين كان كل شىء هنا هادئا ، لقد تكشف لى عالم ملىء بالأشجار الفارهة وأشجار النخيل .. ان التربة فى هذه المنطقة سوداء غنية بخيراتها وبنباتاتها الكثيفة . غير أنه كان من المدهش أن ينصرف تفكيرى الى مثل هذه الأشياء بينما كنت أجلس فى برج دبابة تتقدم بمفردها فى ممر مائى يبلغ اتساعه مائة وثمانين مترا ، وهى نفس المسافة التى كانت تفصلنى عن رفاقى » .

كان اللقاء مؤثرا بين رجال المظلات الذين احتلوا الضفة الغربية منذ ساعات وطاقم الدبابة الأولى . فقد كان المظليون ، وهم أفراد لواء اشترك فى عمليات عسكرية كبيرة يرون أن فرصتهم الوحيدة تكمن فى عبور القوة المدرعة ، وهكذا قوبل وصول الدبابة الأولى بصيحات الفرح والسرور .

لقد ارتفع عدد الدبابات الاسرائيلية الآن على الأرض المصرية الى خمس دبابات . وفى نبرة يملؤها الخيلاء والتفاخر وان كانت مفعمة بادراك لحقيقة التاريخ أبلغ شارون رؤساءه النبأ بقوله :

« لقد بدأ الطريق نحو أفريقيا » .

لقد جمع رجال سلاح المهندسين العبارات الصغيرة وضموها الى بعضها البعض بتؤدى مقيمين بذلك همزة وصل بين الشاطئين ومما لاشك فيه أن اقامة هذا الجسر أمر لاغنى عنه لنقل القوات المعاونة والوقود والمؤن والذخائر التى عبرت بدورها خلف القوات المقاتلة . وكانت الدبابات الخمس تنتظر بلهفة قافلة الامداد وعند الظهر حلقت طائرة ميج مصرية فوق القطاع وهنا حولت كافة الرشاشات الموجودة فوهاتها صوبها وأطلقت النار عليها فعادت من حيث أتت . ولقد أدرك قائدها بالتأكيد أن عليه أن يقدم تقريرا الى قادته بذلك .

وفى الواقع ، لم تمض ساعتان ، حتى بدأت عمليات القصف الأولى ، وبالرغم من أن القوات الاسرائيلية كانت تتوقع ذلك ، الا أن توقيت ذلك

لم يكن مناسبا على أية حال بالنسبة لهذه القوات • وقد تضاعف هذا القصف ولم يتوقف فى واقع الأمر الا مع نهاية الحرب •

وبينما كانت المدرعات الاسرائيلية تنجز مهامها الأولى ، وقع اشتباك مع دبابات العدو التى أرسلت لاعتراضها ، كما بدأت الدبابات الاسرائيلية هجومها على بطاريات الصواريخ أرض جو من طراز سام ٢ ، وسام ٣ • وفى نفس الوقت استمرت عملية اقامة رأس الجسر على الضفة الغربية للقناة •

وكان اللواء سعد مأمون قائد الجيش المصرى الثانى الذى يعمل على الضفة الشرقية للقناة فى موقع القيادة بالاسماعيلية على بعد ٢٠ كيلو مترا من المكان الذى جرى فيه الاختراق عندما تلقى تقارير حول محاولة العبور وقام بابلاغها لرئاسة الأركان فى القاهرة الا أنه لم يعر ، كما لم تعر قيادته أى اهتمام لهذه الدلائل الخطيرة فقد قال سعد مأمون للفريق الشاذلى « ليس هناك أى مشكلة ، سوف نتكفل نحن بذلك » •

ولم يكن اللواء المصرى هو الشخص الوحيد الذى كان لا يعتقد انه فى وسع الاسرائيليين احراز أى نجاح فى هذه العملية وعلى الضفة الشرقية كان أحد مراكز القيادة المتقدمة فى القطاع الجنوبى يتابع بمزيج من القلق والخوف الأحداث •

وحتى مساء الثلاثاء ١٦ أكتوبر لم يكن الجسر المؤلف من العبارات قد تمت اقامته • فقد دمرت القنابل عددا من هذه العبارات مما أخر اتمامه وكان ضباط القيادة يدركون الخطر المتزايد الذى تجابهه القوات الأولى التى عبرت وفى الساعة الحادية عشرة أصيب الجسر واشتعلت النيران فى احدى العبارات • وكانت عشرات من المركبات المحملة بالمؤن والعتاد المختلف تنتظر دورها للعبور ولم يكن رجال سلاح المهندسين يدرون ماذا عساهم أن يفعلوا خاصة وأن العبارات المعدة لكى تحل محل ما دمر أو أعطب منها لم تكن قد وصلتهم بعد •

وعندئذ أمر أحد الضباط قائد احدى الدبابات التى كانت تحمل أحد الجسور وكانت من طراز باتون ، أن تتقدم على العبارات ولكنها

توقفت أمام العبارة المحطمة ومدت الجسر الذى تحمله لسد الثغرة . وظل الرجال أربع ساعات يصلحون الجسر .

وتحت القصف سقطت الضحايا الأولى ولكن كانت تجرى لها الاسعافات الأولية قبل أن تنتقل الى الخطوط الخلفية . ويقول أموس الذى عين قائدا لرأس الجسر .

« لقد كانت هذه الليلة أقسى ليلة عرفتها فى حياتى . فكان علينا أن ننقل كميات هائلة من المعدات ولكن كان يتعين الابطاء فى ذلك لاصلاح العبارات الحاملة للجسر والتى كانت تتصدع بفعل القصف وذلك خوفا من أن تنوء العبارات الأخرى .. بأحمالها وكان الرجال ، عقب كل دفعة من القنابل ، يتفقدون الجسر للتأكد من سلامته . »

وفى الليلة الماضية ـ ليلة ١٥/١٦ أكتوبر ـ كان موشى ديان وزير الدفاع وايجال آلون نائب رئيسة الوزراء يتابعان فى مقر القيادة العامة للمنطقة الجنوبية ، باهتمام شديد سير « عملية رأس الجسر » .

وقد صرح الجنرال شارون ، عقب وقف اطلاق النار فى حديث أدلى به لصحيفة نيويورك تايمز ـ بما يلى : .

« لم يدرك المصريون على الفور ما كان يحدث .. كما لم يدركه أيضا كبار ضباطنا فقد أجلت القيادة الاسرائيلية لمدة ٣٦ ساعة نقل التعزيزات لرأس الجسر الذى أقمته على الشاطىء الآخر .. وفى الواقع يتعذر أن يتصور الانسان كم كانت المعركة شرسة وقاسية واننى أعترف اننى كنت أخاطر بحياتى شخصيا هناك ، ولكننى كنت متأكدا من اتمام الثغرة » .

وأوضح شارون أن القيادة العليا كانت ترفض دعم رأس الجسر قبل اقامة جسور أخرى على القناة غير أنه ذكر أن اقامة مثل هذه الجسور ليس أمرا ضروريا بل ان أكد أن اقامتها كان خطأ نظرا لامكانية تعرضها للقصف . وكان من الأفضل من وجهة نظره أن تنقل الدبابات على مركبات برمائية على أن تستخدم « العبارات كوسيلة » نقل عائمة بدلا من استخدامها كتكأة لبناء الجسور ، وقد ظلت هذه النقطة محل جدل بين القادة العسكريين الاسرائيليين طوال فترة الحرب .

وفى رأى شارون الذى يبلغ من العمر ٤٥ عاما أمضى منها ٢٥ عاما فى الجيش ، أن العبور كان له طابع روحى ٠

« كلما احتللنا موقعا مصريا على الضفة الغربية كنت آمر رجالى بأن يرفعوا عليه العلم الاسرائيلى ٠ وكانت احدى دباباتنا تتسلق السد الترابى وتطلق قذيفة على المصريين الذين يسيطرون على الضفة الشرقية ٠٠ وكان الجنود المصريون يرون علما يرفرف خلف ظهورهم وكان ذلك من الناحية المعنوية مفيدا لنا » ٠

ولم يكن شارون هو الشخص الوحيد الذى ينظر الى عملية الاختراق على أنها عمل ينطوى على دفعة معينة للاسرائيليين فقد كان عدد كبير من الضباط مقتنعا منذ سنوات أن الفرصة الوحيدة لهزيمة الجيش المصرى وارغام القاهرة على السعى للسلام هو جعل الجيش الاسرائيلى يعبر القناة وينقل الحرب الى الأرض المصرية ، ان سيناء أرض مصرية بالقطع ، ولكنها منطقة صحراوية تستخدم فقط كمنطقة عازلة بين اسرائيل ومصر ٠

ويمكن القول بأن عبور القناة يمثل بالنسبة للمعسكرين رمزا وان كان مختلف الدلالة بالنسبة للطرفين ٠

وخلال حرب سيناء ١٩٥٦ أصدر موشى ديان ، وكان وقتئذ قائدا عاما للقوات الاسرائيلية أمرا لقواته بأن تتوقف على بعد بضعة كيلو مترات من القناة وألا تقترب من الممر المائى ، ومرة أخرى خلال الأيام الستة كان وزير الدفاع يخشى أن يؤدى احتلال الضفة الشرقية الى سلسلة من المشاكل الخطيرة ، فقد كان ذلك يدخل بالنسبة للبعض فى اطار التحدى وبالنسبة للبعض الآخر فى اطار المحرمات التى لا يجوز المساس بها ، ان القناة تلعب بين مصر واسرائيل دورا أكثر أهمية مما يمثله موقعها الجغرافى ٠

وفى خلال حرب الأيام الستة كان الجنرال جونين ، وكان وقتئذ قائدا للواء مدرعات برتبة كولونيل ، هو الذى وصل بدباباته الى شاطىء القناة ٠ وازاء هذا الأمر الواقع سمح ديان لجونين أن يحتل الشاطىء على امتداده ٠ وطلب جونين من وزير الدفاع أن يسمح له بعبور القناة وضرب مؤخرة الجيش المصرى المنهار غير أن ديان اعترض على ذلك ٠

وكانت أولى العمليات التى تقوم بها القوات الاسرائيلية على الشاطىء الغربى هى تلك التى تمت خلال حرب الاستنزاف ولعل أبرز هذه العمليات هى ما قامت به القوات الاسرائيلية يوم ١١ يولية ١٩٧٠ قبل شهر واحد من وقف اطلاق النار ٠ لقد كانت هذه الغارة التى قام بها رجال الكوماندوز الاسرائيليون مفيدة جدا للاسرائيليين فقد علمتهم أن نقل قوات كبيرة من شاطىء لآخر يتطلب اتخاذ تدابير متشابكة يتوافر لها التنسيق الكامل والمعدات المتطورة التى تكون قد جهزت تجهيزا خاصا لعبور الممر المائى ٠

كذلك فانه خلال فترة وقف أطلاق النار فان الجيش الاسرائيلى وضع الخطط العملية لعبور قناة السويس ٠٠ وقد كلف الجنرال شارون قائد عام المنطقة الجنوبية بالاضطلاع بهذه المهمة وكان شارون يرى ، ويشاركه فى ذلك عدد من كبار الضباط الاسرائيليين ، أنه اذا ما استؤنف القتال بعد فترة الشهور الثلاثة لوقف اطلاق النار ، فان حرب الاستنزاف لا ينبغى أن تستمر هكذا الى ما لا نهاية دون أن تواجه بقرار على أرض المعركة ٠ وقد كتب الجنرال عزرا وايزمان قائد السلاح الجوى الاسرائيلى السابق يقول :

يتعين على اسرائيل أن توجه ضربة الى المصريين بمجرد أن يقدموا على انتهاك قرار وقف اطلاق النار ودفع صواريخهم أرض ـ جو حتى خط القناة ٠ فاذا لم تؤد هذه العملية لاقرار السلام ، فانه يتعين على الجيش الاسرائيلى أن يصل الى أبواب القاهرة لاملاء شروط اتفاق طويل الأجل » ٠

وكان شارون يشارك وايزمان هذا الرأى ٠٠ وكان مشروعه يتضمن عدة نقاط يمكن للجيش ان يعبر منها ، وكانت احدى هذه النقط تقع عند التقاء القناة بالطرف الشمالى للبحيرات المرة ٠٠ ان اقامة أى رأس جسر فى هذه المنطقة ينبغى أن « يرتكز الى البحيرات التى تكفل بذلك حماية الجناح الجنوبى لرأس الجسر ٠ كما يتضمن الشاطىء الاسرائيلى والامكانيات الدفاعية المزود بها خط باريف ، الذى انتهى العمل فيه منذ عام ، طرقا جديدة يمكن بواسطتها دخول القناة ورفع السد الترابى المقام على طول القناة ان هذه الخطة المعدة للدفاع ضد اى عبور مصرى قد تعوق فى الواقع القوات الاسرائيلية اذا ما أصبح عبور القناة أمرا ضروريا ٠ لذلك أصدر

الجنرال شارون تعليمات بأن يعد السد الترابى بحيث يسمح بعبور القوات الاسرائيلية اذا ما لزم الأمر ٠

وفى هذه النقطة التى تعرف الآن باسم « الفناء » أو رأس الجسر أعدت العدة وفقا لخطة شارون وأقيم طريقان موازيان للقناة ويتجهان بعد ذلك صوب الشمال حتى طاسة وكان شارون قد أصدر تعليماته باعداد نوع من العبارات المسطحة طولها ٤٠٠ متر وعرضها ١٥٠ مترا يحيط بها سد ترابى مرتفع ، وكان السد الترابى المواجه للقناة قد أقيم ولكن جدرانه كانت أقل كثافة حتى يمكن سريعا احداث ثغرة فيه ٠ وكان شارون بنفسه منذ ثلاث سنوات قد حدد نقط العبور بقوالب من الطوب الأحمر ٠

ومنذ وقف اطلاق النار عام ١٩٧٠ جهز الجيش الاسرائيلى بمعدات العبور واقامة الكبارى٠ ومنذ أن اندلعت حرب عيد الغفران وشارون يطلب من مقر قيادته التصريح له بتنفيذ خطة العبور التى كان قد أعدها ٠ فقد كان شارون يرى أن الحرب ضد المصريين لا ينبغى أن تدور على الضفة الشرقية حيث عبر المصريون ولكن هناك فى خطوطهم الخلفية ٠

والمعروف أن شارون رجل الكوماندوز ورئيس وحدات المظليين منذ الخمسينات من القادة المتحمسين لسياسة « الاقتراب غير المباشر » وقد قدم شارون فى معركة أم كتاف شمالى سيناء خلال حرب ١٩٦٧ بيانا رائعا للمفاهيم العسكرية التى يتمسك بها ٠

ولقد ظلت هذه المعركة أبرز المعارك التى جرت خلال حرب ١٩٦٧ الخاطفة ٠

وعندما تقدم شارون وضباطه فى بداية حرب عيد الغفران نحو الجبهة فى الوقت الذى كانت الدبابات التابعة لوحدته تنظم صفوفها فى الخلف ، كان شارون مقتنعا بأنه سيضع موضع التنفيذ خططه فيما يتعلق بعبور القناة ٠

لقد نجحت وحداته المدرعة فى أن تدفع المصريين الى مسافة خمسة كيلومترات من القناة ٠ ووصلت بعض عناصر فرقته الى النقطة التى تلتقى عندها القناة بالبحيرات المرة : الا أن هذه القوات لم تستطع الاقتراب من الممر المائى ٠ وفى خلال تقدمهم اكتشف الاسرائيليون أمرا كانت له أهمية

كبيرة . لقد أثبتت حركة القوات المصرية فى هذا القطاع وجود « مفصل » بين الجيشين المصرى الذى يعمل فى المنطقة الممتدة حتى بور سعيد والجيش الثالث الذى يأخذ مواقعه فى الجنوب حتى السويس وقد شاءت الظروف أن يكون المكان الذى اختاره شارون لاقامة رأس الجسر يقع بالضبط فى هذا المفصل حيث لا يحتفظ أى من الجيشين المصريين فيه بقوات كبيرة .

وفى مقر قيادة هيئة الأركان وخلال الليلة التالية من حرب عيد الغفران عرض شارون « خطة التحول » وكانت ترتكز على اعتبارات ثلاثة :

١ ــ أنه لا توجد أى قوة مصرية فى مواجهة « الفناء » .

٢ ــ أن نقل القوات الاسرائيلية الى الضفة الغربية سيربك الخطة المصرية للمعركة .

٣ ــ أن هذا التحول سيفسح المجال أمام تحييد بطاريات الصواريخ أرض ــ جو التى تعوق نشاط السلاح الجوى الاسرائيلى .

غير أنه نشب خلاف شديد حول هذه الخطة في القيادة العامة الاسرائيلية . وحتى ذلك اليوم كان المصريون يحتفظون فى المؤخرة بفرقتين مدرعتين كاحتياطى وهما الفرقتان الرابعة والحادية والعشرون . وحتى يمكن الحد من علاقات القوى كان لابد من تدميرهما معا . وفى هذا الاطار، هل كان ينبغى تدميرهما فى اطار هجوم مضاد منظم أو كان من الأفضل الانتظار حتى ينتقلا الى الهجوم حتى يكون تدميرهما أكثر احكاما منطلقا من نقط دفاعية ؟ .

وكان الجدل عنيفا بين شارون وجونين : شارون قائد حاد المزاج ذو ماض عسكرى براق وأقدميته فى الجيش تسبق أقدمية جونين . غير أن الحرب اندلعت وكان جونين قائدا للمنطقة الجنوبية فى حين كان شارون الذى عبىء للخدمة فى الجيش ، قد ترك الجيش ليعمل فى السياسة . كانت هناك قوة تفصل بين الرجلان سواء فى مزاجهما الشخصى أو فى مفاهيمهما العسكرية . شارون من أبطال سلاح المظلات فى حين كان جونين « جوروديش » بطل المدرعات خلال حرب الأيام الستة .

ومن ثم لم يتخـــذ أى قرار حول خطة شارون ٠ وفى ١٠ أكتوبر ـ خامس أيام الحرب ـ وصل حاييم بارليف إلى الجبهة الجنوبية موفدا من قبل هيئة الأركان العامة ليعمل « كمستشار » لجونين ولكنه كان قد عين في الواقع بصورة « غير رسمية » قائدا عاما للجبهة الجنوبية ٠ ومنذ وصل بارليف الى مقر القيادة ، لم يكن هناك أى مجال للشك حول مدلولات هذا القرار ٠ فقد جمع كبار الضباط من حوله ولم يكن بوسع أحد من القادة العسكريين فى المنطقة أن يفسر حقيقة هذه المهمة التى لم يسبق لها مثيل : فمن المعروف رسميا أن بارليف كان وزيرا للتجارة والصناعة ٠ وبالرغم من ذلك لم يشأ أى ضابط أن يعلق على ذلك ٠

وأصر شارون فى أحاديثه مع بارليف على ضرورة الموافقة على خطة عبور القناة ٠

وخلال جولة تفقدية قتل الجنرال ابرهام ماندلر « البرت » قائد قطاع سيناء يوم الخميس ١١ أكتوبر ظهرا ٠

وحلق شارون فى طائرة هليوكوبتر فوق الجبهة الجنوبية ٠ وكان على اتصال باللاسلكي بالبرت الذى طلب منه خرائطه الخاصة ولم تمض دقائق قليلة حتى توقف جهاز اللاسلكي فى المجنزرة التى كان يستقلها البرت ٠ وحاول عبثا باللاسلكى المتصل بجونين أن يعيد الاتصال ٠ وهنا قال جونين للضباط الذين كانوا يرافقونه « اننى أعتقد أن ثمة شيئا قد حدث لألبرت » ٠

ولقد أصاب حادث مقتل ألبرت الروح المعنوية للقوات الاسرائيلية فى الجبهة الجنوبية بصدمة خطيرة جدا ٠ فقد أطلق عليه الجنود وبصفة خاصة من واتتهم فرصة الاستماع اليه على شبكات « اللاسلكى » « الصوت » فقد احتفظ « صوت » هذا الرجل الأصلع ذو العينين الزرقاوين ، خلال ساعات اليأس فى أيام القتال الأولى بهدوء شديد واعتدال وصفاء ذهن وثقة أن كل حرب لها رموزها ، وكان مقتل ألبرت أحـــد هذه الرموز المحزنة ٠ وينتمى مندلر ، وهو من مواليد لينز بالنمسا ، لهذا الجيل من الضباط ولم تزد رتبته العسكرية خلال حرب الاستقلال ، عن رتبة عريف ٠ ولعلنا نذكر أن مندلر قد غادر يوم الأحد ٧ أكتوبر مقر قيادته.وأسند القيادة الى الجنرال ماجوين ٠

وقد أوضح الجنرال ألبرت خلال حديثه الأخير مع بعض الصحفيين عند مدخل مقر قيادته ما يلي :

« لقد غيرت هذه الحرب كثيرا من القيم التى كنت أعتنقها • لقد أشاعوا عنى أننى ضابط محترف متشدد ولكننى فى الواقع رجل ليبرالى فى أعماقى • والآن بعد هذا الهجوم المصرى المفاجىء ، فاننى أعتقد أننا لا نستطيع مطلقا أن نأخذ على عاتقنا مثل هذه المخاطرة ، ان أقسى شىء بالنسبة لى هو زيارة أسر الجنود الذين قتلوا فى الحرب » •

وقد جنبه القدر الاضطلاع بهذه المهمة القاسية ، وقد عين الجنرال كالمان ماجوين خلفا لمندلر • وماجوين ضابط متواضع ولكنه حازم • وقد خاض حرب الايام الستة وكان وقتئذ ضابطا برتبه مقدم • وقد استدعى الى مقر قيادة طاسة بعد وفاة مندلر لكى يخلفه • وخلال حفل مؤثر أقيم فى ساعات الصباح الأولى ، نزع الجنرال وايتمان من على كتفه شارة « ميجور جنرال » وقدمها الى الجنرال دافيد اليعازر رئيس الأركان الذى قام بتثبيتها على كتف كالمان ماجوين قائد قطاع سيناء وخليفة مندلر •

غير أن وفاة مندلر لم تضع حدا للجدل بين الجنرال شارون ورئاسة أركان القطاع • وازاء الاعتراضات الكثيرة التى أثارها ، صادفها شارون طالب بأن يسمح له على الأقل بتدريب رجاله على استخدام المعدات اللازمه لاقامة رأس الجسر وفى هذه الآونة لم تكن الدبابات التى دربت على مثل هذه العمليات تحت امرته •

وعندما أعطيت الاشارة الخضراء لشارون صادفت الاسرائيليين مشكلة حشد المعدات التى لا غنى عنها لنجاح العملية • فقد كانت خطة شارون تتضمن اشراك وحدة مظليين •

وقد رجح المصريون ، دون أن يدركوا ، كنه الخطة التى أعدها شارون الى حد يمكن القول معه بأنهم كانوا يتابعون المناقشات العنيفة للقيادة العسكرية الاسرائيلية فقد قذف المصريون يوم ١٤ أكتوبر بفرقتين مدرعتين كانوا يحتفظون بهما كاحتياطى الى المعركة • وعندئذ أصبح القطاعان الجنوبى والأوسط من القناة مجالا لمعركة هائلة للمدرعات اشترك فيها أكثر

من ألف مدرعة من كلا الجانبين وقد استمرت المعركة ساعتين تمكنت خلالهما المدرعات الاسرائيلية بتفوقها فى المناورة من أن يكون لها السبق • وثمة نقطة لم يعرف سبيلها هى أن المصريين لم يستخدموا الصواريخ والمدفعية التى استعملوها بنجاح خلال الأيام الأولى من القتال • لقد استخدمت فى هذه المرة المجنزرات في نقل الجنود واختفى المشهد المرعب الذى كان سائدا فى بداية الحرب وهو انتشار الآلاف من الجنود واطلاقهم الصواريخ المضادة للدبابات من خلف ظل شجرة أو تل صغير • وفى ساعتين فقد المصريون فى القطاع الأوسط ١٥٠ مدرعة ومركبة • وفى بداية المساء كان هجوم الفرقة المدرعة ٢١ قد أوقف ورد على أعقابه • وقد خلف العدو فى هذا اليوم على الجبهة بأكملها أكثر من مائتى دبابة •

ومنذ هذه اللحظة أصبح من الواضح أن الاستراتيجية المصرية تخلصت من التعاليم السوفيتية • فقد كان العدو يلتزم حتى هذه اللحظة بالتعليمات الكلاسيكية للكتب العسكرية وبمناورات القتال التى تكررت مرات عديدة • والآن ازاء هذا الموقف المتغير • تباعا ساعة بعد ساعة : أخذ القادة العسكريون المصريون يشركون فى القتال قواتهم ومدرعاتهم دون مراعاة لأى خطة سابقة ، ودون مراعاة للتغيرات المفاجئة فى العمليات •

ومع حلول مساء الأحد ٤ أكتوبر كان الموقف يتلخص على النحو التالى :

- أوقف المصريون عند خطوطهم المتقدمة • لقد توجت المرحلة الأولى من حملتهم بالنجاح • أما فى المرحلة الثانية التى استفادوا فيها من عنصر المفاجأة فانهم لم يحرزوا فيها سوى نجاح طفيف ويبدو أن الخطة السوفييتية كانت تقضى بأن تتقدم القوات المدرعة عبر رءوس الجسور وأن تنتشر استعدادا للتقدم نحو الأمام • فى نفس الوقت الذى يتم فيه اسقاط وحدات المشارة والكوماندوز والمظليين للعمل خلف الخطوط الاسرائيلية •

- تقدمت المدرعات المصرية ، الا أن المشاة ظلوا فى أماكنهم • ويمكن القول بأن جميع خطط العدو الخاصة باشاعة الفوضى فى الخطوط الخلفية للقوات الاسرائيلية قد منيت بالفشل • فقد أسقط أكثر من عشرين طائرة هليوكوبتر كانت تحمل قوات مصرية فوق أرض

سيناء كما تم ابادة وحدة مظلية أسقطت فى وادى جندى • وعندئذ قررت القيادة المصرية الكف عن أى عمليات أخرى فى هذا الاتجاه •

- عندما حاول العدو الانتقال الى المرحلة الثالثة وتطوير هجوم المدرعات هزم ورد على أعقابه •

وازاء هذه النتائج فان الهدف الاسرائيلى أصبح يتبلور بطبيعة الحال على النحو التالى : احداث ثغرة فى القوات المصرية ، عبور القناة ، اقامة رأس جسر على الضفة الغربية ، التقدم صوب الشمال والجنوب منطلقا من رأس الجسر وقطع الاتصال بين القوات المصرية شرقى القناة وبقية القوات المصرية •

وقد بدأت اسرائيل تراقب فى اليوم التالى اى يوم ١٥ أكتوبر المؤشرات الأولى لتحول الموقف والاستعدادات الخاصة بعملية رأس الجسر •

وكانت القوات المعدة لعبور القناة تتألف من جزءين رئيسيين :

١ - قوة من المظليين متحركة مزودة بالمجنزرات• وكانت مهمتها أن تحتل مواقع على الضفة الغربية وأن تسهل اقامة رأس الجسر •

٢ - فرقة مدرعة تتقدم صوب الغرب لحماية عملية الاختراق • وكانت الخطة تقضى بأن تعبر هذه الفرقة الجسر وأن تنضم الى وحدات المظليين بمجرد أن تصل كافة المعدات الى الضفة الغربية •

وقبل حلول ليل ١٥ أكتوبر كانت خيوط العبور قد تجمعت ، وبدأت القوات الاسرائيلية عملها •

وعلى الضفة الشرقية كانت القوات التابعة للجنرال شارون تخوض قتالا ضاريا مع وحدات المشاة المتمركزة • وقد استمرت المعركة فى هذا القطاع حتى يوم ١٨ أكتوبر • وقد دارت معارك بالغة العنف حول موقع حصين يعرف « بالمزرعة » الصينية • وبعد هذا القتال الضارى كان يمكن مشاهدة دبابة اسرائيلية من طراز باتون وقد احترقت وتفحمت وعلى مسافة تقل عن المترين دبابة مصرية من طراز ٥٥ تقف عاجزة عن القتال • لقد كانت مدافعهما تتلامسان أو تكاد •

وعندما مر شارون ليتفقد ساحة القتال قال فى حزن : « لقد ماتوا

في نفس اللحظة » • وخلال ذلك كان المصريون يقصفون المواقع الاسرائيلية على الشاطىء الشرقي بمئات الأطنان من القنابل • وكان يبدو أن المصريين مقتنعون بأن الجيش الاسرائيلي بدأ هجوما مضادا في سيناء وكان هذا التقرير الخاطىء هو أحد العوامل الحاسمة التي مكنت عناصر المظليين بين سدين من نيران المدفعية من أن يتسللوا الى منطقة المفصل بين الجيشين •

وعلى بعد بضعة كيلومترات من رأس الجسر كانت لا تزال المعركة دائرة حول المزرعة الصينية (وقد أطلقت هذه التسمية على هذا الموقع المصري شرقي القناة لأنه كانت تجرى فيه قبل حرب الأيام الستة تجارب زراعية تحت اشراف اليابانيين • وكانت حوائط المبنى مغطاة بحروف يابانية) •

وعندما وصل الاسرائيليون في ١٩٦٧ الى هذا المبنى خلطوا بين اللغتين اليابانية والصينية وأطلقوا عليه المزرعة الصينية •

وعندما حل يوم الثلاثاء ١٦ أكتوبر كانت المعركة لا تزال مستمرة فقد تعثرت القوة المدرعة الاسرائيلية التي بدأت منذ ٤٨ ساعة تهاجم الموقع ومنيت بخسائر فادحة وعندئذ تقرر اللجوء لوحدات المشاة والمظليين للقضاء على التحصينات المضادة للدبابات • وعندئذ وصلت قوات المظلات التي نقلت من منطقة أبو رديس واسحق • ويروى قائد هذه القوات تفاصيل هذه المعارك فيقول : « لقد وضعوا أمامنا خريطة مقاس ١ الى ١٠٠ الف وقالوا لنا : هناك وحدة اسرائيلية تتقدم صوب القناة لعبورها • وهناك وحدة أخرى تقف الآن على الشاطىء المصري • ان التحصينات التي يملكها العدو المضادة للدبابات تحول بيننا وبين تعزيزات عن طريق رأس الجسر •• مهمتكم اذن هي تطهير هذه التحصينات بأسرع ما يمكن » •

وعندئذ تقدمت وحدات المظلات بضع مئات من الأمتار صوب الهدف ، غير أن وابلا من الرصاص كان في استقبالهم وهنا قال أحد ضباطنا ، حسن هذا أمر جديد • كيف يمكن أن تكون هناك بين الطابورين الاسرائيليين وحدة مصرية ؟

وقد أصدر اسحق تعليماته لقائد احدى الفصائل بأن يتحصن هو ورجاله لحماية بقية أفراد الوحدة التي كانت منتشرة في العراء فوق

الكثبان • ولسوء الطالع اصطدم المظليون بمواقع مصرية حصينة مسلحة بعشرة مواقع من الرشاشات من طراز جيرينوف ووحدتي دبابات وفصيلتي مشاة مزودتين بصواريخ مضادة للدبابات • وعلى مقربة من هذا الموقع كان هنـاك موقع آخر ثم ثالث ثم رابع • وقد احتـدمت المعركة طوال ساعة كاملة التصق خلالها المظليون بالأرض تجنبا لنيران العدو الكثيفة وبالتالي لم تتمكن عناصر المظليين من الهجوم أو الانسحاب •

وقد استمرت عمليـة اخلاء الجرحى طـوال الليل كمـا أن فرق الاغاثة تعرضت بدورها لخسائر شديدة •

وعند الفجر كان لابد من ارسال قوة مدرعة لانقـاذ المظليين . وفجأة استطاع اسحق أن يميز على شبكة اللاسلكي صوت احد قادة الوحدات المدرعة وكان يمر فى هذا القطاع وعندئذ شرح له الموقف وطلب معونته .

وفورا شنت الوحدة هجومها على المصريين وأخلت المظليين ـ حقا لم يكن فى وسع أحد باستثناء المدرعات أن يقضي على هذا الحصن القوى . وبعد الهجوم الأخير تحولت المزرعة الصـينية مقبرة رهيبة الجنود والمعدات المصرية .

وخلال ذلك استمرت القوات الاسرائيلية فى عبـور القناة فوق الجسور التى تمت اقامتها . وعلى الشاطىء الغربى تلقت الدبابات التعليمـات بتدمير الصـواريخ أرض ـ جو وبصفة عامة كانت القـوات الجوية هى التى تكفلت بهذه المهمة : وان كانت الدبابات قد أسهمت فى تسهيل مرور الطائرات •

وبينما كانت مدرعات شـارون تعمـل على توسيع رأس الجسر كانت فرقة المدرعات برئاسة الجنرال برن تواصل تقدمها نحـو نقطـة العبور . ولم يكن هذا رأس جسر وفقا للعبـارة التقليدية . وذلك لأن محاور الحركة لم تكن قد ذللت بعد بصـورة كاملة • كمـا كان المحور الشمالي فى متناول الدبابات المصرية أما المحور الجنوبى فكان يتعـرض لقصف مدفعي متصـل من جانب العدو • ومن ثم كان يتعين على فرقة الجنرال برن أن تقوم بأعمال بهلوانية خلال تقدمها وأن تستخدم أسلوب

المبادرة على نطاق واسع . فقد كان جزء من قواته يشتبك فى القتال وكان جزء آخر يعمل على تأمين المحور الجنوبى أما الجزء الثالث فقد كان يعاون قوات شارون فى القضاء على المزرعة الصينية .

واذا كان الجزء الاكبر من فرقة برن لم يعبر القناة بسرعة فهـذا يرجع الى ان المصريين شنوا هجوما مضادا كاد يسحق راس الجسر الذى اقامته وحدات المظلات على الجانب الاخير .

وليلة ١٨ أدرك المصريون أنها ليست مجرد غارة تقوم بها قوة اسرائيلية صغيرة ، ولكنها عملية واسعة النطاق يمكن أن تغير مسيرة الحرب .

وفى نفس هذه الليلة تمكنت دبابات الجنرال برن من عبور القناة بعد أن أضيف الى الجسر الأول المكون من مجموعة من العبارات جسر آخر .. وأصبح عبور القناة بفضل ذلك يتم بصورة أكثر تنظيما .. ويروى الجنرال أدان برن ذكرياته فى هذا الصدد فيقول : لقد عبرنا القناة فى الساعةالعاشرة مساء واحتفلنا بالحدث باحتساء بعض كئوس الويسكى . ولم تكد ثلاث من دباباتى تعبر القناة حتى أعطب أحد الجسرين . وبينما كنا نقوم بتركيز قواتنا على الشاطىء الغربى تعرضت لقصف لم نشهد له مثيلا فى حياتنا» .

فقد وجه المصريون نحو رأس الجسر قوة النيران التى كانت متاحة لهم فى القطاع . واذا كانوا قد تفادوا حتى الآن اشراك كثير من الطائرات فى المعركة ، فها هم الآن يرسلونها فى موجات متتالية للاغارة على الجسور وطرق الاختراق .

وعلى مقربة من الجسور ، كان الفناء «هو النقطة التى كان يتم فيها تجميع الجرحى وكانت الطائرات الهليوكوبتر تتكفل بنقلهم الى الشرق» .

وقد كتب أموس قائد رأس الجسر الى زوجته يقول لها «اذا كانت قد كتبت لى النجاة هذه الليلة ، فانها معجزة فلم تكف قذائف الكاتيوشا من السقوط على رءوسنا . وكان يوجد فى وسط « الفناء » قافلة للمؤن والوقود فاشتعلت النيران فى احدى العبارات . وكان هناك جندى يقف

على جراره . وفى الواقع لم أكن أعرف ماذا كان يفعل هناك تحت قصف القنابل . ومهما كان الأمر ، فانه ملأ جاروفه الميكانيكى بالرمال والقى به على السيارة المشتعلة . وماكدنا نتمكن من السيطرة على هذا الحريق حتى انفجرت سيارة أخرى على بعد أمتار قليلة . اننى مازلت اسأل نفسى كيف تمكن هذا الشاب من الخروج من هذا الجحيم . وكان الجنود يغادرون سياراتهم دون أن يسعفهم الوقت بايقاف المحرك . وذات مرة شاهدت وسط المعمعة جنديا يتسلق كبينة احدى السيارات ويمسك بجهاز اللاسلكى الذى كان فى السيارة . وعندئذ صاح صاحب الجهاز « فأجابه الجندى اننى أريد أن أبلغك أن تغادر السيارة عند سقوط القنبلة الأولى » ان هؤلاء السائقين جنود رائعون حقا فقد قاتلوا فى الحرب العالمية الأخيرة .. وفى خلال يومين من القتال تقدم احد هؤلاء الجنود القدامى نحوى وهو يحمل بندقية تشيكى قديمة . وكان هذا الجندى فى سن أبى فسألته : ماذا تفعل يامجنون هنا ؟ وماذا تريد ؟

لقد تحطمت مجنزرتى ، وقد مضى يومان وأنا هنا ، فماذا عساى ان أفعل ؟

فقلت له : فعلت الكثير : عليك أن تعود الى بيتك ياوالدى ، ولم يكن بوسعى أن أتحمل مسئولية وجود مثل هذا الرجل هناك . فأمرته بعودته .

لقد كانت اكثر الأمور رعبا هى عمليات القصف التى تلتها هجمات الطائرات . وبالنسبة للقصف المدفعى فهذا أمر تعودنا عليه ، ولكن عندما تشترك الطائرات ، فان ذلك لم يكن بالامر المحتمل فقد كانت القنابل تسقط ، انك تحاولين أن تقدرى مدى الهوة التى انحدروا اليها ، مما حملهم على تغيير موقفهم . علينا أن نتحاشى هذا القصف .. ولكن ما العمل مع هذه الطائرات التى تحلق فوق رءوسنا .. ان أفضل شىء هو أن يظل الانسان فى مخبئه وأن ينتظر وهو يصلى . لقد كان المصريون عاقدين العزم فى اصرار على تصفية رأس الجسر .. انه الجحيم بعينه . لقد كانت الصواريخ والقنابل والتابالم تنهال ، وكان علينا أن نصلح باستمرار ما يعطب . ان رجال سلاح المهندسين يستحقون بحق تحية احترام عميقة .

لقد اصبح الفناء أكبر مفترق مضطرب فى الجبهة الجنوبية باسرها .

وكان رجال سلاح المهندسين يتولون توجيه المرور وتنظيم هذا المعترك وكانت بعض الدبابات التى تحتل مواقعها امام الثغرات فى السد الغربى تتولى المشاركة فى حماية القطاع ضد الهجوم المصرى . كذلك أقيم معسكر للأسرى من الجنود المصريين الذين أمكن جمعهم من الشاطىء الآخر ولم يسبق لى أن شاهدت شبابا فى مثل هذا الحزن والألم فقد كانوا غير سعداء بالأسر أما احساسهم بأن القنابل التى تسقط فوق رءوسنا قادمة من الجانب المصرى فان ذلك كان ينسف ما تبقى لديهم من روح معنوية .. ومن المعروف من حيث المبدأ أنه ينبغى اخلاء الأسرى فى اسرع وقت ممكن . غير ان المعركة كانت محتدمة الى حد انه كانت هناك أمور أخرى تشغلنا .

ومن ثم فقد كانت هناك خسائر فى صفوفهم أيضا . فقد كانت القنابل تنهال من كل حدب وصوب . لقد استمعت الى الأصوات تصرخ قائلة « انها الطائرات » .. وهنا قفزت فيما يشبه الدوار من المجنزرة فى الوقت الذى سقطت أولى قنابل النابالم على الأرض هنا وهناك .. وهنا شعرت بحروق شديدة فى كل جزء من جسمى واندفعت عدوا صوب الجسر فرأيت أربع طائرات ميج تنقض فوق رءوسنا فالتصقت بالسد الترابى ، وعلى الفور شاهدت القنابل تسقط والصواريخ تنهمر على الموقع . وعندما وصلت الى الجسر أدركت أنها مذبحة فقد شاهدت حوالى عشرة من رجالنا مبعثرين قتلى بين السد الترابى وأحد البولدوزورات المشتعلة ..وقد قمت باخلاء هؤلاء الجنود الى المستشفى الميدانى .

وعلى أحد التلال الصغيرة شاهدت العديد من نقالات الجرحى والقتلى . واذا مارفع الانسان الغطاء فانه يرى أحذية حمراء وخضراء وسوداء .. وفى الطرف الآخر من المحفة شعورا شقراء أو شهباء أو سوداء .. لقد كنت اشعر بخوف مميت من أن ارفع أحد هذه الأغطية فقد كان تحت كل منها صديق لى .

وبوصفى ضابطا ، فلو أن الانسان بدأ يذرف الدمع : فانه كان بتحتم ان يطلب تسريحه من الجيش على الفور . لقد تلقيت أمرا وكلفت بمهمة . لقد كنت هناك لاضفاء الشجاعة على الآخرين وحملهم على انجاز المهمة على أكمل وجه . ولابد أن مظهرى سيكون رائعا لو أننى بدات البكاء أمام رفاقى . وطوال الليل كانت تسيطر على مناظر هذه النقالات وانتظرت شروق الشمس كى تخلصنى من هذه الرؤية المروعة .

لقد استغرقت المعركة «السلبية لسكان الفناء» سبعة أيام متتالية حتى وقف اطلاق النار .

وبالرغم من كافة الجهود التى بذلها المصريون لتدمير رأس الجسر الا انهم لم يتمكنوا من تدمير نقطة العبور .

وقد استمرت الوحدات الاسرائيلية المدرعة تندفع الى الغرب والشمال والجنوب .

ومنذ اللحظة التى أصبحت فيها هذه المدرعات قادرة على الحركة، عاد الجيش الاسرائيلى الى عادته التى لم يتخل عنها مطلقا وهى الجيش الذى لا يقهر .

ان ماجرى حول رأس الجسر سيكون له تأثير حاسم على سير الأحداث خلال الايام القادمة وحتى وقف اطلاق النار صبيحة ٢٤ أكتوبر .

الحرب لم تنته بعد

فى بداية الحرب لم يكن المصريون يتوقعون نصرا كاملا لقواتهم فقد كانوا يعتقدون أن الاسرائيليين سيحاولون بدورهم عبور القناة ومنعهم، وصنعوا معدات دفاعية فى العمق تتالف من بطاريات مضادة للطائرات تحرســـها دبابات متخندقة بعنـــاية فضـــلا عن مئات المدافع من مختلف الأعيرة . وقد استغرق اقامة ذلك أسابيع طويلة .

وكان الجيش الاسرائيلى يجهل مدى قوة هذه التجهيزات القتالية ولكنه اكتشف ذلك لدى عبوره الى الشاطىء الآخر . لقد كانت هـــذه الاستعدادات تضم عددا من المعسكرات التى أقامتها القوات البريطانية معظمها خلال الحرب العالمية الاخيرة فضلا عن بعض القواعد العســكرية والخنـــادق والدشم المقـــامة تحت سطح الأرض ، والتى تنتشر عشرات الكيلو مترات ، يضاف الى ذلك مستودعات المؤن والامداد والذخائر التى تكفى لمواجهة احتمال الحصار . وفى الوقت الذى شقت فيه الدبابات الاسرائيلية طريقها الى الاراضى المصرية ، كانت افضل الوحدات المصرية المدرعة على الشاطىء الشرقى للقناة غير أن هيئة الاركان كانت تتوافر لها قوات احتياطية كبيرة ، ولكنها كانت قوات غير مدربة ، ووحـــدات مهمتها حماية النقط الضعيفة فى جهاز الحرب المصرى .

ففد عبرت فرقة الجنرال برن القناة وبدأت تقدمها صوب الجنوب ثم لحقت بها وتجاوزتها قوات الجنرال ماجوين خليفة ماندلر . فقد عبرت الفرقتان اللتان أخذتا تتقدمان كالاعصار فى المعسكرات والقواعد العسكرية التى هجرها المصريون على عجل وأخذتا تغيران على محورين متوازيين شبكة مليئة بمنصات الاطلاق . فكان طابور مدرع آخر يتقدم فى المنطقة الزراعية ، التى تفصل قناة السويس عن القناة العذبة . أما الثانى فكان يتقدم بمحاذاة الصحراء المصرية .

ويتحدث زيف جندى الاتصال عن هذه المرحلة فيقول : « لقد عبرنا الجسور المقامة على القناة خلال الليل وكان الاحساس الذى يراودنا أننا سنخلف الصحراء وراءنا لكى ندخل جنة فيحاء وكانت مهمتنا هى تامين طريق على بعد سبعة كيلو مترات تقريبا من الجسر ، وبعد أن تقدمنا أكثر من كيلو متر دون أن نطلق طلقة واحدة ، اصطدمنا بسرية مشاة مصرية . وقد أحدثت الأسلحة الفردية التى كانوا يحملونها ضد الدبابات خسائر فادحة فى صفوفنا ، وصدرت الينا التعليمات بالقضاء على هذه العناصر فاقتربنا ولكننا تعرضنا لقذيفة صاروخية ، أصابت هدفها فى الصميم وهنا صاح مندى قائدنا بأن نحتمى . وهنا تراجع سائق المجنزرة الى الوراء واختفى وراء بناء وهنا تلقينا ضربة ثانية فحملت مدفعى الرشاش على ظهرى ليتولى تصفية الحساب : ورأيت بعد ذلك ضابطا يخلى بعض الجرحى ، أما أنا فقد مكثت فى المجنزرة لكى أخطر مقر القيادة بأننا نتعرض للخطر . غير أن جهاز اللاسلكى كان معطلا . وكنت أقوم بشرح الموقف لبعض الوحدات المعاونة عندما أطلقت تجاهنا القذيفة الثالثة . فقد تلقيت : اذا كنت يازيف لا تريد ان تفقد عمرك فعليك اذن بمغادرة هذه المركبة على الفور كان هناك قتيلان داخل المجنزرة أحدهما كابتن من سلاح المهندسين والثانى الجندى الذى يعمل على المدفع الرشاش. وهنا غادرت المركبة وانضممت الى الآخرين خلف المنزل . وكان مندى قد أصيب فى وجهه وعرضت عليه أن أتولى تضميده ولكنه رفض قائلا الأمر بسيط « وظللنا هناك نحو خمس دقائق ثم أصدر مندى تعليماته بأن نستعيد أسلحتنا الشخصية من المجنزرة وكنا لا ندرى أن قائدنا الكولونيل الجريح كان يضطر لأن يبقى فى غرفة بهذا المبنى بسبب وجود سيارة مشتعلة كانت

تسد منفذ المنزل . وكان الى جوارى جريح يطلب بصورة تمزق القلب قليلا من الماء . وفى اللحظة التى كان يهم فيها باحضار وعاء للمياه من خلف السيارة أصيب بعدة طلقات نارية فسقط دفعة واحدة واخذ ماء الوعاء الذى أصبح أشبه بالمصفاة ينهمر على وجهه وهنا خرجت بدورى وقد حدد لى الجندى الآخر الذى كان الى جوار منبدى موقع احد المصريين على بعد نحو عشرين مترا وقال لى « هذا الجندى الذى أصاب مندى » وهنا أطلق الجندى النار علينا فأطلقت النار بدورى عليه فخر قتيلا منذ الطلقة الأولى وزحفت حتى السيارة بالقرب من جثة ماندى فوجدت قميصه محترقا بعض الشىء ، فمددت يدى الى احد جيوبه وأخذت الخطابات التى كانت فيه . لقد كان منها خطاب من ذويه وآخر من جندى جريح يشكره لأنه أنقذ حياته » .

لقد تقدمت فرقة كالمان ماجوين صوب الجنوب وسدت كافة الطرق التى تربط مدينة السويس بالعاصمة المصرية وحاصرت القوات الاسرائيلية الجيش الثالث على الضفة الشرقية للقناة ودمرت منصات اطلاق الصواريخ التى كانت تنتشر فى كل مكان تقريبا .

ومنذ هذه اللحظة دخل الطيران الاسرائيلى فى المعركة وبدأ يهاجم طوابير العدو . وقد حاول الطيران المصرى جادا التصدى للطيران الاسرائيلى ولكنه منى بخسائر فادحة وكنا نشاهد يوميا فوق المدرعات الملتحمة الطائرات تشتبك بدورها فى القتال . وخلال هذه المعارك كانت الاشتباكات البرية تتوقف بصفة كاملة تقريبا اذ يتعرض الجانبات لمتابعة المعركة الدائرة فوق رءوسهم . وكانت الميراج والفانتوم المعدة لمثل هذا النوع من القتال تسقط الميج المصرية الواحدة تلو الأخرى .

وكان جزء من فرقة الجنرال شارون يقف عند رأس الجسر منذ يوم ١٧ أكتوبر ، أما الآن فقد بدأت تتحرك صوب الشمال تجاه الاسماعيلية فى نفس الوقت الذى كانت تتقدم فيه فرقتا برن وماجورين صوب الجنوب . أما بقية فرقة شارون فقد تخندقت خاصة وأن المصريين كانوا مازالوا يحتلون مساحات كبيرة من الأرض مهددين بذلك مؤخرة رأس الجسر . واندفع شارون الى الشمال لكنه تلقى تعليمات بأن يتوقف بعد أن طلب اليه أن يحتل المنطقة أولا .

غير أن شارون لم يعبأ بذلك وواصل طريقه ٠

وحتى سريان قرار وقف اطلاق النار ، كان هناك عدد من كبار الضباط الاسرائيليين يلومون علنا شارون لأنه لم يمتثل فقط للتعليمات، بل انه أقدم على ما يشبه المخاطرة ، بهـذا السلوك المستقل ، كاد يفضى الى فاجعة عسكرية .

وعندما أحيط موشى ديان علما بمعطيات الموقف على الطبيعة بادر بالتدخل فألغى تعليمات القيادة العليا. وأعلن فيما بعد أن هذه التعليمات كانت خاطئة .

ولكن ما رأى شارون فى ذلك ؟ لقد شرح وجهة نظره بعد الحرب فى حديث أدلى به لصحيفة لوس انجلوس تايمز قال فيه :

« اننى أقاتل من ٢٦ عاما ولكن على أن أقول ان هذا القتال لم يكن حتى الآن سوى حملات عسكرية ـ ولكنه فى هـذه المرة حرب حقيقية وكان فى وسعى أن أحاصر الجيش الثانى فىالشمال كما فعلنا فى الجنوب. وقد أخطرت القيادة العليا بأننا نضيع الوقت ولكنى تصورت . فى هذه المرة أن الوقت لا وزن له ٠ وبعد أقل من ٢٤ ساعة من تحـذيرى فرض علينا وقف اطلاق النـار ٠ ولو لم توقف مدرعاتى ، لكان فى وسعنا أن تحقق كل الأهداف الاستراتيجية التى حددناها بالنسبة للضفة الغربية للقناة . ولم يكن فى وسع المصريين فى هذه الحالة أن يصروا على انسحاب القوات الاسرائيلية الى خطوط ٢٢ أكتوبر .

اننى أعتقد أن حربنا قد أصابت الولايات المتحـدة بشىء من خيبة الأمل أولا لأننا لم نجبر المصريين على التراجع ثم لأننا لم ندمرهم تماما ثم أخيرا ، لأن ما فعلناه أخذ منا وقتا طويلا . اننا لم نلتق بأية مقاومة منظمة على الضفة الغربية للقناة .

وقد دمرنا يوم عبورنا عشرين دبابة مصرية ، بينما كنـا نبعد عن رأس الجسر حوالى ٢٥ كيلو مترا . لقد أخذ العدو على حين غرة فطاش صـوابه ولم يبـد رد فعل وفى هذه اللحظة تلقيت أمرا بالتوقف بل بالعودة وباستثناء موشى ديان الذى حضر لمشاهدة الموقف على الطبيعة لم يشأ أحد من هيئـة الأركان أن يأتى . واننى أعتقـد انه بالنسـبة

للمستويات العليا ، فانه يتعين على الجنرال أن يتقدم حتى الخطوط الأولى للتحدث مع قادة الفرق أو الألوية . ويكفيه من وراء ذلك أن يتعرف على حقيقة الموقف » .

ومن المحتمل أن يعود المؤرخون ذات يوم لتناول هذا الموضوع ، ولكنه أخذ الآن على الجبهة نحوا آخر .

وصبيحة يوم ٢٢ أكتوبر أدرك المقاتلون فى الجبهة الجنوبية لدى سماعهم من اذاعة اسرائيل النبأ الخاص باقتراح الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى بوقف اطلاق النار ، أدركوا أن الوقت الذى ضاع لا مجال للحاق به » .

وعلى الجبهة الشمالية أدت القوات الاسرائيلية عملها باحكام فقد تمكنوا من دفع السوريين الى ما وراء خطوط وقف اطلاق النار عام ١٩٦٧ واحتلت القوات الاسرائيلية جزءا جديدا داخل أرض العدو . ومن الواضح أن تقدم القوات الاسرائيلية قد توقف منذ بضعة أيام بفضل تدخل القوات العراقية التى قاتلت الى جوار السوريين والتى نجت من التدمير . ان الجيش الاسرائيلى يحتل المرتفعات التى تسيطر على وادى البقاع حتى دمشق ، وبذلك أصبحت العاصمة السورية فى مرمى المدافع الاسرائيلية . ولكن ما زال هناك حساب تتعين تصفيته وهو المعسكر الحصين فى جبل الشيخ .

ففى خلال الساعات الأولى من القتال استولى الكوماندوز السوريون على هذا المعسكر الذى يشرف على جبل الشيخ . ثم حلت بعد ذلك محل وحدات الكوماندوز ثلاث كتائب من المظليين . وبدلا من أن تحتل هذه القوات مواقعها داخل القلعة نفسها ، بادرت باحتلال التلال المجاورة . ومن الزاوية المعنوية فان استعادة هذا الموقع الهام يعطى السوريين احساسا بأنهم أحرزوا نجاحا حاسما . وعشية وقف اطلاق النار قررت القيادة فى الجبهة الشمالية أن تستعيد الحصن مهما كان الثمن .

وبطبيعة الحال فان هذه العملية كانت بالغة الصعوبة فهناك طريق ضيق متعرج يفضى الى قمة جبل الشيخ ويحف الطريق من ناحية كتل

ضخمة من البازلت ومن النـــاحية الأخرى لا شيء ٠ وكان يحتل هـــذا الموقع خمسمائة من رجال المظلات السوريين المتمرسين بالقتـال ويعدون من أفضل عناصر القوات السورية وكانت هذه القوات متخندقة بعناية حول القلعة وتتحكم فى مداخل الطرق التى تفكر القوات الاسرائيلية فى سلوكها كما قامت بتلغيم الطريق الوحيد المؤدى الى القمة .

وعلى هـذه الأرض الوعرة ، كانت قوات المشـاة هى العنـاصر الوحيـــدة القادرة على شن الهجوم على هـذا الموقع ، وربما لزم الأمر التلاحم بالسلاح الأبيض .

وقد أسندت هذه المهمة الى كتيبة « جولانى » يعززها وحـدة من المظليين . وحوالى ظهر ٢١ أكتوبر ، بدأت نقطة الدعم السورية فى جبل الشيــخ تتعرض للقصف المدفعى ، الذى كان يغطى الموقف والمنـاطق المجاورة وفى المســاء أتت طائرات الهليكوبتر الضخمة التى كانت تنقل المظليين ، فى حمـــاية المقاتلات الاسرائيلية ، وأسقطتها فى المؤخرة لقطع الاتصالات عن الوحدات السورية فى أعلى الجبل ومنع وصول الامدادات اليها .

وبينما كان مشاة « جولانى » يتسلقون سفوح جبل الشيخ تقـدم طابور مدرع. وحوالى الساعة الثانية بعد منتصف الليل وصل المتسلقون الى النقط الســورية الأولى وعنـدئذ أطلقت قوات المظليين المجهزين ببنادق ، مزودة بتلسكوب ، النار على طلائع القوة الاسرائيلية وأوقفت تقدمها وروى أحد جنود هذه القوة الاسرائيلية الأحداث فقال :

« بدأنا الهجوم غير أن السوريين كانوا يطلقون النار فى كل اتجـاه وكانوا مختبئين فى مواقع يتعـذر معها اكتشافهم الا اذا أطلقوا النيران ٠ وعندئذ أمطرناهم بقنابلنا اليدوية ٠ وكان علينا أن ندنو من مخابئهم الى مسـافة تقل عن الخمسين مترا لكى نتمكن من اخلائهم عنها » .

غير أن الجزء الرئيسى من مهمتنا لم ينجز بعـد ، فقد تخلى المظليون السوريون عن مواقعهم الخارجية وتحصنوا على التـلال المحيطة بنقطة الدعم السورية . وواصلت قوات المشاة الاسرائيلية تقدمها تحت وابل من النيران التى كانت تطلقهـا مئات من المدافع الأتوماتيكيـة بمختلف

اعيرتها وكان قادة الكتيبـة جولانى هم أول من سـقط وهم يتقدمون رجالهم . فقد أصيب أحد الضباط وكان يقود الوحدة وقتل نائبه وهنا تولى صف الضباط قيادة العملية .

لقـد تمكن السوريون من صد كافة هجمات الكتيبـة الاسرائيلية وعنـد الفجر كانت قوات المشاة لا تزال على بعد مئات الأمتار من القلعة وفشلوا فى احراز أى تقدم آخر . ولجأ السوريون الى المدفعية واخذوا يقصفون نقطة الدعم والارتكاز دون أن يلفوا بالا الى وجـود قوات لهم فيها ووصلت أربع طائرات ميج للتعزيز .

وصباح ذلك اليوم شعر رجال جولانى بمعنوياتهم تنهار كمـا شعروا بارهاق شديد وظل جبل الشيخ بعيدا عن قبضتهم .

فقررت هيئة الأركان الاسرائيلية ارسال وحدة أخرى من رجال المظلات للتعزيز وكان هـذا النبأ كفيـلا بأن يحفز همم رجال جـولانى ويبعث القوة فى أنفسـهم . وهنا تجمع الرجال القـادرون على مواصلة القتال وشنوا هجوما أخيرا . ومع الطاقة التى ولدها اليأس تمكنوا من اقتحام الخطوط الدفاعية الأخيرة واقتحموا مدخل القلعة ورفعوا على السارى علم كتيبة جولانى .

لقد كلف الاسرائيليين الاستيلاء على نقطة الدعم الكثير ، ولكن لم يعد هناك موقع سورى واحـد على الأراضى التى كانت تحتلها اسرائيل قبل ٦ أكتوبر .

وقد ذكر الجندى أبو لافيا فى حديثه عن هذا القتال فى جبل الشيخ فقال انه أشبه بمعركة من الحروب الصليبية فقـد اسـتمر الهجوم ١٥ ساعة « وبالنسبة لنا فان جبل الشـيخ يسـيطر على السـاحل حتى دمشق انه بمثابة العيون التى ترى بها اسرائيل ما حولها . اننا نريد أن نبلغه مهما كان الثمن ، وألا نتخلى عنه وأنه أفضـل لى أن أموت قبل أن انزل من على قمته . هذا ما عقدنا العزم عليه عندما توجهنا الى هناك . لقد وضعوا ذلك نصب أعيننا : محظور أن توقفوا القتال طالما أن علم جولانى لم يرتفع فوق سارى القلعة » .

صاح قائد أحد فصائل المظليين متعجبا « أخيرا أستطيع أن أرى رصيف الميناء من الشاطىء المصرى » وكنت أتولى فى هذه الآونة قيادة أحد المراكز الحصينة فى الميناء » وكنت أتطلع كل صباح الى السويس ولكننى أستطيع الآن أن أرى الموقف الآن من السويس » .

الثلاثاء ٢٣ اكتوبر

تبدو السويس الغارقة فى الضباب أشبه بمدينة هادئة تلفها الخضرة وعلى حافتها كانت تقف معامل تكرير البترول والمصانع الجديدة التى تشرف على خليج السويس ذى اللون الأزرق وكانت مدينة السويس حتى اندلاع حرب الإستنزاف تضم ٢٧٤ ألف نسمة وبذلك كانت تأتى الثالثة فى الترتيب بين المدن المصرية ولكن منذ ذلك الحين غادرها معظم السكان باستثناء بعض آلاف من العمال لتشغيل مصانع المدينة .

وعندما كانت المدرعات تتقدم صوب قواعد الصواريخ المنتشرة فى الضواحى الغربية للمدينة كان المظليون يتقدمون نحو المدينة فى كافة أنواع المركبات فمن سيارات أوتوبيس الى مجنزرات تم الاستيلاء عليها من العدو . ومن سيارات جيب الى دبابات . وكانوا مقتنعين بأن سكان المدينة قد هجروها ومعهم آلاف الجنود المصريين ممن كانوا بها . ومن المؤكد انهم احتموا بالجبال المجاورة فى جنيفة وعتاقة ، وقد ذكر احد جنود المظلات فيما بعد « لقد كان كل شىء هادئا أشبه بقصيدة شعرية جميلة . وفجأة انطلق صاروخ من طراز سام ومر منخفضا فوق رءوسنا . وكانت المركبات تحاول أن تجد لنا مخبأ ، عندما أطلق صاروخ ثان فوقنا مباشرة ، لقد كان الأمر صعبا . لقد مر فى مستوى ارتفاع الكولونيل لكى ينفجر على بعد أمتار قليلة منا . وأخيرا رأينا أن نستفيد من فترة التوقف هذه لاعداد الطعام لافطارنا .

واستأنف المظليون طريقهم . وكان الاحساس من منظر المدينة انها أصبحت مهجورة أو مدينة أشباح ـ كما كان يقول بعض رجال المظلات الذين كانوا يتكدسون منذ قليل فى سيارات الأوتوبيس والمجنزرات . وكان من بينهم بعض العناصر المتمرسة بالقتال والتى اشتركت فى تحرير

القدس خلال حرب الأيام الستة أو التى عملت طويلا فى قطاع غزة .
وكان من بينهم أيضا . من اشترك لأول مرة فى الحرب . غير ان أيا منهم لم يكن يشك فى أن قتالا ضاريا فى انتظاره .

وكان نيفى بليس ينتمى الى القوة المعاونة التى كانت مهمتها مساعدة رجال المظلات وعندما انفجرت الحرب ، نظمت لهم محاضرات فى احدى الكليات العسكرية . لقد أوفدوا فى بادىء الأمر كسائقين فى احدى الادارات العسكرية بسيناء ، ثم اشتركوا عند تحرك الخطوط المصرية الى الضفة الغربية فى نقل المؤن والامدادات . وقد قال هذا الجندى :

« لقد أبلغنا عشية معركة السويس أنه يتعين علينا أن ننقل على وجه السرعة احدى وحدات المظلات التى وصلت بطائرات الهليوكوبتر . وأبلغونا أنهم فى حاجة لسيارات ولجزء من سيارات الشحن الخاصة بنا . ومن ثم قمنا بنقل المعدات فوق احدى السيارات والرجال فى عدد من السيارات الأخرى وانضممنا اليهم فى بعض الدبابات التى خصصت للحماية . وتقدمنا على طريق الجنوب فى ثلاثة محاور . وكانت سيارة النقل فى الوسط . ولكننا اصطدمنا بعد قليل بجيب للعدو . وقد أومأت دباباتنا لقائد مجموعتى بأن ينسحب من المنطقة بينما كان هو يرغب فى الاستمرار . وعندئذ تعرضت احدى المدرعات للقصف واضطررت لأن أرجع الى الوراء لمسافة خمسمائة متر .

وانتشرت السيارات خلف أحد التلال . وصدرت الينا التعليمات بأن نستولى على المركز الحصين القريب منا . وفعلا احتللناه وقمنا بتطهيره ثم جلسنا لنشاهد العمليات التى كانت تقوم بها طائراتنا فصعد قائد مجموعتنا فى احدى المجنزرات التى لحقت بنا خلال ذلك أما أنا فقد مكثت مع رجال المظلات .

وخلال الليل تلقينا تعليمات بأن ننضم إلى الطابور المدرع الذى كان يتقدم جنوب المدينة للدفاع عن الدبابات ضد أى هجوم مصرى محتمل . وكانت تساندنا احدى وحدات المشاة . وأوضحوا لنا انه يتعين علينا ، لحصار الجيش الثالث ، أن نستولى على مدينة السويس ومضينا فى التقدم طوال الليل غير أن السيارات انغرست فى الرمال وكان

لابد للمدرعات أن تتدخل لكى تدفعنا الى الأمام . وأخيرا وصلنا على بعد أربعة كيلو مترات من مدينة السويس . وعندئذ احتلت وحدات الدبابات والمشاة مواقعها فى ضاحية المدينة المحاصرة ، غير أن مدينة السويس لم تكن بعد قد تم تطهيرها .

كنا ندخل مشارف المدينة بمجرد أن نشعر بأن نقط المقاومة التى قصفتها المدفعية قد ضعفت . كان الشارع الرئيسى فى المدينة عريضا ومشطورا فى منتصفه بممر . كان الساعة تناهز العاشرة وكانت الدبابات تتقدم ونحن من خلفها وكانت سيارات المظليين مكشوفة ولكن تحميها فى المقدمة والمؤخرة المجنزرات وكانت القافلة تضم سيارتى أوتوبيس محملتين بالجنود ومررنا أمام أحياء سكانية عند مشارف المدينة تم توغلنا داخل الحى القديم للمدينة الذى كان الدمار يغطيه فى كل جزء منه . وفى سكون تام تقدمنا حوالى كيلو مترين على ميمنة الطريق كما هو مفروض ثم فجاة بدأ « المهرجان » فقد بدءوا يطلقون النار علينا من كل بيت ونافذة وفتحة لقد كانت النيران تنطلق علينا بغزارة من كافة أنواع الأسلحة الآلية فضلا على القنابل اليدوية .

ومنذ اللحظات الأولى لاطلاق النار فقدنا عددا من السيارات لكى نحتمى بالجدران على ميمنة الطريق . وكنت أحمل معى مدفعا رشاشا من طراز عوزى ومن ثم بدأنا عملية تطهير هذه المنازل الواحد تلو الآخر وكنا نخلى الجرحى على قدر طاقاتنا الى أبراج الدبابات التى كانت تطلق وابلا من النيران على العمارات المكتظة بالرماة . ولكن كان يلزم اربعة ورجال لحمل جريح واحد .

لقد انطلقت بعض الدبابات ومن ثم وجدنا انفسنا وسط المدينة ووصلنا الميدان الرئيسى الذى ينتهى عنده شارع السويس الكبير فعبرناه ولكن تحت وابل كثيف من النيران .

وفجاة خرج المصريون من أحد الأبنية وهم يرفعون أيديهم فاقترب منهم قائد وحدتنا ولكنه أصيب لأنهم وجدوا فترة كافية لالقاء قنبلة يدوية قبل أن نقتلهم بمدافعنا . لقد كنا محاصرين تماما ومطوقين من كل اتجاه . فاندفعت مجموعتنا الصغيرة الى أحد المنازل وهنا أطبق علينا الفخ فقد بدأوا من الطابقين الثالث والرابع يمطروننا بقنابلهم

اليـدوية . وانطلقت من احدى العمـائر القريبة دفعات لا تتوقف من النيران . وهنا اتصلت بنا جمـاعة أخرى من رفاقنـا ممن حوصروا فى مبنى آخر بواسطة اللاسلكى ومنذ أن غادرنا السيارات لم نستطع أن نتقدم سوى حوالى أربعمائة متر وكنا نسخر من قولنا ان المدينة غدت شبحا من الأشباح . فكان فيها فضـلا عما بقى من سكانها بعض عناصر الجيش الثالث وكذلك بعض رجال الكوماندوز الذين انضموا اليهم .

وقد أمر قائد مجموعتنـا أربعة من المظليين بأن يخلوا العمـائر القريـبة من الجرحى خاصـة وأن المجنزرات كانت قد بلغت مفترق الطرق ، وتعاونا فى حمل الجرحى ولكن عندما تعين علينا أن نعـود الى مخبئنا ، رأينـا أن من الأفضـل العـدول عن ذلك . كمـا أن اللحاق بسياراتنا كان أمرا مستحيلا فى نفس الوقت .

كان عددنا سبعة ـ وقد تقدمتهم عدوا وكانت الساعة تقترب من الثامنة مساء ـ لقد فقدنا الاتصال تماما ببقية الوحدات وأطلقنا دفعات من النـار والقنابل اليدوية وانطلقنا .. وفى نهاية الأمر وصـلنا الى سيارتنا المجنزرة وقفزنا الى داخلها وانطلق أحدنا بالسيارة فى الوقت الذى كان الآخرون يطلقون وابلا من الرصاص على المناطق المحيطة .

وكانت مدرعاتنا تقف عند مدخل المدينة وتطلق النار فى موجات منتظمة على شوارعها . وهنا استخدمنا مصابيح السيارات فى ارسال اشارات لهم حتى لا يطلقوا علينا النيران ، وأخيرا تمكنا من بلوغ نقطة اخلاء الجرحى وتمكنا من الانسحاب منها . وعلمنا بعد ذلك اننا كنـا العناصر الوحيدة التى تمكنت من مغادرة السـويس أما الباقون فظلوا محتجزين بهـا . وكنت لا أرغب أنا ورفاقى فى أن يفترق بعضـنا عن بعض .

وبقص شالوموا اراد مصور الجيش ما يلى :.

« لم يكن هنـاك منزل واحد لم تطلق علينـا منه النيران . وكان الجرحى يرقدون على امتـداد الشـارع . أما المظليون الذين حاولوا اخلاءهم فقد احتجزوا الى جوارهم وكان الجنود المصريون المتحصنون جيدا خلف المنـازل يمطروننا بالقنـابل اليـدوية ويطلقون النـار على

الجرحى . ومن أجهزة الاستقبال كنا نسمع دائما نفس العبارة دون توقف « النجدة .. لم نعد نستطيع أرسلوا تعزيزات » وقد تلقت المجنزرة التى كان يستقلها قائد المجموعة الذى كنت أرافقه قذيفة هاون فقتل على الفور مجموعة من الرجال ، أما هو فقد أصيب ، عندئذ قررنا أن نقعد فى فناء أحد المنازل وأن نجبر الرماة على الانسحاب . الا أن القصف ظل مستمرا دون انقطاع وشاهدنا المصريين يخرجون من أحد المنازل .. لقد لقى بعضهم مصرعهم وأصيب البعض الآخر أما الباقون فلاذوا بالفرار . وعلى ما يبدو فان المنزل كان محصنا فقد اكتشفنا دشمة فى الفناء ولحسن الحظ وصلت مجموعة من المظليين لمعاونتنا خاصة وأن ما كان معنا من ذخائر قد نفد وقد نجحنا بفضل بعض القنابل اليدوية من تطهير الدشمة وبدأ المظليون تطهير المنطقة وهنا خرج ثمانية من رجال الشرطة المصريين رافعين أيديهم ، ولم تمض عشر دقائق حتى كانت وحدتنا تسيطر على هذا المبنى الذى كان فى الواقع نقطة شرطة ـ وكان يبدو أن العدو قد عقد العزم تماما على أن يستعيدها . فماذا حدث ؟ لقد اطلقوا نيران أسلحتهم الخفيفة وقذائف الهاون وسقطت فوق رءوسنا بعض الحوائط المنهارة . بل ان أحد الجنود المصريين نجح فى دخول المبنى والقى قنبلة يدوية وكان لابد من قتله .

وعندما وجد المظليون أنفسهم محاصرين من جميع الاتجاهات بادروا بطلب النجدة وفى نقطة البوليس حاولت الوحدة الصغيرة عبثا أن تخرج منه • وبذلت المدرعات المستحيل لكى تصل الى المكان • ولكن لم يكن هناك ما يمكن عمله لانقاذ الموقف • لقد منيت وحدة المظليين بخسائر فادحة. ومن خلال أجهزة اللاسلكى تلقت العناصر المبعثرة أمرا بأن تتوجه الى نقطة البوليس وأن تكون بذلك نقطة ربط بين الوحدات • وقد تمكن كل من كان قادرا على الحركة من الوصول الى المبنى • وبفضل الظلام اندفع المظليون الى السيارات لكى يبحثوا عن المؤن والذخائر ونظمت الوحدات نفسها لتتناوب الحراسة •

وقد التقط مقر القيادة العامة بسيناء رسائل الاستغاثة التى بعثت بها الوحدات : ومن الواضح أن رجال المظلات كان مقضيا عليهم لو لم نحاول انقاذهم هذه الليلة • ووصف درويك قائد الفصيلة المكان الذى

تتمركز فيه الوحدة فقال انه ليس سيئا تماما . وطلب اليه الجنرال جونين شخصيا أن يصعد على السطح وأن يصف ما يرى . وقد تمكن الجنرال بفضل احدى الصور الجوية التى التقطت لمدينة السويس من أن يحدد موقع نقطة البوليس . وقد شرح جونين بالتفصيل الطريقة التى يستطيع القائد أن يلجأ اليها للخروج هو ورجاله من هذا الكمين .

وغادرت المجموعة الصغيرة نقطة البوليس فى حوالى الثانية صباحا وصدرت لها التعليمات بأن تقف على بعد أربعة كيلومترات من الطريق الرئيسى فى مواجهة مخرج المدينة . وكانت شوارع المدينة تحتشد بالجنود المصريين . وكان جنود المظلات الاسرائيليون يمرون بالقرب منهم وهم لا يكادون أن يتفادوا سقوط قطع البناء والقضبان الحديدية التى كانت تحدث دويا هائلا عند الاصطدام بها . وكانت القلوب تنبض بعنف . وفجأة توهج ضوء قوى . هل هم أعداء أو أصدقاء ؟ ان أحدا لا يعرف حتى الآن .

ثم يتضح أنها الوحدة المدرعة التى تنتظرهم . وهنا قال قائد المجموعة الذى لم يستطع أن يخفى تأثره مخاطبا ومواسيا الجرحى : « هيا لقد حضر الرجال لقد انتهى الأمر .. خذوا بعض السجائر .. الهى .. لقد كنا قلقين انك تعلم ذلك » .

وكانت عقارب الساعة تشير الى الرابعة والنصف .

وكانت فرقة الجنرال ماجوين تواصل حركتها وهى تستدير حول المدينة وتصل الى ميناء الأدبية . لقد وقع الجيش المصرى داخل المصيدة .

وفى يوم ٢٤ أكتوبر أعلن القرار الثانى لوقف اطلاق النار وفى هذا الوقت كانت توجد وحدة اسرائيلية فى ضواحى الاسماعيلية لقد كانت القوات تقف بعد أربعة كيلومترات داخل الأراضى المصرية على الشاطىء الغربى للقناة وعند الكيلو ١٠١ من طريق القاهرة ـ السويس .

ورغم النجاح الأول الذى أحرزه العدو بعد أن انتشر على طول خط بارليف عاد ليصبح فى موقف عصيب .

ولم يحقق أى من الطرفين أهدافه .. انها حرب لم تنته بعد .

من شيربورج الى بورسعيد[1]

يردد الجنرال صمويل جونين (جوروديش) ان الحرب قد اندلعت كالرعد فى سماء صافية . ولم تزد الفترة التى تولى فيها جونين قيادة الجبهة الجنوبية خلفا لشارون سوى شهرين ظل خلالهما يعمل منذ الصباح حتى المساء : يتفقد الوحدات وينتقل هنا وهناك ويدرب رجاله ويعلق على كل ما يعن له ويحاول أن يدخل أساليب وعادات وطرقا مستحدثة فى القيادة التى يشرف عليها ، كذلك درس خطط الحرب التى قد تندلع وزار بصورة منتظمة من وقت لآخر خط بارليف .

وبعد أيام قليلة من تقلده مهام منصبه كقائد للجبهة الجنوبية أخطر أن مجهولين اختطفوا بعض الجنود من المنطقة الغربية لدير سانت كاترين. وفى الواقع لم يكن هؤلاء المختطفون سوى ثلاثة من الجنود الهاربين من خدمة الجيش كانوا يحاولون بمعاونة فتاة سرقة السياح . وقد تمكن هؤلاء الثلاثة بعد القبض عليهم وايداعهم السجن العسكرى من الهرب ومعهم بعض الرهائن .

فاستقل جونين طائرة هليكوبتر اتجه بها صوب ايلات وعندما توقفت سيارة الهاربين على الطريق أمام احدى نقط التفتيش كان الجنرال

جونين فى انتظارهم • وتقدم بمفرده تجاههم دون أن يشهر سلاحا • وقد روع الشبان الأربعة وأدركوا فجأة خطورة حالتهم • وهنا دعاهم جونين فى هدوء لأن يسلموا أنفسهم وبعد ساعات من المباحثات سلم الشبان أسلحتهم •

غير ان مثل هذه الأساليب لا يمكن أن تضمن النصر على المصريين • وعندما اندلعت الحرب ، لم يكن جونين سوى قائد لمنطقة عسكرية حديث الترقية • وكان جميع الجنرالات ـ الذين يعملون تحت امرته أكثر منه فى الخدمة العسكرية • فقد كان يعمل منذ فترة ليست بالبعيدة تحت امرة دون ومندلر • كما أن شارون وهو جندى قديم حقق مفاخر كثيرة ظل يعمل فى المنطقة الجنوبية لفترة تزيد على ثلاثة أعوام •

كذلك فاجأت الحرب المقدم اربك ليفى فقد رقى مساعدا لرئيس العمليات فى هيئة الأركان خلفا للجنرال حنا ايفرات الذى أسندت اليه قيادة القطاع الأوسط •

ولم يكن جونين وافرات وليفى وحدهم الذين تقلدوا مناصب جديدة قبيل الحرب • ومنذ أن تعين اليعازر ، منذ عامين ، فى رئاسة الأركان قام بتعديلات وتغييرات كثيرة بين كبار الضباط • فقد قام بنقل ٣٢ جنرالا وكولونيلا ومقدما • وقد أعقب كل تغير من هذه التغيرات تعديلات أخرى أحتفظ بسريتها لمقتضيات الأمن • وكان هناك دائما الجزء المرئى من جبل الجليد العائم هو الظاهر للعيان ، أما الجزء الآخر فلا •

ومن ثم فان حرب عيد الغفران فاجأت الجيش الاسرائيلى وهو فى ذروة عمليات التغيير والتبديل بكل ما ينطوى عليه ذلك من أبعاد فى مجال التنظيم والنواحى التكتيكية • فهناك ضابط كبير يتولى عادة منصبه فى غضون ثلاثة أو أربعة أعوام ويستطيع ضابط فى رئاسة الأركان أن يتقلد منصبا ثالثا وهو منصب رئيس العمليات وهذا أعلى الرتب بعد منصب رئيس الأركان •

وقد اتبع هذا النظام لتمكين الضباط الكبار من ترك الخدمة فى الجيش فى الخامسة والأربعين من عمرهم ، وبذلك يظل الفريق العامل محتفظا بديناميكيته وشبابه • ولم يكن هذا النظام موضع تطبيق منذ

أعوام قليلة وكان متوسط أعمار الضباط الكبار يتجه الى الزيادة باضطراد • ان الجيش الاسرائيلى يتألف من رجال وليس من آليات • وقد يكون للعلاقات الانسانية التى يقيمها ضابط مع رئيسه تأثير كبير على تقدمه • ان الضابط يجب أن يحاط برجال يستطيع أن يتفاهم معهم وأن يقدر صفاتهم ومواهبهم • وفى خلال العام الأخير من خدمته فى رئاسة الأركان فرض حاييم بارليف ألا يعين ضباطا جددا فى المناصب الرئيسية حتى لا يضع خلفه أمام الأمر الواقع • ولنفس السبب قرر تجميد كافة الترقيات •

وفى بداية عام ١٩٧٢ لم يكن معروفا من سيتولى رئاسة الأركان ، ولكن عندما عرف ان دافيد اليعازر هو الذى سيختار لهذا المنصب ، لم يشك أحد فى أنه سيجرى تعديلات غير أن أحدا لم يكن يتصور أنها ستكون بهذه الكثرة •

وعندما اندلعت حرب عيد الغفران لم يكن باقيا فى موقعه فى هيئة الأركان سوى جنرال واحد ممن خاضوا حرب الأيام الستة أما الباقون فقد جرى نقلهم • وقد كان من المفهوم فى ذلك الوقت أن الضباط الكبار يمكثون فترة قصيرة جدا فى منصب واحد وذلك حتى يكونوا فى ذلك الوقت قادرين على قيادة العمليات بصورة فعالة فى زمن الحرب وقد اتضح أنه كان لابد ، لمعاونة الضباط الشجعان والذين تعوزهم الخبرة الكاملة ، من استدعاء عدد من الضباط القدامى المتمرسين بكافة فنون القتال : فقد استدعى حاييم بارليف أولا لمعاونة القيادة العسكرية فى الجبهة الشمالية خلال الهجوم السورى ثم أوفد الى الجبهة الجنوبية لمعاونة جونين • كما استدعى الجنرال موردخاى هود (مونى) القائد السابق لسلاح الجو الاسرائيلى لمعاونة نبى بليد الذى رقى مؤخرا • كذلك أوفد على عجل أورى بن آرى وهو من أبرز ضباط المدرعات الى مقر القيادة العامة للجبهة الجنوبية وفى معظم الأحوال كان هؤلاء الضباط القدامى هم الذين اضطلعوا بكافة المسئوليات بصورة شبه رسمية • أما من الناحية الرسمية فلم يكونوا سوى « مستشارين » •

لقد كان هذا الاجراء اجراء حكيما •• فقد كان الجيش فى حاجة لهؤلاء الضباط الكبار الذين أنهوا خدمتهم بالجيش قبيل الحرب •

وكان معظم الضباط الذين تمت تعبئتهم تقرب أعمارهم ابان حرب الاستقلال من العشرين أو أكثر قليلا فى بعض الأحيان . وفى كثير من الحالات فان حرب عيد الغفران كانت أول حرب يخوضها أولادهم ومن هنا كان التزامهم فى مواجهة هذه الحرب مزدوجا .

غير ان تجربة الماضى لم تكن دائما ذات نتائج ايجابية فقد كان هؤلاء المقاتلون القدامى يميلون غالبا الى النظر الى هذه الحرب الجديدة من خلال مفاهيمهم العسكرية السابقة . فقد تغيرت الأوضاع والظروف والأساليب والمفاهيم التكتيكية .

كان المصريون يراعون فى خططهم الهجومية هذه الحقيقة وهى أن القوة المسلحة الاسرائيلية ترتكز بصورة أساسية على قونها من الاحتياطى . كانوا يعلمون أن خط بارليف ليس بالخط الذى سيستعصى عليهم ولكنهم كانوا يخشون قوات الاحتياطى التى يمكن اعدادها للقتال فى غضون ٢٤ ساعة من بدء الهجوم . ومن ثم درس المصريون كل خططهم فى ضوء هذه الفترة التى يستغرقها اعداد الاحتياطى . لذلك كلفت خير عناصر الجيش المصرى وهى وحدات الكوماندوز بسد الطرق للحيلولة دون وصول التعزيزات الى الجبهة . وفى مساء ٦ أكتوبر قامت طائرات هليكوبتر عملاقة سوفيتية بنقل كتائب بأكملها لاسقاطها خلف الخطوط الاسرائيلية . وكانت هذه الوحدات شأنها فى ذلك شأن قوات المشاة على طول القناة مجهزة بالصواريخ المضادة للدبابات من طراز بازوكا ر.ب.ج، وقد أسقطت كتيبة من خير عناصر الصاعقة المصرية فى منطقة شرم الشيخ، واحتلت كتيبة أخرى المواقع الاسرائيلية على طول خليج السويس ، من رأس سدر حتى حقول البترول فى أبو رديس وقد أسقطت هذه الليلة المدفعية الاسرائيلية المضادة للطائرات ١٨ طائرة هليكوبتر مصرية ضخمة. بيد أن البعض الآخر ، وان كنا نجهل عدده ، نجح فى بلوغ أهدافه .

ومن المحتمل أن يكون المصريون ، قد قرروا فى ضوء هذه الخسائر التى منوا بها فى مجال الطائرات الهليكوبتر ، اعادة النظر فى خطتهم فقد كانوا يخشون ، ازاء ردود الفعل المحتملة من جانب الاسرائيليين . أسوأ الاحتمالات بالنسبة لاحتياطات مصر من رجال الصاعقة . ولذلك لوحظ

أنه عندما كانت تشرك مصر الكوماندوز فى بعض العمليات فانها كانت تفعل ذلك بأعداد أقل مما فعلت فى الليلة الأولى ٠

وتعكس عمليات الاسقاط المظلى هذه التكتيك السوفييتى الجديد الذى يرتكز على استخدام الكوماندوز من المظليين بينما الأسلوب المتبع فى كافة جيوش العالم هو استخدام رجال المظلات فى عمليات سريعة جريئة ، أما السوفييت فينصحون باستخدام وحدات كبيرة فى هذا المجال ٠ ولكن ربما كان هذا المفهوم الذى أحبط العمليات المصرية ٠٠ اذ كلما أسقطت أعـداد كبيرة من طائرات الهليكوبتر ، تعـذر على رجال الكوماندوز الاضطلاع بمهامهم ٠ واضطروا لأن يقنعوا بدور المراقب الحـذر انتظارا لوصول المدرعات والمشاة ثم ينضمون اليهما ٠

غـير ان قوات الكوماندوز أظهرت فاعلية فى نقطتـين فقط هما شرم الشيخ فى الجنوب وفى القطاع الشمالى من قناة السويس ٠

فقد سقطت فى الساعات الأولى من صباح يوم الأحد ٧ أكتوبر وحدة الدبابات الاسرائيلية التى كانت تتقدم صوب الجنوب فى كمين نصـبته عناصر من الصاعقة المصرية فقد ترك العرب المركبات الأولى من الطـابور المدرع تتقدم ، وعندما أصبحت هذه المدرعات فى المرمى المؤثر لنيران هذه القوات ، أطلقوا عليها صواريخهم وقذائف البازوكا ٠ وقد وصف أحد ضباط الوحـدة المدرعة الاسرائيلية المعركة فقال : « لقد قاتل جنـود الكوماندوز المصريون بشراسة مجنونة ، لقد كانوا قوات انتحارية بحق٠ فقد القوا بأنفسهم علينـا ، وكانوا يبدون أنهم لا يخشـون أو يرهبون شيئا ٠ وبعد أن أطلقوا عدة قذائف اختفوا خلف الأحراش ليعيدوا حشو أسلحتهم بدفعة جديدة من القذائف استعدادا لهجوم آخر ورغم خسائرهم الفادحة الا أن الكوماندوز المصريين لم ينسحبوا أو يتقهقروا مطلقا ٠ ويمكن القول انهم قد عزموا على ألا يسمحوا لدباباتنا بالمرور الا على جثثهم ٠ وكان رماتنـــا المتحصـــنون خلف أبراج دباباتهم يقتلونهم بمدافعهم الرشاشـة ٠

وبمجرد أن أخطرت القيـــادة بالكمين بادرت بارسال وحـدة من المجنزرات للتعزيز وفى اليوم التالى احصينا جثث ٧٥ من هؤلاء الرجال ٠

وبالنسبة للاسرائيليين فان الدرس كان مفيدا • فلم يسبق أن اصطدم الاسرائيليون بمثل هذه القدرة القتالية العالية •

غير أن هذه لم تكن المفاجأة الأولى ، لقد كانت هناك أيضا صواريخ سام ٦ ، سام ٧ المضادة للطائرات . فقد كانت العناصر الأولى من النوع المتحرك الذى يطلق من مجنزرات ومن ثم فكان فى وسعه أن يتحرك خلف القوات المصرية المتقدمة • أما النوع الثانى فكان من النوع الذى يحمل على الكتف ويطلق من جهاز أشبه بمدفع البازوكا ••

ولم تكن الصــواريخ بأجهزة تفجيرها قد استخدمت سـوى مرة واحدة • كان الجيش الاسرائيلى يعلم بوجود هذه الأسلحة ولكن استعمال جيش مصرى مدرب لهذه الأسلحة بكثافة وكفاءة ذلك كان عنصر الدهشة•

لم تنشر اسرائيل خسائرها فى الطيران ولكن طبقا لما أوردته المجلة الأمريكية « افيش ويك » تربو خسارة اسرائيل فى هذا المجال عن ١١٤ طائرة ، و٣٥ فانتوم ، و٥٥ قاذفة « سكاى هوك » ، و١٣ « ميراج » ، و٦ « سوبر ميستير » ، و٦ هليوكوبتر ، أى ١٨ ٪ من سلاح طيرانها • ويبدو هذا العدد ضخما دون شك •

أربع طائرات فقط سقطت خلال معارك جوية أما الباقى فقد أسقطها الدفاع الجوى والصواريخ •

واذا كان سلاح الجو الاسرائيلى مدربا على وسائل تفادى الصواريخ فلم يكن الأمر كذلك بالنسبة للمدرعات • فقد اشتركت كتائب بأكملها فى المعارك دون أن تعلم شيئا عن الأساليب الحديثة للمعارك التى يتبعها العدو • وكانت عواقب ذلك وخيمة للغاية •

وقد أثبتت الدروس المستفادة ، من الحروب الحديثة وخاصــة من حرب الأيام الستة ، ان الانتصار هو نتيجة الالتجاء الى الحركة مع قوة الوحدات الضاربة • بمعنى آخـر ، لم يعد يجدى أسلوب التفريق بين أسلحة الجيش المختلفة : المظلات ، المشاة ، والمدرعات والمدفعية • انما يجب أن يدمجوا كلهم فى كل واحد : جيش مدرع يتمتع بقوة نيران وســهولة قصوى فى الحركة •

وبالفعل ، اذا كان الجيش الاسرائيلى قد نجح على الأرض فى كسب

الموقف ، فان ذلك لم يتم الا بعد أن وحد كل قواته فى اتجاه واحد ٠ وأوضح مثل لذلك الثغرة التى سمحت له عبور قنال السويس مع انها عملية تمت بطريقة ارتجالية بدلا من أن تكون ثمرة لتفكير واع عميق ٠

أما البحرية الاسرائيلية ٠ فقد قدمت مثلا بناء ، لما يمكن أن يحرزه سلاح من انتصارات اذا تمشى مع الواقع الجديد بوسائل متواضعة ٠ لقد مرت البحرية بأعنف ساعات تاريخها كله ، فى انتظار المعارك الأولى بين السفن الحربية قاذفة الصواريخ الاسرائيلية والسورية ٠ أما بالنسبة للبحرية فقد كانت الأولى ٠ ولم يكن الضباط ولا البحارة يجهلون ذلك ٠

ومع هذا ، فى ليلة حالكة الظلام والبرودة ، أقلعوا فى اتجاه الموانىء السورية التى تبعد مئات الكيلومترات عن القواعد الاسرائيلية ، وقد اضطرت قطع الأسطول أن تدور حول الشواطىء اللبنانية التى تفصل بين اسرائيل وسوريا ، حتى تصل الى هدفها ٠ وكان الوقت منتصف الليل وبعد دقائق ابتدأ القتال ٠

وكانت هذه المعركة البحرية الأولى من نوعها بالطبع : فبعد ساعة ونصف من تبادل صواريخ سطح ـ سطح ، استخدم خلالها الصاروخ «جبرييل» المصنوع فى اسرائيل واغراق ثلاث قاذفات صواريخ ، وكاسحة ألغام وحاملة قاذفات طوربيد سوريين ٠ ولم يصب أى من الصواريخ السوفيتية التى أطلقها السوريون الهدف ٠ وعندما وصلت التقارير الأولى الى القيادة العامة للبحرية الاسرائيلية لم يشك أحد انها قد أحرزت نجاحها الأول ٠

فحتى وقوع هذا الاشتباك الأولى ، اكتفى ضباط البحرية بالأمل فى أن تكون المبادىء والنظريات والمعدات التى أعدوها ، متمشية مع احتياجات المعارك الجديدة وأمام هذا الانتصار ، لم يعد هناك أدنى شك ، لقد نجحت البحرية الاسرائيلية فى الامتحان بتقدير « جيد جدا » ٠

ولم تكن قيادة الأركان العامة ، مقتنعة تماما بانه لا يمكن أن تقع اشتباكات برية أو جوية بينها وبين الدول العربية ، ولذا لم تكن تعطى أهمية كبيرة للبحرية الحربية ٠ فقد كانت دائما تجىء فى نهاية القائمة حينما كان الأمر يتعلق بشراء أسلحة ومعدات ٠

وبعد حرب الأيام الستة بقليل اعتنق الأسطول الاسرائيلي أسلوبا جديدا في القتـــال فقد ظهر أن القتـــال في البحر قد دخل في عصر الصواريخ • ولذا قرر قادة البحرية ألا يستعملوا قطع الأسطول الثقيلة • مثل المدمرات • التي كان شراؤها وصيانتها يكلف الكثير ، على الرغم من كفاءتها • وتم الاتفاق على تكوين أسطول هجومي يعتمد أساسا على وحدات سريعة تتمتع بقوة نيران كبيرة • وبهذه الطريقة ظهرت قاذفات الطوربيد الأولى التي تم تجميعها كلهـا في اسرائيـل ولكنها صنعت في أحـواض شيربورج البحرية • كانت البحرية السورية والمصرية أكثر قوة وكفاءة أثنـــاء حرب الأيام الســتة • وقد رجع الصـحفيون الذين دعوناهم الى زيارة وحدات البحرية الاسرائيلية مصابين بخيبة أمل • ولم يدهشهم أبدا تصرف الأسطول المحدود في حرب ١٩٦٧ •

وقد تم تدعيم البحرية الاسرائيلية بقطع الأسطول التي بنيت في شيربورج وتم تهريبها علنـــا بالرغم من الحظر وكذلك بنـاء سفن صغيرة للنقل ، وقاذفات صواريخ في الأحواض الاسرائيلية •

وكانت مهمتها ، حتى وقوع حرب الأيام الستة ، تتركز في ضمان أمن سواحل البلاد • وقد اكتسبت خبرتها خلال « حرب الاستنزاف » بالتعاون الوثيق بينها وبين الأسلحة الأخرى •

ولم يفكر القادة المصريون ، المقتنعون تماما بتفوق الأسطول المصري الكبير على بحرية اسرائيل الصغيرة ، ان اسرائيل قد تستطيع أبدا أن تلغي هذا الفرق بينهما • واليوم أيضا ما زالت البحرية المصرية تعتبر من اقوى أساطيل الشرق الأوسط ، متفوقة حتى على الأسطول التركي ، وهي الدولة ذات الاستعداد البحري العريق • ان قطع الأسطول الحربي المصري متنوعة في الغالب حتى تتمشى مع احتياجات كل أنواع العمليات ــ من أول اغلاق الطرق البحرية الى مساندة القوات الأرضية في حالة الابحار • ولقد عرف الخبراء العسكريون في العالم كله الأسطول المصري بأنه متوازن التكوين •

كانت عدة قطع من الأسطول المصري محاصرة في البحر الأحمر منذ حرب الأيام الستة • فان اغلاق قناة السويس لم يسمح لها بالمرور الى البحر الأبيض المتوسط • كان هذا الأسطول يضم وحدات كثيرة ترسو

فى ميناء بور سودان : « ويتكون من ثلاث مدمرات ــ غرقت احداها ــ وغواصتين وقطعتين أخريين حاملات صواريخ وسفينتين حربيتين صغيرتين· ومنــذ بداية حرب أكتوبر كان لهذا الأسطول فى البحر الأحمر نشاط ايجابى فى العمليات الحربية · فقد اتجهت بعض هذه القطع الى مضيق باب المندب ، فى مواجهة جنوب اليمن ، حتى تقطع الطريق على ناقلات البترول التى كانت تنقل الوقود الى ايلات · وبالفعل منعوا الدخول الى اسرائيل من الجنوب ·

وكانت رئاســـة الأركان الاسرائيليــة قد قررت ، ردا على هجوم يوم كيبور ، أن تدفع إلى المعركة بكل القوات التى تملكها · فقد تلقت قاذفات الصواريخ البحرية الأمر بالاقلاع الى اللاذقية حيث وقع الاشتباك البحرى الأول الذى تحدثنا عنه · ولو كانت المواجهة إنتهت بانتصـار سوريا ، لكان من المستبعد أن تجدد البحرية الاسرائيلية اشتباكاتها فى العمق من مؤخرة العــدو · وكان هذا الانتصــار بمثابة شعاع الشمس بالنسبة لما تكبدته القوات الاسرائيلية البرية فى الجولان وسيناء فى الأيام الأولى · ومنذ هذه اللحظة أعطيت للبحرية حرية الحركة والتصرف · وفى نفس الليلة كانت وحدات من الأسطول المصرى قد حاولت أن ترسو فى منطقة « رمانة » ولكن طائرة إسرائيلية أغرقت واحدة منها · وفى نفس الساعة تقريبا ، كانت بعض القوارب الاسرائيلية تعبر خليج السويس ، وتخترق حوض الزعفرانة حيث كان الأسطول المصرى راسيا · وقد تم تدمير بعض الزوارق المطاطة ولنشا يقل مجموعة من قوات الضاعقة ·

وفى مقابل هذه العملية كانت بعض قاذفات الصواريخ البحرية تتجه الى « شرم الشيخ » فى البحر الأحمر · كانت المدينة قد تعرضت للقصف منذ الصباح · واستطاعت قطع الأسطول المصرى أن تدخل الى مياه الخليج مستترة بالظلام وأطلقت صواريخ « ستيكس » على الأهداف الاسرائيلية على الساحل ·

كان القائد الاسرائيلى « يتليم » قد أكد : « لقــد قررنا أن نواجه عدونا فى قواعده وفى مساء ٨ أكتوبر كانت بعض قطع الأسطول الاسرائيلى تقترب من ميناء دمياط المصرى · وقامت معركة كلاسيكية فى مواجهــة الميناء تم خلالها اغراق ثلاث سفن مصرية من طراز « أوسا » . أما الرابعة

فقد نجت بفرارها • ولم تصب قطع الأسطول الاسرائيلى بتاتا • بعد هذه التجربة قرر المصريون ألا يرسلوا بعد ذلك بمدمراتهم فى أعالى البحار دون حماية من قاذفات الطوربيد • وهكذا وجد الأسطول المصرى نفسه مشلولا فى قواعده •

واستمرت البحرية الاسرائيلية فى هجماتها بعد أن شجعها هـذا النجاح • فقامت بقصف موانى البحرية السـورية والمنشآت الساحلية والبترولية فى « بنياس وطرطوس » واللاذقية واغرقت قطعتين أخريين من أسطول العدو • وتم ضرب مستودعات الوقود فى بنياس ، مؤدية بالتالى الى اشعال حريق استمر ثمانى وأربعين ساعة •

أما على السـاحل المصرى ، فقد قصف الاسرائيليون دمياط وكل المنشـآت غرب الاسكندرية ومنطقة بور سعيد ومصب دلتا النيل وأكثر المناطق التى توغلوا فيها كانت تقع على بعد ٢٠٠ كيلو متر من الاسكندرية واستطاعت بعض قوات الصـاعقة الاسرائيليين أن تشل حركة قاذفات الطوربيد فى ميناء الغردقة ، فى البحر الأحمر •

وليس من المبالغ فيه أن نؤكد أن البحرية الاسرائيلية كانت تسيطر على القوات البحرية المصرية إبان حرب أكتوبر •

من الطبيعى أن السـفن الاسرائيلية كانت تتفـادى الاشتباك مع الأسطول السوفييتى الذى كانت قطعه متناثرة فى البحر الأبيض ومن بين ثمانين قطعة كان بعضها يعمل على نقل الامدادات كان الباقى يعمل كمراكز للتصنت •

كانت حرب كيبور تشمل ثلاث مفاجآت : الجيش المصرى والجيش السورى والبحرية الاسرائيلية ، ان هذه الدعاية تفصح عن واقع مرير ومريح فى آن واحد فان البحرية الاسرائيلية كانت السلاح الوحيد ، الذى كان مجهزا بوسائل قتالية تتمشى مع أهدافه وخططه ، كما أنها استخدمت فى الحرب سياسـة ديناميكية حديثة • فقد أثبتت أن تطبيق المفهـوم العسكرى تطبيقا سليما قد يجعل الكيف أكثر خطورة من الكم ان لم يكن يعادله •

كيبور وكيسنجر والكيلو ١٠١
تبدأ جميعها بحرف «ك»

بعد ظهر يوم ٢٤ أكتوبر ، مرت طائرة نقل سوفيتية ضخمة ، من طراز أنتينوف ، على ارتفاع منخفض فوق الأراضى اليوغسلافية . حتى أن صوت المحركات المدوى المتواصل كان يجعل قطيع الحيوانات تهرب . وأخذ الفلاحون الذين مازالت ذكريات الغزو الهتلرى عالقة فى أذهانهم . يتركون حقولهم ويلجأون الى منازلهم .

عشرات من الانتينوف تتجه نحو الشرق ليس الامر غزوا ولا تدريبا . ان هذا التشكيل الجوى الضخم ينقل لمصر وحدات من المظليين السوفييت مايقرب من ستة آلاف شخص مزودين بأحدث المعدات .

من ثلاثة أيام فقط ، فى ٢١ أكتوبر ، أعلنت حالة الطوارىء بين وحدات الجيش الأحمر الموجودة فى دول حلف وارسو . وفى نفس اليوم ، هبطت طائرات النقل فى منطقة باكونى جنوب المجر .

وتجمعت فى هذا القطاع اثنتا عشرة وحدة سوفيتية . فى صباح ٢٤ أكتوبر ، عند الظهر ، تلقت بعض فرق المظلات أوامر بالتحرك واتجهت الى مطارات الاقلاع العسكرية .

وعندما أبلغ الرئيس ريتشارد نيكسون بأول أخبار هذه الطلعات ، أعلن حالة الطوارىء بين جميع القوات الأمريكية ، حتى قيادة السلاح الجوى الاستراتيجى . وبالنسبة للمراقبين الذين لا يعلمون شئيا عن المناورات السياسية ، يعتبر مثل هذا الاجراء بمثابة صدام وشيك بين الكتلتين الكبريين . وقد يفكر البعض أن الحرب العالمية الثالثة على الأبواب . طلب الرئيس نيكسون عقد اجتماع لمجلس الأمن القومى وأخذ يشرح لهم طوال ثلاث ساعات ، الأسباب التى دعته لاعلان حالة الطوارىء واقر المجلس قرار الرئيس .

عندما يعلم السوفييت أن الولايات المتحدة الأمريكية مستعدة ، هى أيضا ، لارسال قوات الى الشرق الاوسط ، فسوف يعدلون عن خطة التدخل .

فى صباح ٢٥ أكتوبر ، سوف يرى الفلاحون اليوغسلاف طائرات الأنتينوف الضخمة تتجه عائدة مرة أخرى .

وهكذا ، بينما يخوض المصريون والاسرائيليون الاسبوع الثالث للقتال ، نجد ان الانسانية كلها قد نجت من دمار شامل .

وفيما بعد ، فسر المراقبون هذا بأن اعلان حالة الطوارىء كان خطأ وادعوا أن القادة السوفييت لم يفكروا أبدا فى ارسال قوات الى الشرق الاوسط . انما كان هدفهم دفع أمريكا الى التدخل لوضع حد لموقف أخذ يزداد خطورة .

فى هذه النقطة بالذات وصل السوفييت تماما لغرضهم : فمنذ هذه اللحظة بدأ ضغط الحكومة الأمريكية على اسرائيل يتزايد . وبدأت الدولة اليهودية تفقد جزئيا السند السياسى للدولة الصديقة الوحيدة الباقية لها .

منذ حرب كيبور ، أصبح موقف اسرائيل السياسى ضعيفا ومازال. ان اسرائيل المعزولة عن المسرح الدولى ، ترتبط بأهواء الولايات المتحدة. فقد قطعت أغلب الدول الافريقية علاقتها بالقدس . كما رضخت الدول الأوربية لتهديد حظر البترول ، مفضلة ضمان تزويدها بالطاقة على اعلان تأييدها لاسرائيل .

وقد نستطيع جوازا ، أن نأسف لعدم وجود جهاز فى اسرائيل مثل مجلس الأمن القومى فى الولايات المتحدة الذى من واجباته أن يحدد الخطوط العريضة للسياسة الخارجية وفى نفس الوقت بحث كل المواقف التى قد تهدد أمن الدولة . ان عدم وجود مثل هذا الجهاز وكذلك عدم وجود سياسة خارجية محددة ، لايمكن السفراء وممثلى اسرائيل الآخرين أن يعملوا الا فى اطار ضيق طبقا لكفاءتهم وقدراتهم الخاصة .

ان العلاقات بين اسرائيل وأمريكا منذ حرب أكتوبر ١٩٧٣ تعطى مثلا صارخا للدور الذى تلعبه الدبلوماسية الاسرائيلية خلال حرب أكتوبر ، ان العلاقات الخاصة التى قامت خلال السنوات الأخيرة بين اسرائيل والولايات المتحدة كانت تتطلب أن تضمن شخصية ذات نفوذ العلاقات بين الدولتين . ولذا تم تعيين اسحق رابين ، رئيس أركان الجيش الاسرائيلى السابق ، سفيرا فى الولايات المتحدة بعد حرب الايام الستة . فقد نجح بفضل صفاته الشخصية ـ فهو شخصية لماحة يملك حاسة تحليلية ـ أن يوثق الروابط بين اسرائيل وأمريكا أكثر من اى وقت مضى . وقد اكتسب مركزا فريدا فى واشنطن . فقد قام باتصالات مع كبار الشخصيات الامريكية وكان يتمتع بتقدير جميع رؤساء المؤسسة ـ وبذلك كان يخدم مصالح اسرائيل بكفاءة يحسده عليها الدبلوماسيون الاجانب وقد أصبح رابين بالفعل ، وزيرا للعلاقات الأمريكية . فلم يكن يعتبر منصبه تابعا لوزارة الخارجية الاسرائيلية وطبقا لاتفاق سابق مع رئيسة مجلس الوزراء فى حضور أبا ايبان ، وزير الخارجية وكان يقوم باتصالاته مع مدام جولدا مائير مباشرة .

وهكذا تم خلق ما يشبه الدائرة الكهربائية المغلقة بين سفارة اسرائيل فى واشنطن ووزارة الخارجية فى القدس .

بعد عام ١٩٧١ ظهر اختلاف فى وجهات النظر بين «رابين» والحكومة . فان جولدا مائير لم تكن تحبذ قط أن يتم التعبير عن آراء مخالفة لآرائها أو الدفاع عنها . وبايعاز من عدد من الوزراء بدأت الصحافة الاسرائيلية تهاجم رابين بسبب العلاقات الخاصة التى كان ينميها مع المحيطين بالرئيس نيكسون ، فمنذ وصوله الى واشنطن عام ١٩٦٨ ، نجح رابين فى اجراء اتصالات مباشرة بالبيت الابيض متخطيا وزارة الخارجية فقد

فهم أنه يجب تفادى حدوث سوء التفاهم الذى وقع عام ١٩٥٦ ، حينما اتفقت اسرائيل مع فرنسا وبريطانيا دون ابلاغ أمريكا ، على القيام بحملة وكانت النتيجة انه تحت ضغط واشنطن وموسكو معا ، اضطرت اسرائيل الى سحب قواتها . وقد ظهر فيما بعد أن الرئيس أيزنهاور ووزير خارجيته جون فوستر دالاس ، لم يكونا الى حد ما ضد العملية ولكن غاظهما عدم استشارتهما أو ابلاغهما بها .

وحينما اقتنع رابين أن مصلحة اسرائيل تتطلب تجنيد كل الجهود والموارد الأمريكية لم تتردد أن يقوم بمواجهة مفتوحة عن طريق «الأوراق الوردية» التى كانت تنشرها من وقت لآخر سفارة اسرائيل فى واشنطن .

وحينما عاد السفير الى اسرائيل فى نهاية مدته ، رأت الحكومة الاسرائيلية أن مثل هذا الممثل المستقل ليس مرغوبا فى واشنطن .

وقررت جولدا مائير أن تشرف بنفسها على كل مايتعلق بالعلاقات بين اسرائيل والولايات المتحدة وقررت تعيين « سيحما دينتز » مستشارها السياسى سفيرا .

و «دينتز» كان يستطيع بكل تأكيد أن يقوم بالمهام الموكلة لسفير إسرائيل فى أغلب عواصم العالم ولكنه كان من الصعب أن يحصل على تعاطف وثقة الولايات المتحدة التى كانت تمنحها لمن سبقه .

وفى فندق بلازا ، دق جرس التليفون فى الحجرة التى يقيم بها ابا ايبان ، وزير الخارجية الاسرائيلى ، كان ذلك فى ٦ أكتوبر وكانت الساعة التاسعة والربع صباحا ، بالتوقيت المحلى .

قال له كيسنجر فى التليفون : « ايبان ان المخابرات الأمريكية قد افادتنا لتوها أنه قد تم اعلان الحرب وأن القتال قائم فى منطقة قنال السويس . وبودى أن أقتنع أن الإسرائيليين لم يكونوا البادئين بالقتال .

واجاب ايبان : أرجو الا تكون هناك خسائر جسيمة وكما قلت لسيادتكم لم يكن فى نيتنا القيام بحرب وقائية وسوف أتقصى فورا الموقف وأحيطكم علما» .

وكانت هذه الاجابة المتعثرة سببا فى اعتقاد الأمريكيين لبضع ساعات أن الاسرائيليين هم البادئون بالعدوان .

وكانت الحرب مفاجأة تماما بالنسبة لأبا ايبان . وكان فى نيويورك يصحبه مساعده « أتين بن تسور » لحضور اجتماع الجمعية العامة للأمم المتحدة . أما فيما يتعلق بهذه الحرب : فقد علم أنها وشيكة قبل وقوعها بساعتين . بالفعل ، ففى السادسة (التوقيت المحلى فى صباح يوم كيبور هذا كان التليفون قد دق من قبل فى حجرة «أيتن بن تسور» . كان أحد اعضاء القنصلية الاسرائيلية فى نيويورك منفعلا ويقول لمستشار أبا ايبان: «لقد وصلتنا برقية عاجلة للغاية للوزير وقد بعث بها اليه على الفور» .

وكانت البرقية ، الموقعة باسم الوزير اسرائيل جاليلى ، دليلا قاطعا على أن مصر وسوريا قد قامتا بالعدوان على اسرائيل فى نفس اليوم، بعد الظهر ٠

وكان جاليلى يرجو أبا ايبان أن يتصل فورا بكيسنجر وابلاغه هذه المعلومات ويطلب منه التدخل فورا الى جانب المصريين لاقناعهم بالعدول عن هذه العمليات العسكرية ٠

وحاول بن تسور الاتصال بوزيره ، الذى كان قد انتهز فرصة اجازة يوم كيبور ليمنح نفسه يوما كاملا من الراحة ، وأوقف تليفونه من العمل ونام نوما عميقا ٠ وكان بن تسور ما زال يدق بابه منذ ربع ساعة عندما استيقظ أبا ايبان فى النهاية وفتح له .

واحدثت البرقية ارتباكا كبيرا لوزير الخارجية الاسرائيلى . فقد رحل عن اسرائيل قبل يوم العام اليهودى ـ بين العشرين والخامس والعشرين من سبتمبر ـ ولم تكن هناك أية بوادر تشير الى الحرب ٠ كما أن المخابرات الأمريكية ـ ولم يكن الوزير قد علم بذلك بعد ـ قد وصلتها اخبار من جهاز المخابرات الاسرائيلية يوم ٤ أكتوبر عن تطور الموقف الذى يستبعد احتمال الحرب فى الشرق الأوسط فى المستقبل القريب .

وقد تلقى أبا ايبان ، يوم الجمعة ٥ أكتوبر : برقية من اسرائيل تفيد أن هناك مظروفا به معلومات سوف يرسل له وعليه أن يسلمه الى كيسنجر . ولم يذكر شيئا عن طبيعة المعلومات وأجاب أبا ايبان بالتالى على تل أبيب بأن يرسلوا هذا المظروف مباشرة الى كيسنجر عن طريق مكتبه فى واشنطن ٠ وكان من الصعب بالفعل مقابلة كيسنجر اذ أنه كان

فى اجتماعات مستمرة مع عدد من وزراء الخارجية المشتركين فى دورة الأمم المتحدة .

ولذا فان مكتبه فى واشنطن كان فى وسعه أن يرسل اليه المستندات فى نيويورك ٠

وكانت هذه المستندات تتضمن تقديرا جديدا للموقف : وكان هذا التحليل الأخير يلقى الضوء على انتشار القوات المصرية والسورية ويستخلص من ذلك احتمال قيام اشتباك مسلح ٠

ولم يصل المظروف يوم الجمعة . ولكنه سلم لكيسنجر صباح السبت ٦ أكتوبر ، مع أوراق أخرى كثيرة . ومن بينها البرقية التى أرسلها كينث كيتنج بعد مقابلته جولدا مائير . ولم يكن وزير الخارجية الأمريكية قد أطلع على تقرير سفيره فى اسرائيل حينما اتصل به أبا ايبان تليفونيا فقد تلقى لتوه برقية «جليلى» يرجو فيها كيسنجر أن يقوم بمحاولة اقناعهم بالعدول عن الحرب ٠ ولكن هنرى كيسنجر كان غاية فى التشكك ، فان التحليلات التى قدمت له تفيد بأن الخبراء السوفييت الذين فى مصر وسوريا قد عادوا الى بلادهم ٠ ولذا فان تلك التحاليل كانت مطمئنة للغاية ٠ ومع ذلك ، حاول وزير الخارجية أن يقابل محمد حسن الزيات وزير الخارجية المصرى الذى كان موجودا فى نيويورك لنفس الأسباب مثل أبا ايبان ٠ وقد تمكن بعد صعوبة أن يتصل به ولكن الوزير المصرى أكد له أنه لا يعلم شيئا ٠ ومع ذلك ، فسوف يبلغ حكومته مخاوف اسرائيل وطالبه كيسنجر بضبط النفس .

وبعد مقابلته بوزير الخارجية المصرى ، قام وزير الخارجية الأمريكى بعدة اتصالات بالرئيس نيكسون الذى كان يقضى عطلة نهاية الاسبوع فى فلوريدا ، فى كى بيسكان .

وابلغه أن الموقف فى الشرق الأوسط يهدد بالانفجار وانه يحاول ان يحدد ما اذا كان السوفييت يلعبون دورا فى هذا وأعطى نيكسون أوامر فورا بتكوين «مجموعة عمل خاصة» تتكون من ممثلى وزارة الخارجية والبنتاجون والمخابرات المركزية ورئاسات الأركان ٠ وبدأت هذه المجموعة فى العمل من صباح السبت تحت رئاسة هنرى كيسنجر . وفى نفس

الوقت : تم تكوين رئاسة أركان خاصة فى البيت الابيض بفلوريدا ، برئاسة الجنرال الكسندر هيج وكانت على اتصال دائم بكيسنجر .

وفى التاسعة صباحا (الخامسة عشرة فى اسرائيل) ابلغت المخابرات المركزية هنرى كيسنجر بأن القتال قد بدأ على طول قناة السويس وان الطيران المصرى يقصف المواقع الاسرائيلية فى سيناء . وقد اعتقد كيسنجر أن اسرائيل قد سبقت الهجوم المصرى وقامت بهجوم وقائى وذلك لأن تقارير المخابرات الاسرائيلية كانت قد أعلنت أن الهجوم وقع فى الساعة الثانية عشرة (بتوقيت نيويورك) . وهذا ما يعلل سؤاله لأبا ايبان ، بعد ذلك بربع ساعة .

وكان السفير سيمحا دينتز موجودا فى ذلك اليوم فى اسرائيل ،لوفاة والده . وكان القائم بأعمال سفارة اسرائيل فى الولايات المتحدة « موردخاى شالت » من المتدينين . وقد وصل الى السفارة بعد عدة ساعات وهو صائم . وسريعا ما وصلت البرقيات الأولى تطلب من القائم بالاعمال أن يعمل اللازم لضمان وصول المعدات الحربية لاسرائيل بصفة متصلة .

وحينما علم كيسنجر أن الحرب قد بدأت ، اجتمع بأبا ايبان . ثم استقل بعد ذلك الطائرة الى واشنطن . ومن هناك استدعى ايبان وسأله بعد كم يوم تستطيعون السيطرة على الموقف .

وبينما كان الوزير الاسرائيلى يستفسر الاجابة من تل أبيب ، كان وزير الخارجية الأمريكى يرأس اجتماعا « لمجموعة العمل الخاصة » وأبلغه ابيان انه طبقا لتقدير القادة الاسرائيليين سوف تنتهى الحرب فى أربعة أو خمسة أيام .. ولم يدهش كيسنجر من هذا الجواب فانها كانت تؤيد تحليل الموقف الذى قام به فى الصباح الأميرال « توماس مور » ـ قائد الاركان المشتركة للقوات المسلحة الامريكية . كما أن ايبان نفسه كان قد تلقى عدة برقيات من اسرائيل منذ الصباح كلها بامضاء اسرائيل وتفيد «بالهجوم المتواصل من العدو وباستعادة القوات الاسرائيلية للموقف» ولم تكن هذه البرقيات المتفائلة تساعد الوزير الاسرائيلى على أن يرسم صورة صحيحة للموقف . وفى خلال النهار ، وبعد عدة اتصالات مع

«ابراهام كيدرون» سكرتير عام وزارة الخارجية في القدس استطاع « ايبان » أن يشعر أن الأمر أخطر بكثير مما تعترف به البلاغات الرسمية.

ان الرئيس نيكسون يدرس ملف الشرق الأوسط في مقره بفلوريدا. وتوقف طويلا عند مستند مفصل يتضمن تطورا للموقف أرسل يوم ٤ أكتوبر من المخابرات الاسرائيلية وسرد لكافة الشواهد التي أدت بهم الى هذا التقدير . وكان نهاية التقرير يفيد بأن «احتمال الحرب بعيد» . وقد أعاد نيكسون في دهشة قراءة هذه الجملة الأخيرة . وقال للجنرال هيج «شيء غريب أن يصلوا الى هذه النتيجة بمثل هذه المعلومات» .

وكان رئيس الولايات المتحدة يخشى التدخل السوفييتي أكثر من أي شيء آخر . ولذا رجا «كيسنجر أن يكون على اتصال دائم مع أناتولي دوبرنين» سفير الاتحاد السوفييتي في واشنطن وأن يخبره بنوايا موسكو . وفي اليوم الأول للحرب كانت اجابات « دوبرنين » مطمئنة : ظاهريا ، لم يكن لدى السوفييت النية في التدخل المباشر . وعلى هذا الأساس . لم ير نيكسون أنه من الضروري استعمال « التليفون الأحمر » فان الاتصالات العادية ، أي عن طريق دوبرنين ، كانت تسمح بعدم اعطاء الموقف صبغة درامية .

وبعد ظهر يوم الأحد ٧ أكتوبر اجتمعت «مجموعة العمل الخاصه» برئاسة دكتور كيسنجر في غرفة العمليات بالبيت الأبيض، وكان موضوع المناقشة : الوسائل التي يمكن الالتجاء اليها لوقف الاشتباك في الشرق الاوسط .

ولكن اتضح أن كلا الجانبين لا يرغب في وقف اطلاق النار . وهكذا قال كيسنجر فلنتركهم يلعبون قليلا ..) .

وفي مساء يوم ٧ ، اجتمع «موردخاي كاليف» القائم بأعمال سفارة اسرائيل في واشنطن ، بجوزيف سيسكو ، في وزارة الخارجية . وبعد أن اطلع على ماوصلت اليه «مجموعة العمل الخاصة» من نتائج أعلن أن اسرائيل سوف تحتاج الى معدات حربية في أقرب وقت وخلال محادثاته الأولى مع هنرى كيسنجر أثار السفير دينتز ـ بعد عودته الى الولايات المتحدة ـ نفس الموضوع.

واجتمعت « مجموعة العمل الخاصــة » مرة أخرى بعد ظهر اليـوم التالى . وكانت اخبار الجبهة الاسرائيلية أكثر سوءا : فقد نجح المصريون فى الاستيلاء على جميع الخطوط الحصينة على طول القنال وقد استولى السوريون على مرتفعات الجولان تقريبا . واصبح الموقف الراهن يلقى بالشك حول البيـانات الخاصـــة بالمخابرات الاسرائيليـة . ولذا طلبت « مجموعة العمل الخاصـــة » من جهاز المخـابرات الأمريكى أن يزيد من نشاطه ، كما طلبت منه أن يلجأ الى مصادر مستقلة للحصول على أكبر قدر من المعلومات عن الموقف .

وفى يوم الثلاثاء ٩ أكتوبر ، جدد السفير الاسرائيلى مرة اخرى طلب امداده بالسلاح والامدادات الحربية . وطمانه هنرى كيسنجر ، موضحا بأنه طرق الموضوع مع الرئيس نيكسون وأن هذا الأخير قد أعطى أوامره للبنتاجون بأن يتم اعداد السلاح المطلوب بسرعة . وفى البنتاجون كان الرد على الجنرال «هور» ـ الملحق العسكرى الاسرائيلى ـ بأن نقص وسائل النقل المناسبة يجعل من الصعب خروج المعدات الحربية .

وتناقش «دينتز» و «كيسنجر» حول شروط وقف اطلاق النار فمن وجهة نظر «دينتز» اسرائيل مستعدة لوقف القتال اذا كانت القوات المعادية مستعدة للعودة الى الخطوط التى كانت تحتلها قبل بدء الاشتباك يوم ٦ أكتوبر . أما كيسنجر فقد ذكر الشرط الذى حـدده الاتحـاد السوفييتى وهو جـلاء اسرائيـل من جميع الأراضى التى احتلتها فى عام ١٩٦٧ .

ورفضت اسرائيل وأيد كيسنجر هذا الموقف .

وفى ظهر يوم ٩ أكتوبر ، تغير الموقف فجـأة . تلقى «دينتز» من اسرائيل برقية عاجلة تطلب منه ومن ايبان أيضا أن يطلبا وقف اطلاق النار فورا وبدون شروط . ودهش السفير جدا ، اذ أنه تلقى بعـد قليل برقيـــة بارسال ذخيرة للمدافع الاسرائيليـة فورا فقد بدأت الذخيرة الموجودة تنفد . وقبل أن يستطيع « دينتز » أو « ايبان » أن يضطلعا بتنفيذ ما جاء فى أى من البرقيتين وصلت ثالثة بعد الظهر ، تخالف الأولى . فهى تطلب من «ايبان» أن يقوم بمفاوضات من أجل وقف اطلاق النار تحت

شرط انسحاب القوات المصرية الى الضفة الغربية . كان موضحا بها . «بدون قبول هذا الشرط لن يكون هناك وقف اطلاق النار» .

وقد تم ارسال هذه البرقية الاخيرة من اسرائيل ، على أثر اجتماع لمجلس الوزراء قدم خلاله موشى ديان تقريرا عن جولته التفتيشية على الجبهة الجنوبية :

لم يكن هنـاك داع من وجهـة نظـر القيادة أو من وجهة النظر العسـكرية لتوقيع اتفـاق بوقف اطلاق النار طالما أن القوات المصرية مازالت شرق القناة .

وفى نفس هذا الصباح من ٩ أكتوبر بدأ الجسر الجوى السوفيتى يغذى مصر وسوريا بالطائرات والعربات المصفحة والصواريخ المضادة للدبابات . ومنذ هذا اليوم تلقت مصر وحدها يوميا مايقرب من ستمائة طن من المعدات .

وكانت سفارة اسرائيل فى واشنطن وكذلك الاوساط الحكومية فى القدس ، والصحف الاسرائيلية تسأل جميعها عن الموقف المماطل الذى تبديه الولايات المتحدة ووزير خارجيتها وكان البعض يسأل ، هل من المعقول حقا أن يكون الرئيس نيكسون قد أعطى أوامـر الى البنتاجون لتسليم أسلحة لاسرائيل ـ وهذا ماكان كيسنجر قد أكده بالفعل لدينتز ـ وان البنتاجون لم يلق بالا لهذه الاوامر ؟ ولم يكن كيسـنجر يود ، فى حدود معينة ، أن يضعف موقف اسرائيل حتى يستطيع بعـد ذلك أن يمارس ضغطه عليها ؟

أما البعض الآخر فكان ، على العكس ، يعتبر الولايات المتحدة حليفا مطلقا ويضعون ثقتهم فى الرئيس نيكسون ووزير خارجيته ، واضعين فى الاعتبار كل الحتميات الملحة فى سياسة الولايات المتحدة : وهى القضاء على التوتر بين الشرق والغرب ، واقامة علاقات جديدة مع الدول العربية وكانوا يرون أنه اذا كانت الولايات المتحدة لم تقم بالخطوة الأولى نحـو امداد اسرائيل بكميات ضخمة من الأسلحة ، فان ذلك كان لعدم تصعيد الموقف ولضمان قيام توازن فى القوى .

وحينما وصل احتياج اسرائيل الى السلاح للذروة يوم الخميس ١١ أكتوبر ، اتصلت جولدا مائير تليفونيا بالرئيس نيكسون ترجوه التدخل

شخصيا ليضمن تسليمها الأسلحة اللازمة . وأعطى الرئيس أوامره مرة أخرى للبنتاجون ووصلت الطائرة الأولى الى اسرائيل يوم الجمعة ١٢ أكتوبر . وفى نفس الساعة كان كيسنجر يعقد مؤتمرا صحفيا فى واشنطن . وكان من الواضح أنه يحاول تفادى خلاف مع الاتحاد السوفييتى . وكان السوفييت قد زودوا مصر وسوريا حتى ذلك اليوم بأكثر من ألفى طن من الذخيرة الحديثة . ولكن كيسنجر وصف الجسر الجوى السوفييتى بأنه محدود حتى يتفادى تصاعد التسابق على التسليح . وفى نفس الوقت ، أضاف مع ذلك موجها كلامه الى السوفييت عن طريق الصحافة : « ان الصداقة بين الولايات المتحدة واسرائيل تقليدية وسوف تستمر هذه الصداقة خلال الأزمة . وكما تعلمون هناك اتفاقات عسكرية تربطنا بهذا البلد ، وسوف تستمر تربطنا به » .

وكان التلميح واضحا . ويبدو أن موسكو قد فهمته أيضا .

وفى يوم ١٣ أكتوبر فقط ، قررت واشنطن أن تضيف طائرات الى الاسلحة التى تبعث بها الى اسرائيل .

وخلال مقابلة مع سفير الاتحاد السوفييتى ، « أناتولى دوبرنين » اقترح كيسنجر أن يحد الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة من الاسلحة التى ترسل للمعسكرين المتحاربين وتضع أساسا لوقف اطلاق النار . وكان «دوبرنين» قد اكد مرة أخرى أن موقف الاتحاد السوفييتى لم يتغير وهو المطالبة بانسحاب القوات الاسرائيلية الى حدود يونيو ١٩٦٧ وأوضح هذه المرة أن الاتحاد السوفييتى لاينفى احتمال تدخله المباشر فى النزاع . وقد رد وزير الخارجية الأمريكى على هذا قائلا ان ذلك سيؤدى حتما الى اشتباك مباشر بين الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الأمريكية .

وقد التقى كيسنجر ، بعد هذه المقابلة بدوبرنين ، بأبا ايبان . كان كيسنجر يسأل عن وقف اطلاق النار وكان ايبان يطلب طائرات ــ وكان كيسنجر ، الى جانب اعلانه أن الولايات المتحدة ستلتزم بتعهدها تجاه اسرائيل ، قد تشدد فى طلب وضع أسس لوقف اطلاق النار ، فى مقابل اعادة تزويد اسرائيل بكافة الاسلحة التى تطلبها .

وقد أوضح وزير الخارجية الأمريكي أن الموقف سيتغير اذا لم يتم وقف الاشتباك .

وفى ذلك اليــوم ، كانت القوات الاسرائيلية فى الجولان قد عبرت خط وقف اطلاق النار لعــام ١٩٦٧ وتقدمت فى الطريق نحــو دمشق . أما فى سيناء ، فكان الجيش الثاني والجيش الثالث المصرى يحتل الضـفة الشرقية للقناة . ونظرا لهذا الموقف ، وبعد عدة اجتماعات مع أبا ايبان وكيسنجر ، قرر الرئيس أن يشكل جسرا جويا لنقل الأسلحة الحديثة الأمريكية الى اسرائيل .

وفى اليوم التالى ، ١٤ أكتوبر ، نزلت الطائرة الأمريكية الأولى من طراز «جالاكسى» فى اسرائيل وأفرغت حمولتها من المعـدات الثقيلة . ومنذ ذلك اليوم ، أخذ هذا الجسر الجوى بين الولايات المتحدة واسرائيل ينقل اليها أسلحة لم تشهدها اسرائيل فى تاريخها كله .

كان المصريون يحتلون ضفتى القناة منـذ بداية الحـرب . وقد تعارض نزول المظليين الاسرائيليين ، فى ليلة ١٥ و ١٦ أكتوبر مع الخطة السوفيتية لاعادة فتح المجرى المائى والتى كانت موضع بحث بالأمس فقط .

وقد علم المصريون ، يوم الأربعاء ١٧ أكتوبر بطريقـة غريبـة أن انتصاراتهم العسكرية تكاد أن تنقلب الى العكس : فان رأس الجسر الذى أقامه الاسرائيليون على الضفة الغربية سوف يكون ذا أهمية كبرى أكثر مما تصوروا . بالفعل ، تلقى الكسى كوسيجين ، الذى كان موجودا فى ذلك اليوم بالقاهرة يتلمس الموقف عن قرب ، برقية من موسكو تفيد بأن الأقمار الصـناعية السـوفيتية قـد سجلت قيام الاسرائيليين بعملية عسكرية كبيرة .

وفى ١٨ أكتوبر ، اجتمع دوبرنين وكيسنجر مرة أخرى فى واشنطن جدد خلالها الدبلوماسى السوفييتى طلب وقف اطلاق النار بشرط الجلاء التدريجى للقوات الاسرائيلية عن الأراضى المحتلة ورفض «كيسـنجر» قائلا : «يجب عدم ربط وقف اطلاق النار بالجلاء» . وتم ابلاغ الرد فورا الى « كوسيجين » الذى لم يكن قد غادر القاهرة بعد .

وفى يوم الجمعة ١٩ أكتوبر ، قرر الكرملين بعـد جلسة خاصـة

القيام بعمل سريع لانقاذ مصر وفي ظهر نفس اليوم ، عمل التليفون الأحمر لأول مرة بين موسكو والبيت الأبيض منذ بداية الأزمة : كان ليونيد برجنيف يبلغ الرئيس نيكسون أن الاتحاد السوفييتي على وشك اتخاذ قرار لا رجعة فيه . ويقترح الرئيس السوفييتي أن يسافر كيسنجر الى موسكو فى أقرب وقت ممكن .

وبعد تشاور سريع مع مجموعة محدودة ، وافق نيكسون . وقبل سفر كيسنجر بساعتين الى اسرائيل .

ولم يكن ايبان يعلم شيئا عن رحلة كيسنجر . وقد أشار هذا الاخير ببساطة الى أن هناك أمورا خطيرة . ولكنه رفض أن يدخل فى التفاصيل بالتليفون .

وهكذا رحل وزير الخارجية الاسرائيلي عن نيويورك وهو يجهل موضوع سفر «كيسنجر» الى موسكو .

وعندما توقفت طائرته في مطار أورلى ، جاء أحد أعضاء سفارة اسرائيل في باريس لاستقباله وسأله عما يعرفه عن سفر وزير الخارجية الأمريكى الى موسكو ولكنه أجاب مندهشا : «ولكنه لم يسافر الى موسكو ، لقد كنت أتحدث اليه منذ ساعات ؟ » .

ويصل كيسنجر الى موسكو يوم ٢٠ أكتوبر . واستمرت اجتماعاته بالقادة السوفييت يومين ، توصل على أثرها هو وبرجنيف الى اتفاق لوقف اطلاق النار من ثلاث نقاط . وكان يجب عرض هذا الاقتراح فى اليوم التالى على مجلس الأمن فى الأمم المتحدة .

واستدعى الجنرال هيج ، مستشار الرئيس نيكسون السفير الاسرائيلى وقال له «هذا هو اتفاق وقف اطلاق النار» لم تكن المقابلة للاستشارة وانما كانت للعلم وكان مجلس الأمن سيوافق دون شك على القرار ، طالبا من الجهات المعنية أن ترضخ له . وقدم الجنرال هيج الاتفاق الى «دينتز» على أنه اقتراح لايقبل الرفض . وأرسل «دينتز» برقية تحمل النص الى القدس كما اتصل تليفونيا بجولدا مائير التى اجتمعت فورا بمجلس الوزراء وعقدت اجتماعا خاصا وقامت بين أعضاء الحكومة الاسرائيلية مناقشة حادة تدور حول نقطتين : الشكل والمضمون .

هل يمكن الموافقة على وقف اطلاق النار علما بأن المصريين يحتلون شرق القناة ؟

وكان الاجتماع مازال منعقدا ، حينما تلقت جولدا مائير برقية من البيت الأبيض : كان نيكسون يطلب منها أن توافق على قرار وقف اطلاق النار الذى سيعرض غدا على مجلس الأمن . وكانت الساعة الواحدة صباحا . وأشار نيكسون الى « الحرب المظفرة التى قام بها الجنود الاسرائيليون » كان نيكسون يؤكد أن النص المقدم يتفق مع الشروط التى تضعها اسرائيل ويشير الى أن هذه هى أول مرة يوافق فيها الاتحاد السوفييتى على مبدأ مفاوضات السلام بين اسرائيل والدول العربية ويوضح فى النهاية أن أمريكا ستستمر ، طبقا لتعهداتها مع اسرائيل ؛ لمدها بالأسلحة بعد وقف اطلاق النار . أما القرار ٢٤٢ فلم يذكر الا بصورة عابرة ، دون تعليق أو تفسير .

وقبلت الحكومة الاسرائيلية ، مع ابراز أن ذلك تم بناء « على طلب الولايات المتحدة » . وقد طلبت جولدا مائير من الرئيس نيكسون أن يرسل اليها وزير خارجيته لتناقش معه بنود قرار وقف اطلاق النار حتى لا تؤول هذه الموافقة على أنها خضوع للأوامر . وقبل نيكسون .

أما بالنسبة للقرار ، الذى وافق عليه مجلس الأمن فى قراره ٣٣٩ ، فكان يتحتم تنفيذه فى نفس اليوم ٢٢ أكتوبر فى الساعة الثامنة عشرة والدقيقة الخامسة والأربعين بتوقيت اسرائيل .

ووصل كيسنجر الى مطار اللد فى الساعة الثانية عشرة ظهرا . وبعد أن اجتمع برئيسة الوزراء فى اجتماع مغلق ، اجتمع بأبا ايبان وديان وآلون وأعطاهم فكرة عن الاتصالات التى تمت فى موسكو . وقد سألته جولدا مائير عما اذا كانت هناك اتفاقات سرية مع الكرملين . فاجاب كيسنجر « مطلقا كل ما تم الاتفاق عليه أمام أعينكم الآن » .

وقد علم فيما بعد أن وزير الخارجية أغفل جزءا من الحقيقة فان مفاوضات موسكو كانت قد حددت عقد « مؤتمر سلام » فى مستقبل قريب جدا يبحث خلاله مشروع جلاء القوات الاسرائيلية تدريجيا عن سيناء .

وقبل أن يحين موعد تنفيذ القرار بساعتين كان وزير الخارجية الأمريكي يعود الى واشنطن . وفي اليوم التالي ٢٣ أكتوبر ، استؤنف القتال . وكان المصريون في موقف حرج ، يحاولون أن ينظموا صفوفهم في القطاع الجنوبي والاسرائيليون ينتهزون خرق العرب لوقف اطلاق النار ليواصلوا تقدمهم نحو الغرب وتوغلهم في الأراضي المصرية .

ووصلت بعض الوحدات الاسرائيلية الى خليج السويس حتى ميناء الأدبية ، محاصرين تماما مدينة السويس وبذلك عزلوا الجيش الثالث عن قواعد امداداته .

وفي المساء كان القتال على أشده ، حينما طلبت أمريكا وقف اطلاق النار فورا .

وفي اليوم التالي ٢٤ أكتوبر ، كان الهدوء يسود الجبهتين ، عندما انفجرت أزمة مازالت تفاصيلها غامضة حتى اليوم .

بعد ظهر ذلك اليوم ، طلب الرئيس السادات ، في برقية شخصية الى ليونيد بريجنيف ارسال قوات سوفيتية الى مصر لتساعدهم في فك الحصار من حول الجيش الثالث . وقامت مشاورات في الكرملين قرر على أثرها القادة السوفييت أن هلاك الجيش المصري قد يؤدي الى انهيار حكم السادات . ولكن الاتحاد السوفييتي كان يملك طعما رابحا : هو تعهد كيسنجر بضمان وقف اطلاق النار يوم ٢٩ أكتوبر . وقرر برجنيف اذن أن يبعث ببرقية الى نيكسون ونظرا لأهمية الازمة ، اهمل استعمال « التليفون الأحمر » ، وبعث بالبرقية الى سفيره « دوبرنين » الذى سلمها بدوره الى كيسنجر . ولم يكن هناك غموض في اقتراح موسكو : بما أنه تم خرق وقف اطلاق النار ، فيجب ارسال قوات سوفيتية وأمريكية الى الشرق الاوسط لتضمن استمرار الهدنة . وتوضح البرقية انه اذا رفضت الولايات المتحدة فان الاتحاد السوفييتي سيتصرف وحده وتحت مسئوليته .

وكان التهديد واضحا .

وفي الساعة الثالثة والعشرين ـ بتوقيت واشنطن ـ وبعد اجتماع قصير بوزير خارجيته ، سلم نيكسون الرد الى دوبرنين : ان الولايات المتحدة ليست فقط معترضة على ارسال قوات سوفيتية وأمريكية الى

الشرق الأوسط ، ولكنها ستحبط أى محاولة أخرى لذلك . كانت تلك البرقية غاية فى الأدب ولكنها حازمة .

وبعد تسليم الرسالة ، طلب كيسنجر عقد مجلس الامن القومى . وقد حضره «جيمس شليزنجر» وزير الدفاع و «ويليام جوليى» رئيس المخابرات المركزية والأميرال « توماس مور » قائد رياسة الأركان . ودام المؤتمر اكثر من ثلاث ساعات . وكان مازال منعقدا عندما أعلن تقرير من المخابرات الامريكية ان القوات السوفيتية المنقولة جوا قد وضعت فى حالة طوارىء وأن القوات السوفيتية فى البحر الأبيض قد دعمت واستعدت من اجل نشاط فورى .

وقرر أعضاء المجلس أن هناك تدخلا سوفيتيا وشيك الحدوث واعلنت الطوارىء واستدعى كيسنجر السفير الاسرائيلى لابلاغه .

وفى يوم ٢٤ اكتوبر ،حينما سلم ريتشارد نيكسون رده الى السفير السوفييتى فى واشنطن كانت الساعة قد بلغت الثالثة والعشرين بالتوقيت المحلى اى السادسة عشرة بتوقيت موسكو .. والثامنة عشرة بالتوقيت المحلى فى يوغوسلافيا .

الجمعة ٢٦ اكتوبر
اتصل «كيسنجر» بدوبرنين
والقائم بالأعمال المصرى فى واشنطون

وقد دهش السوفييت لرد الفعل الحازم السريع للامريكيين . فبدأوا يهدأون فقد كانوا لا يتمنون المواجهة .

وحينئذ فهم المصريون أن مصير الجيش الثالث اصبح بين أيدى الامريكيين . وقد تعهد كيسنجر ، خلال اتصالاته بالمبعوث المصرى ، ان يقوم بكل جهوده لانقاذ الجيش المحاصر . وبالفعل ، أرسل فورا رسالة عاجلة الى الحكومة الاسرائيلية ، يطلب منها فورا اجراء اتصال مباشر بقيادة الجيش المصرى ، لمناقشة اجراءات وقف اطلاق النار وضمانات استمراره .

وأجابت جولدا مائير طالبة أن يصبح تموين الجيش الثالث رهنا

باتفاق مع القاهرة لتبادل أسرى الحرب . هذا البند لم يدرج في قرار مجلس الأمن بالأمم المتحدة . وكان كيسنجر قد وعد ، عند زيارته لاسرائيل بعد عودته من موسكو ، بأن يتم تبادل الأسرى خلال ال ٧٢ ساعة التى ستلى وقف اطلاق النار . ومن ثم يجب الآن ان تؤكد القاهرة هذا الوعد . ويصر كيسنجر بالحاح على العمل على انقاذ الجيش الثالث .

ولم يكن أمام الحكومة الاسرائيلية حرية الاختيار . فقبلت مرور قوافل الامداد . وقد حصل موشى ديان من كيسنجر على تعهد بأن مشكلة الأسرى سوف تحسم عند الكيلو ١٠١ خلال الاجتماعات بين الضباط المصريين والاسرائيليين .

وفى اليوم التالى ٢٧ أكتوبر ، فى العاشرة والنصف صباحا ، تم اللقاء الأول بين ضباط البلدين . تمت هذه المقابلة التى اعدت على عجل فى خيمة عند الكيلو ١٠١ على طريق القاهرة والسويس ، على بعد ٤ كيلو مترات من خط وقف اطلاق النار فى أراض احتلها الاسرائيليون .

وصل اللواء المصرى محمد عبد الغنى الجمسى - قائد جبهة السويس اى الجيش الثانى والثالث - فى عربة جيب مصرية يصحبه ضابط من قوات الطوارىء وضابط اسرائيلى - كان « أهارون ياريف » يمثل اسرائيل . وتثبت الساعة المتأخرة الذى تم فيها هذا الاجتماع الضغط الشديد الذى مارسه كيسنجر حتى يضمن سير الأمور بسرعة .

وعلى بعد أربعة كيلو مترات ، عند الكيلو ١٠١ يفصل بين المواقع الاسرائيلية والمصرية كانت تنتظر عشرات العربات المحملة بالأغذية والماء (خاصة الماء) الأمر بالاتجاه نحو السويس والجيش الثالث المحاصر .

وبدأت المناقشة بين الجمسى وياريف فى برود شديد . ولكن سوف ينتهى هذا الموقف عندما يصل الطرفان ، فيما بعد أثناء الليل الى مناقشة التفاصيل الفنية التى ذكرت فى المحضر .

كان الضابطان المصريان يرتديان الزى الصيفى وكان الوقت باردا جدا . واقرضهما الاسرائيليون معاطف عسكرية وأصبح الاسرائيليون والمصريون يرتدون نفس الزى .

وبعد عدة ساعات ، بدات الثلاثون عربة الأولى المحملة بالأغذية والماء تتجه الى السويس .

وكان كيسنجر يتتبع تطور الموقف ، بفضل تقارير تصله من الأمم المتحدة ومن السفير الاسرائيلى والقائم بالأعمال المصرى .

الأحد ٢٨ أكتوبر :

الحكومة الاسرائيلية تعقد اجتماعها الأسبوعى وتقرر أن يستمر الجيش الثالث فى الحصول على تموينه ولكن لن تقدم اسرائيل تنازلات جديدة طالما لم يقدم المصريون قائمة بأسماء أسرى الحرب الاسرائيليين .

وفى نفس اليوم ، أبلغ «دينتز» قرار الدولة اليهودية هذا الى « هنرى كيسنجر » وكان رد فعل وزير الخارجية حازما فقال : « انه ينبغى على اسرائيل أن تقدم تنازلات ، والا فسوف يتعرض قرار وقف اطلاق النار المهدد ، الى الانهيار » .

وفى نهاية حرب كيبور هذه ، كانت اسرائيل تابعة تماما للولايات المتحدة الامريكية ..

وقد دفع ، هذا الضغط المستمر من جانب كيسنجر ، جولدا مائير الى السفر فورا الى واشنطون لمقابلة الرئيس نيكسون . الكل يعلم فى اسرائيل ، حتى الآن ، أن كل مرة تذهب فيها جولدا مائير لمقابلة الرئيس نيكسون ، تنصلح الأمور تلقائيا ، طبقا لعملية غاية فى البساطة ومعادة دائما : توافق جولدا فى أول الأمر على كل شىء . وفى المرحلة الثانية تحاول الحكومة الاسرائيلية أن تخلق عشرات العوائق فى طريق المفاوضات وفى المرحلة الثالثة ، توقف الولايات المتحدة تسليم الأسلحة وعند هذا الحد من السيناريو التقليدى . تسافر جولدا مائير مرة أخرى لتقابل الرئيس فى واشنطن وهنا تعاود أمريكا تسليم الأسلحة لاسرائيل مرة أخرى .

فى أغلب الحالات ، كان من الممكن تفادى كل هذه المقابلات ولكنها فى اسرائيل أصبحت تؤكد الاسطورة التى تقول ان جولدا هى الوحيدة القادرة على التأثير على حكومة نيكسون .

ولكن تصرف كيسنجر يقلق جولدا مائير جديا هذه المرة . ويعلق

أحد أعضاء السفارة الاسرائيلية قائلا فى سخرية : «يبــدو أن الولايات المتحدة تريد أن تتخلص من الوصاية الاسرائيلية عليها ! » ٠

ووصل ، رد من الولايات المتحدة ، يوم الاثنين ٢٩ أكتوبر ، على اقتراح زيارة رئيسة الوزراء الاسرائيلية يقول : ان الرئيس نيكسون يسره مقابلة مدام مائير وأن يلقى معها نظرة شاملة على الأمور ٠ ظاهريا لم يكن كيسنجر يعترض على هذا المشروع : ففى خلال الأيام الأخيرة ، كانت مفاوضاته مع الوفد المصرى تتقدم بسرعة ، كما أن اسماعيل فهمى وزير الخارجية المصرى كان موجودا فى واشنطن . وكان وزير الخارجية يعتقد دون شك أن زيارة جولدا مائير ستحدث توازنا يطمئن الاسرائيليين على مدى استعداد الولايات المتحدة تجاههم .

وسافرت «مائير» يوم ٣١ اكتوبر الى نيويورك تصحبها المجموعة التقليدية : سكرتيرها ، مساعدها ، رئيس مكتبها والجنرال « ياريف » ٠ وقد نلاحظ غياب «أبا ايبان» وزير الخــارجية ، ممــا يدل على توتر العلاقات بين رئيسة الوزراء ووزير خارجيتها . كما أن أحدا لم يشترك من وزارة الخارجية فى محادثات الكيلو ١٠١ ٠

وبينما مائير فى طريقها الى نيويورك ، كان هنرى كيسنجر يلتقى باسماعيل فهمى للمرة الثــانية ٠ وخلال هــذا اللقاء ، عـرض الوزير الامريكى موقف الولايات المتحدة فى ثلاث نقاط . الولايات المتحدة تحبذ بدء المفاوضات من أجل السلام فى أقرب وقت وتعترض على اى نشاط قد يشكل خطرا على الجيش الثالث المصرى . واخيرا ، فى اطار اتفاقية فى الشرق الأدنى يلجأ كيسنجر الى أسلوب «خطة روجرز» لعام ١٩٦٩ التى يجب على اسرائيل بمقتضــاها أن تجـلو عن جميع الأراضى التى احتلتها عام ١٩٦٧ .

ويبدو أن المصريين كانوا متمسكين بأن يحصلوا من امريكا على وعد بعقد «مؤتمر للسلام» يتحدد فيه جلاء القوات الاسرائيلية عن سيناء . وقد اتفق كيسنجر ـ دون أن يعد بعقد مؤتمر جنيف ولكنه حدد له نصف ديسمبر كموعد لانعقاده ٠٠

وفى القاهرة ، ادت أخبار حصار السويس والجيش الثالث المصرى الى خلق جو كئيب . ولأول مرة منذ أن تقلد السادات الحكم تطرح عملية

التفكير فى تغيير السلطة . وقد أصبح اللواء الشاذلى والجمسى من الأبطال الذين يتمتعون بشعبية كبيرة لدرجة التفكير فى توليهم السلطة فى حالة فشل السادات فى الوصول الى حل سياسى مقنع كان هناك جو من التمرد يسود القاهرة . ان المصريين يعتبرون السويس ، وهى المدينة الثالثة بعد القاهرة والاسكندرية ، رمزا لسيادتهم واستقلالهم . وفكرة ان المدينة مستعمرة فعلا تثير ثائرتهم . كان يريد سكان القاهرة الزحف الى السويس حتى بدون أسلحة ليعبروا عن رغبتهم فى تحريرها حتى لو كان الثمن حياتهم . أما القادة المصريون فيخشون أن ينقلب هذا التعصب الزائد ضد شخص الرئيس . وهكذا أصبحت المهمة الأولى للمسئولين فى القاهرة أن يحصلوا على رفع الحصار عن السويس .

وفى اليوم التالى، وخلال مفاوضاته مع جولدا مائير، أحس كيسنجر أنه يجب عليه أن يبدأ بتسوية المشاكل الفنية المتعلقة بضمان استمرار وقف اطلاق النار : وهى ضمان استمرار تموين الجيش الثالث وتبادل أسرى الحرب ورفع الحصار البحرى عن باب المندب والفصل التدريجى بين القوات العسكرية . فهذه جميعا نقاط للخلاف تحبذ قيام مؤتمر سلام .

وفى نفس اليوم ، استقبل الرئيس نيكسون جولدا مائير فى البيت الأبيض واشترك « دينتز ، وكيسنجر » فى المقابلة التى بدأت فى جو هادىء . ثم بدأت مدام جولدا مائير تطرق المشاكل الجدية معبرة عن القلق الذى يسود اسرائيل نتيجة لرغبة كيسنجر المحتدة فى تسوية جميع المشاكل وحده . ولم يكن الرئيس نيكسون الذى كان مشغولا ، بقضية « ووترجيت » ، مستعدا لفتح باب المناقشات . لذا فقد وضع مرة أخرى كل ثقته فى كيسنجر ، وحينما حاولت جولدا مائير فتح موضوع المعدات الحربية ، اقترح عليها أن تسأل فى ذلك « جيمس شليزنجر » وزير الدفاع .

وفى اليوم التالى التقت رئيسة الوزراء بوزير الدفاع الأمريكى . وسلمته قائمة طويلة بالمعدات التى ترغب اسرائيل فى الحصول عليها من الولايات المتحدة . وتقدر قيمتها بثلاثة مليار دولار . وكانت اسرائيل قد تلقت ، بفضل الجسر الجوى ، ما قيمته مليار دولار من المعدات الحربية . وقد أشارت مدام جولدا مائير الى أن مصر تملك صواريخ سوفيتية

أرض ـ أرض من طراز « سكاو » قد تكون مزودة برءوس نووية ولذا فهى تطلب تزويدها بصواريخ أرض ـ أرض من طراز « لانس » التى تشبه فى تكوينها صواريخ « سكاو » فرفض « شليزنجر » معلنا مع ذلك أن العرض سوف يفحصه الخبراء وأن القرار النهائى يتوقف على الميزانية التى يوافق عليها مجلس الشيوخ ٠ وأضاف قائلا ان الأسلحة التى بعثت بالفعل الى اسرائيل قد استقطعت من مخازن وحدات أمريكية عاملة يجب الآن اعادة تموينها مرة أخرى بالسلاح ٠

وفى يوم الأحد ٤ نوفمبر التقت مدام مائير بكيسنجر للمرة الثالثة. وفى أثناء ذلك ، كان اسماعيل فهمى ـ الذى مد اقامته فى واشنطن ـ قد زود وزير الخارجية الأمريكى ببعض الايضاحات عن استعداد السادات. وبالتالى دار اللقاء بين مائير وكيسنجر تقريبا خلال اعداد طريق لمد الجيش الثالث بالتموين ٠ ويتوقف وقف اطلاق النار على هذا ٠ ووعد كيسنجر مدام مائير ألا يطلب انسحاب القوات الاسرائيلية الى خطوط ٢٢ أكتوبر ولكنه يصر، مع ذلك، على أن تسمح اسرائيل بتموين الجيش الثالث عن طريق ممر فى قلب الأراضى التى احتلتها القوات الاسرائيلية ٠

ولكن جولدا مائير رفضت يؤيدها فى ذلك « ياريف » ، فان هذا الممر سوف يفصل الجسر الى جزءين بل أكثر من ذلك فانه قد يسمح بمرور امدادات عسكرية وصواريخ لأنه لن يصبح تحت اشراف اسرائيلى ٠ ان مثل هذا التنازل يجب أن يقابله تسهيل عملية اعادة تسليح المؤخرة الاسرائيلية تسليحا قويا : ثم قررت مائير فى النهاية أنه طالما لم يتم اتفاق للفصل بين القوات « فاننا لا نستطيع أن نترك المصريين يتمتعون بمزايا قد تسهل لهم استئناف الاشتباكات » ٠

وفى نهاية هذا اللقاء مع اسماعيل فهمى تعهد كيسنجر بالحصول على هذا الممر ٠ وفى الوقت نفسه ، وعد مائير بأن يستمر الاسرائيليون فى السيطرة على طريق القاهرة ـ السويس ٠

كيف يمكن حل هذه المشكلة التى لا حل لها ظاهريا ؟ كيسنجر وحده معه الحل ٠

وفى القاهرة استقبل كيسنجر استقبالا بالغ الحفاوة ٠ وبعد لقاء دام ساعات بينه وبين الرئيس السادات ، وقعت المفاجأة الأولى : تقترح

مصر اعادة العلاقات المقطوعة بينها وبين الولايات المتحدة منذ حرب الأيام الستة . ووافق كيسنجر الذى أذهلته المفاجأة وخرج الرجلان من الصالون ليعلنا ذلك للصحفيين . السادات لا يريد أن يقع فى أخطاء الرئيس عبد الناصر . فانه يريد أن يلعب لعبة مزدوجة مع موسكو وواشنطون فهو يريد أن ترتفع أسهمه وتتسع دائرة نشاطه .

ولكن الرئيس المصرى يحتاج لأكثر من ذلك . فان اقتصاد مصر متدهور الى أبعد الحدود . فقد ارتفع ثمن الخبز والأرز والشاى والسكر كما لم يرتفع أبدا . كما أن موقف الطبقة العاملة يزداد سوءا كل يوم . فان آلافا من المهجرين من منطقة القنال يجوبون الشوارع فى مظاهرات تهتف « الموت فى السويس » .

وبالقرب من نادى الجزيرة يتدرب آلاف من الشباب على حمل السلاح الخفيف . ويشرح المسئولون لكيسنجر قائلين : « نحن لا ننوى أن نصنع منهم جنودا ولكننا نحاول أن نشغلهم حتى نمنعهم من اثارة الشعب » .

وقد تعهد وزير الخارجية الأمريكى ، خلال مقابلاته مع الرئيس السادات ، أن يستمر فى نشاطه من أجل ايجاد حل لمشكلة الشرق الأوسط من جانب ومن جانب آخر عقد مؤتمر للسلام فى أقرب فرصة . كما وعد أيضا بجلاء القوات الاسرائيلية عن سيناء طبقا لما تضمنه مشروع روجرز على أن يعقد مؤتمر السلام فى العام التالى .

وبعد أن ضمن السادات ما وعد به كيسنجر وقع اتفاقية من ست نقاط من أجل الحفاظ على وقف اطلاق النار . وهذا التصرف يعتبر مثلا يدرج فى مدارس الدبلوماسية بعنوان : « كيف يمكن الحصول على اتفاقية تسمح بسلسلة من التفسيرات المتضاربة بدون مجهود » .

بالفعل ، حتى يمكن الحصول على موافقة السادات تضمنت الفقرة الثانية التوضيح التالى « تنسحب القوات الاسرائيلية الى خطوط ٢٢ أكتوبر ، فى اطار اتفاق بين الطرفين للفصل بين القوات » . نص يدفع اسرائيل لأن ترفض الانسحاب من جانب واحد لأن ذلك يتطلب اتفاقا مسبقا بين الجانبين .

أما بالنسبة للسادات ، فان هذه الفقرة تعتبر وسيلة فعالة للضغط للحصول على جلاء القوات ٠

مثل آخر : اذا كانت الفقرة الخامسة تنص على أن قوات الطوارىء الدولية هى التى ستشرف على طريق القاهرة ـ السويس فانه لا يوضح من هو الجانب ، الذى ستكون له السيطرة على هذا الطريق فهل هو الجانب المصرى أو الجانب الاسرائيلى ٠

كما أن الاتفاق المكون من ست نقاط لا يذكر فى أى جزء منه حرية الملاحة فى خليج باب المنـــدب ، وهى حرية تعلق عليها اسرائيل أهمية كبيرة جدا ٠

ان كيسنجر المكيافيلى هو الذى كان يستطيع أن يفرض مثل هذه التحفة من الغموض ٠

كما سيتم توقيع اتفاقية القاهرة فى فترة قياسية ٠ لم يكن أى واحد من الأعضاء المرافقين لوزير الخارجية الأمريكى يأمل فى مثل هـذا النجـاح السريع ٠ وكلف كيســنجر فورا ، مساعده جوزيف سيسكو بالتوجه الى اسرائيل للحصول على توقيع جولدا مائير ٠ وفى تل أبيب كانوا ينتظرون سيسكو يوم ١١ نوفمبر ولكنه أعلن عن حضوره يوم ٨ ، لم يعد الأمر مجرد سرعة وانما أصبح تسرعا ٠

وقد توجه سيسكو فور وصوله مساء الخميس الى رئيسة الوزراء ٠

أما عن الاحساس السائد فى اسرائيل فهو أن كيسنجر وضعها أمام الأمر الواقع مـرة أخرى ٠ وفى هذا الجـــو اجتمع مجلس الوزراء يوم ٩ نوفمبر لمدة ٤ ساعات تم خلالها فحص ودراسة كل من النقاط الست بعناية ودقة ٠ وعندما قابل سيسكو مائير بعد الاجتماع أوضح لها أن نص الاتفاق نهائى وانه لن يجرى تعديل أى شىء فيه ٠ ورفضت مائير غاضبة أن توقع على كل هذه الأمور الغامضة قبل أن يتم توضيحها ٠ وأبدى سيسكو استعداده لنقل كل هذه الاعتراضات ، بشرط أن يحصل على موافقة مبدئية ٠

وكانت الحكومة الاسرائيلية تود الحصول على ايضاحات بالنســـبة

للنقطتين التاليتين : رفع الحصار عن باب المندب والسيطرة الاسرائيلية على طريق القاهرة ـ السويس ٠

وفى صباح السبت ١٠ نوفمبر تلقت مائير برقية من هنرى كيسنجر تتضمن الايضاحات المطلوبة : يجب المحافظة على وقف اطلاق النار بحرا وجوا وبرا ٠ ومن ناحية أخرى سوف يحتفظ لاسرائيل بمركزها على طريق القاهرة ـ السويس ٠

وألغت جولدا مائير اجتماعا للوزارة كان من المزمع عقده فى المساء نفسه وقررت الموافقة على الخطة الموضوعة فى ٦ نقاط بموافقة من الحكومة ٠

سافر الجنرال « ياريف » ظهر يوم الأحد ليوقع الاتفاقية عند الكيلو ١٠١ ، وهكذا انتصر كيسنجر فى أول خطوة بعد حرب أكتوبر ٠

وحيت واشنطون هذا التصرف بأن أعلنت « أن كيسنجر كسب جولته هذه المرة أيضا » .

كارت بوستال

اسمى « ايلى » ولكن لا أهمية لذلك بما أنكم لن تنشروا • أنا طالب وعمرى ٢٦ عاما الآن • أكره الصحفيين الذين يعيشون على الجثث ويمجدون الحرب بكلمات رنانة منمقة •

لن أنسى عودتى من معركة رافيد على مرتفعات الجولان • كان هناك ١٤ جريحا فـــوق عربتى هم الذين نجوا من فرقتى • وكانت عربتى المصفحة هى الوحيدة من الوحدة التى ما زالت سليمة وعندما وصلت الى المستشفى الميدانى انقض علينا أنا وزملائى أحد المصورين وأحد الصحفيين من التليفزيون • وفى فرحة محمومة بدأوا فى تصوير الجرحى وانتابتنى رغبة فى أن أطلق النار عليهم لأقضى على هؤلاء المتطفلين الذين يحومون حول مستشفيات الميدان لينتزعوا التفاصيل المروعة من بقايا البشر الذين يعودون من ميدان القتال •

بطل ؟ ماذا تعنى هذه الكلمة ؟ ••• كل الأبطال الذين كانوا معى ماتوا • وأنا لست سوى ضابط مدرعات بسيط يريد أن يعيش ، وهنــا كنت أعلم أننى لو توقفت عن التقدم وعن الضرب ، فسوف أصبح الهدف القادم •

كما ترون هناك فى كل فرقة الذين يتحاربون ثم هناك المضطربون المترددون الذين يحــاولون أن يهربوا بجــلودهم • وعامة يكون قد فات الأوان •

أتريدون الحقيقة لقد تعبت ولم أعد أحتمل ••• لقد خضت ثلاثة حروب : حرب الأيام الستة ، وحرب الاستنزاف ، والآن حرب كيبور • وحينما اندلعت هذه الحرب الأخيرة بدأت أرتجف • كنت مقتنعا أن دورى قد جاء هذه المرة • ولن أستطيع أن أهرب من هلاك الموت •

لقد اشتركت فى حرب الايام الســتة مع « آهود آلاد » كان قائد كتيبتنا المدرعة . وقد عبرت جيرادى معه . وقد كتبنا كثيرا حول هذا الموضوع كتبنا فصلا بأكمله فى كتاب « مدرعات تموز » ٠ وقيل انه لن يكون أبشع من هذه المعركة ، ولكن فى هذه المرة ، لقد حصلنا على كل ما اخترعه الانسان ليدمر به الانسان : مدرعات ٠٠ دبابات ثقيلة ٠٠ مدافع مضادة للطائرات ٠٠ وهاونات ٠٠ أســلحة خفيفة ٠٠ صواريخ وهناك ما نسيته ٠

وأتذكر اننا درسنا فى مدرسة الضباط المعركة التى قام بها موشى بريل عام ١٩٥٦ خلال حرب سيناء ٠ وقد هزتنا كثيرا شجاعته ٠ أما اليوم فان ذلك يجعلنا نبتسم ٠ ان كل موقع حصين من مرتفعات الجولان دارت فيه معركة أعنف عشرات المرات من هذه العملية ٠

وفى خلال معركة الاستنزاف وجدت محاصرا فى شمال القنال ٠ وعانيت مالا يمكن تصوره ولم يكن فى الامكان امدادنا بالطعــام . وقد تحملنا هذا الحصار دون أن نستطيع اجلاء جثث زملائنا ٠ وبدأت أفقــد شعرى وذلك لأن الطعام الذى كنا نتناوله لم يكن يحتوى على الفيتامين الذى يحتاجه الجسم ٠٠٠ واذا كنت أقول ذلك فهذا لأنه ليس هناك صلع فى العائلة ٠ ولو كان فى امكاننا التحرك مائتى متر الى الخلف ، الى أن نصل الى الخنادق لاستطعنا أن نأكل وجبة طبيعية ٠ أما اليوم فمن الصعب أن أتحمل ذلك لأننى الوحيد الباقى من الوحدة مع قائد الفرقة ٠ أما هو فقد اصابته طائرة « ميج » انقضت عليه وقد كانت الصدمة عنيفة عليه لدرجة أنه لم يكن يريد أن يســتعيد مدرعته ٠ لقد فضل أن يركب معى وقد واصلت القتال حتى أستطيع أن أنقذ بقية الزملاء ٠ وفى أثناء ذلك جاءت الفانتوم لنجدتنا . وقد وقعت حادثة كادت تودى به . كنت قد خلعت الشارة المعدنية التى تميز عربتى المدرعة ٠ خلعتها لأنهــا تحدث صــوتا مزعجا ٠ وقد اعتقد أحــد طيارى الفانتــوم أنها مدرعة عربية وقذفنى بصاروخين وقعا على بعد أمتار من المدرعة التى أستقلها ٠ ولكن الذى آلمنى فعلا هو رد قائد الكتيبة خينما قصصت عليه الحادثة ٠ وحينما ذكرت أن الفانتوم لم تصبنى قال بعــدم أكتراث : « أتقول أخطاك ٠٠ هــذا غير معقول » ٠

وحينما وصـــلت الى المستشفى الميدانى لم أكن بعد قد أفقت من صدمة اصابتى بسبب ابادة فصيلتى ٠٠ ولم أكن أريد أن اعترف أن « يورى » بصفة خاصة قد مات ، « يورى » صديقى ٠ لقد كنا من نفس الدفعة ومن نفس السن ٠ كان شابا جميلا ٠ وحينما تزوجت منـذ أربعة شهور قالى لى : « اسكت عنى ولا تجلب لى الصداع بسيرة الزواج هذا » وها قد ذهب ولن يتزوج أبدا ٠

انى أؤكد لكم أن أحدا لا يعرف ما هى الحرب سوانا ٠ المعاناة من الغـارات ليس الحرب : اما أن تقع فى الفخ واما أن تنجو منها ٠ ان الذى يتردد منا ثانية واحدة والذى لا يعرف كيف يفكر ويتصرف بطريقة أسرع فالموت أفضل له ٠

لقد حكى لى والدى انه عاش أربعة حروب ٠ فقد كان يقوم بالحراسة فى معسكر صرفند أثنـاء الحرب العالمية الثانية ٠ وفى أثناء حرب التحرير رحل مع المحاصرين من بن شيمين ٠ ورأى أيضا بعض الدانات ٠

لقد أعطوا لحرب التحرير الدامية أهمية كبيرة ٠ وتعتبر معاركهـا الخالدة من أعظم مراحل تاريخها ٠ ان عاما بأكمله من الحرب فى هذه الفترة لم تؤد الى خسائر معركة واحدة من حرب كيبور ٠

ان الحـروب تتطور وأنا خائف ٠ لقـد سمعتهم يقولون ان شباب وأطفـال منطقة القنـاة قد جمعوا صواريخ من طراز « ساجر » بالطبع أما نحن فلم نمر بذلك أبدا ٠٠ وعلى أى حال ، أعلم جيدا أنها مسألة وقت وانني سأقتل فى النهاية ٠ تقولون لقد قمت بما فيه الكفاية وأن أترك مكانى لآخرين ليكملوا الحرب ؟ ان ما أعرفه اننى سأكون هنا فى الحرب القادمة ومع ذلك يجب أن تصدقونى اننى أكره الحرب ٠ لماذا ؟ لأننى قائد مدرعة ، ولأننى طحنت فى ثلاثة حروب وأننى اصبحت لا أخاف كثيرا من الألغام وهذه ميزة لن يجدوها فى أى شاب آخر يعين لقيادة مدرعة ٠

مثلا ، فى أثناء احدى المراحل الأخيرة للاحتياط التى قضيناها فى شرق الأردن ، أرسلوا الينا شابا ليلقى علينا محاضرات عن جغرافيا هذا البلد ٠ وكم كان متحمسا ٠ لقد أخذته الحماسـة لدرجة أنه فى وسـط المحاضرة أخذ يحدثنا عن الحرب القادمة ٠ وكان يقول : « فى هذه المرة ، سوف نحتل دمشق » وتمالكت نفسى حتى لا أصـــفعه ٠ واليوم ، فى

اللحظة التى وصلت فيها الى العيـــادة لمحت فى عـربة استكشاف جيب محاضرنا هاوى الحروب • وذكرته بلقـائنا الأخير ومحاضرة الجغرافيــا وطلبت منه أن يلقى نظرة على الجرحى الراقدين حولى ثم سألته اذا كانت الحرب ما زالت تثير حماسته مثل الأمس • وحينئذ زاغ بصره وظهرت عليه علامات الخجل •

مقتطفات من حديث صحفى مع ضابط مدرعات على مرتفعات الجولان • أكتوبر ١٩٧٣

انى ذاهب أنظر الى البحر ، ومازال عندى أمل أن أرى السماء كبيرة زرقاء كما هى • لقد جئت من الصحراء ، وحيدا مقهورا وأشعر أن كل شيء كان قريبا منى بالأمس بعيد عنى الآن •

ولذا أنا أذهب أنظـر الى البحـر • ربما لمحت شراعا فى الأفق ولكن اذا قذفت لى الأمواج مرة أخرى بمهمة حكومية فى قلب زجاجة فلن أفتحها •

انى ذاهب الى البحر

سوف أجلس على الرمل ، أرتدى معطفا كبيرا • لا تشفقوا على فأنا أشفق على نفسى أكثر ولكنكم تستطيعون أن تجلسوا بجانبى ، فهنـــاك متسع للجميع على شاطىء البحر • ولا تسألونى عمن مات ومن بقى على قيد الحياة ومن جرح ومن هزم ومن خسر ومن الذى على حق ومن المخطىء • فلم يعد ذلك يهمنى أبدا • فكل ما يعنينى اليوم هو أن تصدقونى ، لأننى أنا أيضا لم أذكر الحقيقة دائما • ولكننى سأذكرها •

انى ذاهب أتأمل البحر • فلم أعد أحتاج لشيء سوى البحر •
ان ما قتل فى داخلى لن تستطيعوا أن تردوه الى أبدا •
انى ذاهب أتأمل البحر •

* * *

بدأت طائرة النقل الضخمة تستعد للهبـوط فى تل أبيب وينظر بعض جنود المظلات منها الى أسفل ، وبحركات متعبة أخذوا يمسحون على

شعورهم المتربة بأيديهم الدامية من كثرة الليالى التى قضوها يحفرون الخنادق ·

قال أحدهم : يبدو أن مناظرنا جميلة ·

وسأل آخر دون أن يبتسم : من الذى كسب ؟

ما زلت أشم رائحة الجثث المحترقة · وهناك كلب يأكل فى جثة جندى من الأعداء · حمدا لله انى مازلت على قيد الحياة ولكننى أحس فى الوقت ذاته بشعور مبهم ··· كما لو كنت قد اشتركت فى فيلم خليع · هذا المساء ، يجب أن أذهب الى أهل « يورام » والى زوجة تسفيكا والى أولاد « يواف » ·

وفى وقت متأخر من الليل سوف أصرخ أثناء نومى : « أيها المرض · أيها المرض · وللمرة الثانية فى حياتى سوف أكتب اسمى فى حزب الشياطين الاحتياطيين ، الذين تهددهم الحرب الذين يموتون وهم أحياء · بكل تأكيد سوف يدهش الأقارب والأصدقاء الذين فى الحلف أن تقترن ابتسامة بالدموع ومع ذلك لا يقشعر بدنى حينما يذكر اسم أحد الموتى أمامى » ·

انى ذاهب أتأمل البحر

وسوف أبعث بكارت بوستال ـ كارت صفراء عسكرية صغيرة ـ الى الذين يقررون بداية ونهاية الحروب ·

انى فى الثامنة عشرة ·· فى السادسة والعشرين ·· فى الواحد والثلاثين ·· فى الثانية والخمسين ·

ان السادسة والعشرين من أجمل الأعمار للحياة وللموت ايضا . فى حياتى لم أشعر بمثل هذا الشعور ·· الا ، ربما عندما كنت فى التاسعة عشرة ، خلال حرب الأيام الستة ، حينما احتللنا تل الحارا ، وجاء أحد الوزراء ليخبرنا اننا « انتصرنا » ·

وقال له الذين بقوا على قيد الحياة : « انت الذى انتصرت أما نحن فذاهبون لنتأمل البحر ·· » ·

طوال شهور عانينا من الكابوس والأحلام المخيفة . كنا نستيقظ على صراخ « ايها الممرض : فى الصحف كانوا يقولون » اننا كنا مدهشين .. كما لو كنا نمثل مسرحية « كانوا » يتكلموا عن النصر .. أما أنا فلم أكن أفهم عن أى انتصار يتكلمون فاذا كانوا يعنون السلام فلم يكن بعيدا عنا مثل هذه الأيام .. ولكن يبدو ان الأمر كذلك وان كل شيء يسير على مايرام وانني استطيع أن أنام فى هدوء وان الموقف ــ على مستوى الأمن ــ لم يكن أفضل من ذلك أبدا ..

وعندئذ ذهبنا ونحن نغنى لحن « جسر نهــر كواى » لنبحث عن الزوجة والمسكن والعمل .. وفى كل صباح بعـد ليال من الأرق : كنا نستيقظ ونعيد على أنفسنا معا ان موقفنا ــ على مستوى الأمن ــ « لم يكن أفضل من ذلك أبدا .» » .

كم من الوقت نستطيع أن نتأمل البحر ؟

* * *

منذ عام ١٩٦٧ بعيدا عن ذكريات الحرب ، قامت شركة غربيــة استهلاكية . ولم تمر اسرائيل بمثل هذا المنحنى الصاعد . كان الأثرياء يزدادون ثراء والفقراء يزدادون فقرا .

كان الجميع يعلمون أن هناك فدائيين فلسطينيين فى الضواحى ولكن كان الجميع يعتمدون على أجهزة الأمن .

الأعمال مزدهرة والصناعة والمبــانى على أحسن ما يرام . كان المقاولون الأغنياء يشـــترون بالملايين أراضى فقد عليها الكثير من زملائى حياتهم ..

الفن أيضـــا بدأ يزدهر . الكتب ، صالونات الفن ، علب الليل ، المطاعم الغربية .

ومع ذلك جاء فى يوم من الأيام بعض شباب الكيبوتز وبدأ يفكر فى مسألة الانتصار ويعلق عليها . لقد رأوا : « انه اذا كنا قد كسبنا الحرب فان هناك مسئولية أخلاقية تجاه المهزومين » . وقاموا بتأليف كتيب صغير بسيط بعنوان « اليوم السابع » وفى كلمات بسيطة أخذوا يشرحون ان الحرب كما يرونها وكيف أن النصر ليس حلا طويل الأجل .

وأخـذوا يعددون مشكلات اللاجئين الفلسطينيين ويذكرون أن الحرب ليست سوى الموت والدمار ٠

من أجل السلام ، يجب أن نحارب ٠

نحن نحارب من أجل السلام

الحرب من أجل السلام ٠٠٠

ان هذه الشعارات فى جميع اللغات تتسم بالبلاهة ٠ يضعون جنبا الى جنب كلمة ونقيضها ، دون حياء ٠٠ مثل « نقاء السلاح » هل يمكن ان يكون السلاح الذى يقتل انسانا ، نقيا ؟

ان السلام كما ترون مسألة حياة أو موت بالنسبة لنا ٠

ان الشباب الاسرائيلى (لم يبق منه الكثير ، بعد الحرب الرابعة من أجل السلام) يرغب حقا وبأمانة أن يقبله العرب وأن يتقرب منهم ٠

يقول لنا قبل وبعد كل حرب اننا نناضل من أجل السلام والأمن ولكننى أعرف بعضا ممن قتلوا فى ميادين القتال دون أن يفكروا فى السلام والأمن ٠ كانوا يفكرون فى الزوجة والطفل الذى يستيقظ كل ليلة فى الساعة الرابعة ، فى الأهل ، فى الأطفال ، فى الصديقة فى فيلم السينما الذى يجب ألا يفوته فى شجرة البرتقال الخضراء وشذاها ٠٠ من كان يحب البحر كان يفكر فى البحر والذى يحب الشمس كان يفكر فى الشمس ، أما أنا فكنت أفكر فى الموت ٠٠

لا يكفى أن أحارب من أجل السلام فقط ٠ ذلك لأننى نضجت قليلا ، قرأت بعض الكتب وتناقشت مع بعض الزملاء ، وأريد أن أفهم ايضا عن أى سلام تتكلمون على وجه التحديد أى سلام ؟ وكم سلاما ؟ والسلام مع من ؟

وما هو الأمن ؟ أريد أن أفهم لأنه كلما نشبت حربا فى أى مكان ، اذهب أنا لأقتل نفسى وأنتم تستمرون فى الحديث عن السلام والأمن ٠

وفى كتاب « رجال برمتيلوف » كتاب اجبارى فى مدرسة المشاة ـ يتكلمون عن شجرة العنب والمنزل وذلك فى متناول الذكاء المتوسط ٠ تفكير بسيط ومؤثر ٠ ولكن هل لمس أحد منكم السلام أو الأمن بيده ؟

يرددون على مسامعكم بكلمات لا يستطيعون أن يشرحوها لك وانت ربما قد تضحى بحياتك من أجل كلمات لم تفهم حتى معناها ٠ هناك زملاء لى فى المستشفيات الآن فقدوا ذراعهم أو رجلهم ما هو الأمن الذى حصلوا عليه ؟ هناك من فقد عقله ويتخبط فى طرقات المصحات صارخين أيهـا المرض ٠٠ « أهذا هو السلام ؟ » ٠

ولذا سأقول لكم : اننى فى السادسة والعشرين من عمرى وعندى طفلين وليس عندى مسكن، السلام والأمن انهما بلا شك شىء رائع ولكن حياتى أغلى عندى من كلماتكم . اننى لست أبله ، وحينما أحارب اريد أن أعرف بالضبط لماذا أحارب ؟ ٠ واذا كان من أجل السلام اذن اعطونى الايضاحات ، أهو سلام يدوم حتى يبلغ ابنى سن التجنيد ليخوض الحرب من أجل السلام نفسه ؟ اذا كان ذلك هو سلامكم وأمنكم فلتحاربوا أنتم ٠ ان سلامى وأمنى أنا سوف أجدهم فى حياة طويلة بقدر المستطاع وليس فى الموت وليس فى بتر عضو من أعضائى ٠ ومع ذلك سوف أقول لكم شيئا : اننى على استعداد للتضحية بالكثير من أجل سلام وأمن حقيقيين ٠ ولكننى لست مستعدا أن اموت من أجل كلمات لا أفهمها .

لقـد كان أمامنا ست سنوات طوال نتكلم عن السلام والأمن ٠ ولكننا بقينا سجناء لكلامنا ولتفكيرنا ولفلسفتنا الرخيصة ٠ لقد كنـا نحارب دائما من أجـل شىء ما : « الحرية » « الاخاء » « الاستقلال » « السلام » « الأمن » « الديمقراطية » ٠٠ ولكن الاهم من كل ذلك الحياة فقد أهملوها جانبـا وراء أكوام من الشـعارات البالية الخالية من كل معنى ٠

* * *

لقد رأيت شبابا يموت ٠ ولم يصرخ أحدهم وهو يسقط « كم هـو جميل أن نموت من أجل الوطن او يحيا السلام والأمن » بل كانوا يبكون منادين أمهاتهم مثل الأطفال ٠ أو كانوا حانقين ، ومنهم من كان يقول « لاتحكوا نزوجتى فسوف تؤاخذنى طول حياتى ٠. كان يعنى « طـول موتى» أو يقول «اننى اموت دون ان اعلم اذا كنت قد حصلت اخيرا على سلامكم وأمنكم » ٠

فيما بعد ، في فصل للكبار ، سوف يقصون علينا غزوات بطل مات في سجن الاعداء دون أن يفشي أسرار الدولة • وسوف تنصحنا المدرسة ، بالادب المعتاد في هذه الفتنة الا نفشي الأسرار اذا وقعنا يوما في الأسر • ولكنني اذا وقعت انا يوما في الاسر فسوف أصرخ عاليا : الأسرار؟ هذه هي. أتريدون أكثر؟ ها هي . ولكن استحلفكم لا تصعقوني خاصة هذا النوع من التعذيب انا لست بطلا • أنا على استعداد لتسليم اناس لم يولدوا بعد ولكن أتركوا لي يدي • أتريدون اسرارا أخرى ؟ بالطبع ما زال عندي • ان ما قلته لكم الآن ليس بذي أهمية • انا على استعداد حتى الى تأليف الأسرار ، حتى لا يوصلوا جسمي بأسلاك الكهرباء ، ذلك لأننا لدينا الملايين من الأسرار •• وأستطيع أن أقول لهم بعضها فأنا لست بطلا ؟

منذ نشأتي ، كنت أعتقد أن هذه حقيقة رائعة أو أكذوبة رائعة .. أو الاثنين معا لأنني اذا كنت أحب وطني حقا فما الذي يدفعني الى أن أموت من أجله واذا كنت لا أحبه ما الذي يمنعني أن أصرح بذلك ؟

ان شعاري هو : « كم هو رائع ان أحيا من أجل وطني »

من الرائع أن أحيا لكل شبر فيها من أجل كل رقعة زرع بها من اجل كل شجرة اني أحب وطني لأنني احب ان أعيش من أجله • انني لست في حاجة الى علم حتى أكون وطني لا احتاج ان أقبل الأرض لأعبر عن عرفاني أحب ان أعيش من أجل وطني ولا أريد أن أموت من أجله ولا من أجل أي شيء في العالم •



« ادخلوا في الخنادق »

ـ احذروا الكاتيوشا ..

ـ البسوا خوذاتكم ولا تخرجوا برءوسكم ..

دقائق طويلة من الرعب أمام الموت . منذ ثلاثة ايام وجسر من المدفعية يصنع الفراغ حولنا . مروعة هذه الكاتيوشا ترى ضوء القنابل ولكنك لا تعلم أين ستسقط . وفي خلال هذه الثواني التي لا نهاية لها يدور شريط حياتك امام عينيك في فيلم صامت .

ها انت طفل صغير ـ وهذه هى دنيا المدرسة . صباح الخير أيها التلاميذ .. ماما ، من هو الله ؟ .. الفصول الاعدادى والثانوى .. ثم مسيو جوزيف العائد من الجحيم برقم مدون على ذراعه .. ماما، انتهى كل هذا ، أليس كذلك ؟ نقطف الليمون الهندى ونصفه فى الصناديق .. لقد أصبح حبى كبيرا أتعلمون انه يكتب الشعر ؟ .. سوف يصبح من جنود المظلات .، أليس كذلك ستتطوع يا حبيبى ؟.. هيا اجر حتى آمرك بالتوقف .. واحفر حفرة وكن بطلا.. نحن نحارب من أجل السلام ، انسيت ؟.. لقد قتل « موسى » و « تشيبى » و « الكبس » .. ماذا ؟ ماتوا ! يا ممرض .. يا ممرض .

أنا ميت وحى فى آن واحد ، اننى أحبك ياحبيبتى .. احبك جدا .. اذا خرجت من هنا حيا ، سوف احتضنك بين ذراعى طول حياتى ولن أفارقك أبدا ، حتى ولو لدقيقة واحدة .. اقتل نفسى .. انهم يريدون .. ذلك .

ارجو الا تكون عينى التى افقدها ! فاذا لم أعد أبصر فلن أصلح لشىء بعد ذلك .. ارجو الا تكون ذراعى ايضا لا ، ليس ذراعى .. بهذه الأيدى أعانقك واكتب الشعر وأداعب الأطفال وأستحم وأطفىء النور .. ولا رجلى طبعا ، فكم أحب المشى .. لقد فقد « روطبليت » أحد قدميه الا يكفى هذا ؟ .. كما أننى ألعب كرة القدم فى بعض الأحيان يوم السبت .. ولا بطنى .. ولا ظهرى .. ولا أذنى .. اذا مت فسوف تموت كل الأشياء التى احبها معى اليس كذلك؟ أقصد أسرتى وأصدقائى وموزار. موزار الذى أحب ابدا ان اسمعه ، هل سيصبح له معنى حينما لن أصبح هنا ؟ و « البتيلز » و « دايلين توماس » و « وشيرا » ابنتى صغيرتى « شيرا » .. ان بابا خائف جدا وهو فى خندقه انه ينتظر ان يقتلوه أن يحددوا مصيره .. أن ..

القنابل تتساقط . الأولى بعيدا عن الجسر . ولكن المجموعة الثانية تقع علينا كلها .. على بعد خمسين مترا ليس اكثر .. احاول أن أبدو صغيرا بقدر المستطاع ، تمر شظايا احدى القنابل فوق راسى وتطرحنى أرضا عفنة ، أغمض عينى ويمتلىء فمى بالتراب.. يا ممرض يا ممرض « لقد توقف القصف وسعيدا اننى مازلت على قيد الحياة

اتحسس كل قطعة فى جسدى واقسم ان أهرب من هنا ، ان إهرب بعيدا ان اهرب حتى البحر واقول :

« اريد ان أحيا ..

كم هو رائع ان نحيا من أجل وطننا »

* * *

وصل عندنا فى الوقت الذى كانت الشمس تختفى وراء المبانى . كان رجلا عجوزا رفيعا وكبيرا . لقد جاء نحونا من ناحية بيارات البرتقال فى خطوة مترددة وعينيه تنظران الى نعله البالى . كان يرتدى بنطلونا مدنيا وسترة وكاسكيت من ذلك الطراز الذى يرتديه العمال الذين جاءوا الوطن منذ خمسين عاما . كان رؤية غريبة . رجل ظهر فجأة لا نعرف من أين وجاء ليأخذ معنا الشاى التقليدى بعد وقف اطلاق النار فى احدى تلك الأمسية الهادئة بعد الحرب الرهيبة .

كنا قد اعتدنا هذا النوع من الزيارات كان يصل كل يوم شخص من هذا الطراز وكنا نعلم انه لن يتكلم طوال الدقائق الطويلة وانه سيحترق مع الشاى وانه سيجلس معنا على الأرض الرطبة ويستمع الينا نتكلم . كما نعلم انه لم يحضر ليبحث عن ابنه المفقود فى الحرب ولم تكن نقول شيئا ، كنا ننتظر ان يتكلم .. لقد وضع كوب الشاى على الأرض وقال :

« شاى جيد . ثم وهو يهمس . ربما قد يعرف أحدكم هنا « اتزاك » .

أما نحن الذين كانت لا تنقصنا الخبرة فى هذه اللعبة البشعة فاجبنا : « عندنا لم يكن هناك أسرى ولا مفقودون ان « اتزاك » لا يتبع وحدتنا » .

كنا نحب هذا العجوز ونحيى فيه الأمل تدريجيا وعلى كل فقد هناك عشرات من امثال « اتزاك » فى كل كتيبة . وكان العجوز يقول : « معى صورة له .. أنظروا .. هذا هو أنا ، أما هذه « فاتزاك » و « اتزاك » وانا . »

ـ لا ، ليس من كتيبتنا .

ـ لا تؤاخذونى ، فاننى لا اتكلم العبرية جيدا .

ـ لا أهمية لذلك .

ـ أنا أحضر من بولندا . اتزاك ، هو كل ما أملك .. والآن ، لم يعد هناك « اتزاك »أنا .. ذهبت عند الجنود وسالت . . ربما كان أحد يعرف « اتزاك » ؟ كان قائد مدرعة ولا أعلم أين . بدونه .. ماذا سافعل .. فى الجيش البولندى .. كان هناك نظام ..

وسألناه : ما اسمك ؟

ـ أنا إسمى الياهو .

وكنا نلحظ انه يحاول ان يخفى دمعة .. واحدة وليست دموعه دفعة واحدة تتضمن كل عجز الدنيا .. الناس تصنع الحروب والطائرات والصواريخ يذهبون الى القمر .. ولكنهم عاجزون عن العثور على « اتزاك » .

كان الجو باردا ، وأعطاه أحدهم معطفا تركه أحد الجرحى ... فشكرنا على كل ما فعلناه وابتعد بخطواته الثقيلة نحو المبانى .

« ليس من هنا . فهذه الحدود . اتجه يمينا .

ـ أنا لن اتجه يمينا الا عندما أجد « اتزاك » .. »

فى الخندق وعلى الرغم من تعبى ، لم أعد أفكر الا فى « الياهو » الذى جاء عندنا يبحث عن ابنه الذى فقد فى الحرب . واذا ارتفعت كل أصوات الآباء ، الذين فقدوا أبناءهم كالسد المنيع مرددة : لن نتحرك من هنا قبل أن نجد « اتزاك » هل سيفهمون أخيرا أن الحرب حماقة كبيرة ؟

أحد المظليين ينظر الى تل أبيب من فوق . إنه يرى الأنوار الزائلة لآلاف من الاعلانات فى اركان المدينة الأربعة ، معلنة عن أطعمة أفضل، وفنادق مريحة وغسيل مدهش أو عن فيلم سينمائى .

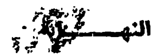
ويعلم الجندى ، انه لن يجد فى هذه الحفلة مخبأ يبكى فيه ...
وخلال لحظات كثيرة يتمنى لو أن الطائرة عادت الى ميدان القتال . فهناك يستطيع أن يجلس على هضبة صغيرة بين زملائه الأموات والأحياء ويبكى وسط أكوام الحديد المتفحم . ولكن الطائرة تنزل بين ضجيج المحركات لتنزل منها كتيبة المظلات على أسفلت المطار، فى مواجهة المدينة الكبيرة . أما البعض الآخر فيعجب لماذا لا يسرعون الى ديارهم نحو أسرهم نحو اعلانات النيون نحو كل هذه الأشياء التى حاربوا من اجلها .

لو انهم ليسوا على عجلة من أمرهم . يقتربون وشنطهم على ظهورهم ، يقتربون من عالم الأحياء بخطوات مترددة ورتيبة . يتبادلون السلام فيما بينهم . وفى هذه الأحيان تلتقى نظراتهم فى نظرات يتخلصون منها بصعوبة . ان الذكريات التى تبدو فى أعماق هذه العيون ، لن يستطيعوا أن يحكوها لأحد ولا حتى لزوجاتهم ، ولا حتى لأنفسهم .

ان الذى مات فيهم هناك ، لن يستطيعوا أن يتقاسموه مع أى انسان آخر .

انى أجلس وأنظر الى البحر . الآن فقط سأبدأ فى القتال ، لقد وعدت « بستسيث » و « يلواث » و « ياكى » و « ميشا » و «انسانى» والزملاء الآخرين سوف أناضل من أجل حقى فى الحياة فى بلد فيه الحياة أهم من كل قصائد ناظمى الشعر . سوف أجمع كل من يحب النظر الى البحر وأطلب أن يحضروا معى الى الأنوار وان ينادوا بين القبور والدموع ، قبل أن تخبو الأنوار ، قبل أن يسألوا عن أنفسهم ويعلنوا عن براءتهم قبل أن تفقد كلمة السلام كل المعنى الرائع الذى كان يكمن فيها منذ بليون سنة .

ثم سنذهب الى شاطىء البحر وسوف نثبت للعالم أجمع انه مازال فينا رمق من الحياة .



كان هذا الكتاب في مرحلة الطبع باللغة العبرية ، حينما علم العالم بموت دافيد بن جوريون ، فنار ودليل دولة اسرائيل . هذا الرجل ذو الجسم الصغير الكبير برؤيته المتنبئة للأشياء ، جعل من شعب أمة ومن جمـــاعة دولة ٠ ان في هذه المصادفة أكثر من رمز ، وأكثر من صورة : ان هذا الأب الكريم ، هذا المارد الخرافي أغلق عينيه حتى لا يرى شعبه يقترب من الهوة لكثرة ما رقص حول الغنيمة .

ولكن لنترك هنا الرموز والتشبيهات . ان هذا القائد الخـــالق لدولة اسرائيل ، كان يعلم وهو يختفي انه يترك شعبا شجاعا ومستنيرا ، تملؤه روح الأنبياء وعقيدتهم شعب تتأصل تقاليده . وثقافته في القدم واعتنقت الانسانية كلها مبادئه الأخلاقية .

لقد تحملت اسرائيل خلال خمسة وعشرين عاما من تاريخها سلسلة من التجارب منذ تدميرها تدميرا كاملا تقريبا « طريق العـــذاب » اذا استطعنا أن نقول ذلك عن شعب يحاول أعداؤه ، في كل جيل ، أن يمحوه من الخريطة .

قبل اعلان قيام الدولة ، كان شباب الجيش قد شبوا على شعارات مختصرة ولكنها خادة كالسيف من نوع : أولا ، يجب أن نكون أقوياء ثم نكون على حق بعد ذلك .. ولم يكن شعب اسرائيل قويا مثلما كان بعد حرب الأيام الستة .. ثم حدث لنا ما يحدث لشعوب كثيرة : كنـــا أقوياء وكنا على حق ، ولكننا لم نكن خبثاء . وهذا هو ربما كان سر بن جوريون الغريب الذي كان يفضل في أواخر ايامه ، الحكمة على القوة والعـــدل .

في اسرائيل ، تعتبر حياة الشباب سباقا مريرا ضد الساعة . ليس لديه الوقت كي يتوقف بين حربين ، بين العدل والقوة ، ليفكر في

الشعارات القديمة التى لم تكن مجرد كلمات فحسب . اننا اذا اخطأنا خطأ واحدا فلن يصبح عددنا كافيا حتى نطالب بأن « يكون لدينا حق » ان كل جيل مفروض عليه أن يبرىء نفسه فكرا وتطبيقا لاستحقاقه لقب « شعب الله المختار » ويستحق أن يكون جديرا به حتى ولو فى نظره.

كل منا لديه أسباب كثيرة تجعلنا نفخر بالانتماء الى هذه الدولة وخاصة الجيل الحالى . ولكن الفخر لايكفى . ان أجيالنا لن يفعل لنا مالا نفعله نحن لأنفسنا . ويبدو انه فى الفترة ما بين الوجبة التى تحدد نهاية صيام كيبور وشمعة « هانوكا » الأولى – عيد الأنوار .. وقع شيء ما فى قلوب المدنيين وكذلك فى قلوب العسكريين. لقد رجع العسكريون الى بيوتهم – فى اجازات قصيرة – وفحصوا اثاث بيوتهم وجذور اشجارهم التى قضت على تناسق الحرائق المنمقة بفروعهم التى تنبت فى كل اتجاه . ان هؤلاء الشباب الذين اوقفوا الحرب بأجسادهم يريدون الحصول على السلام أيضا بأجسادهم . ان اقساهم يتوقف لحظة أمام الحشائش الخضراء فى الكيبوتز وعلى صيف مدينة قلقة او فى مخيلة قرية هادئة . انهم ليفكرون فى غد أكثر تعقلا وعدلا وأفضل وكذلك اقوى .

ان الجيش الاسرائيلى لم يهزم وكذلك الشعب .

وفى جنيف تدور المباحثات والمفاوضات بين ممثلى شعبين تاريخهما يتطاول ويحصد أفضل ابنائه . ان العالم كله يوجه أنظاره وكله أمل فى اتفاقية السلام التى ستلى هذه المباحثات . اننا نصلى كلنا حتى يرى هذا البلد – بلدنا – الذى رأى الدم يسيل طويلا – أخيرا اللبن والعسل يسيل كما جاء فى التوراة . ولكن الصلاة لا تكفى حتى نكون فى سلام مع أنفسنا .

لقد انتصف الليل ، اقتربت ساعة الفجر والغروب للظل. والنور ان دولة اسرائيل تغوص فى ظلام تتخلله النجوم . ان هذا الظلام يخفى آلامنا وكذلك آمالنا الدفينة بعد ساعات سيشرق الفجر . لم تنتظر دولة ابدا ولا امة بأسرها كل ذلك الوقت الصباح المضىء اليوم المشمس الذى سيسمح لنا – اذا أثبتنا حكمتنا – أن نخرج الى طريق جديد. ومستقبل جديد .

فهرس

الموضوع	الصفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٤/٣٤٢٢